رواية

دابادا

حسن مطلك

الدار العربية للموسوعات

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

إخراج وتنفيذ
الدار العربية للموسوعات
ص. ب : ٥٢١٨/ ١٣ تلكس . ARATRD LE٢٣١٠٧
هاتف . ٣٥٢٥٩٨ - ٣٥٣١٩١ - ٣٥١٢٣٩
بيروت - لبنان .

twitter @baghdad_library

حسن مطلك

دابادا

رواية

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع. ح

الدار العربية للموسوعات

جَميع الحقوق محفوظة

الطبعَة الاولى

١٩٨٨

twitter @baghdad_library

. . . بحلول الخريف حيث تجاهد الأشجار للتخلص من أوراقها الميتة قامت هاجر ثم اتجهت إلى المطبخ المنفرد لكي توقد ما تبقىٰ من أحطابها وتعد اصباغاً من عروق الشوك لقربة اللبن . قامت هاجر . يقول شاهين وهي امه .

وفي كل خريف تتجدد ذكرى ضياع الأب في البراري بسبب أرنب مبقع . بعد ذلك تجيء الصباحات وراء الأقفال لتذكر الأبن بوقفة ما ، حفيف رداء ، عشية عزيزة ، خسارة ، بكل شيء تقريباً باستثناء عواد واختباراته في فن الرسم على اعتبار أن كل حقيقي جدير بالنسيان حتماً . . وأخيراً أيضاً ، انتهت القناعات مع زوال الفصول واصبح رضاه نادراً فبدأ بنقر الغلاف مثل فرخ في بيضة .

ومرة بعد اخرى يعيد إلى وجهه المضاء بالحزن ، النشيد المتقن الحفظ ، نشيد حياته الخالية من شرط العاطفة لأنه لم يتجاوز الطفولة بعد سبعة وعشرين عاماً ، ميلاده الناقص في

الوزن . يتعلم سريعاً كيف ينسىٰ الكلام حين امتلأت أواني الطبخ بأجنحة الفراشات ونبتت الأعشاب ذات الاخضرار الفاقع في شقوق أرضيات الغرف وهو يسمع جملة واحدة مذ كانت الأشجار اكبر من حجمها الحالي : انزل يا بني على مهل . . درجة درجة . تراقب تنفسه المرتفع وهو ماض في الاستيلاء على نفسه عابراً غرفته بين شقوق الباب من الرفّ إلى الرف المقابل فيتملكها القلق على صحته وهزاله اليومي ويهزها الخوف : إنه يذبل . . هذا الولد . بينما تلتمع عيناه مجتازة حضور المساءات ، وتنفجر فجأة حين ترى بأنها عاجزة عن إيقاف حركات البندول لأنه لا يعرفها تقريباً ، ولأنهما لم يتحدثا عن هموم بعضهما اللهم إلا نداء الفطور : الا تفطر ؟ صرخة نهاية الظلمة قبل الصعود أو بعده عندما يكتشف أنها تنظر إليه وقد عقدت ذراعيها على صدرها فينظر إليها كذلك ليرى كيف تعقد ذراعيها على صدرها خلال الهواء المهتز بينهما . ولا بد أنها تنتظر خلف الباب أحياناً ثم تذهب لتهمل جسدها بأية صورة وتحاصر رأسها بذراعيها لكي لا تسمع وقع خطواته المتوافق ودقات الساعة ، خطوات منتظمة في الثقل والتوقيت لا تتوقف حتى ارتفاع الشمس ، وهو لا يتحدث على الاطلاق لأنه لا يعرف كيف يقول لها : صباح الخير ، مرحباً ، كيف الحال . ولا متى يقول ذلك ؟ كانت تتحرك بيسر كأنها غير مرئية ، إنحناءاً

twitter @baghdad_library

ونهوضاً مستمرين ترفع القدر عن مكانه ثم تعيده بعد قليل ولكنها حركة متشابهة كحركة الأمس أو الغد مع أنها تقول وتكرر : لقد خطبني الموت . وعيناها تتحركان أيضاً في بركة رمادية من الدمع الدائم . آثار ابتسامة محنطة ، ابتسامة قديمة ملتقطة من لحظة فرح قديم . ويعلو صوتها كلما نبتت لها شعرة بيضاء جديدة إذ يأتيه الصراخ صاعداً على شكل قوس من الشباك الأسفل إلى الشباك الأعلى فيفتح عينيه ويجد كل شيء كما تركه قبل النوم : غبار الرفوف ، غبار السرير ، غبار شعيرات الأنف. وهم يتحدثون عن مستجدات حلّاب كأنما يتحدثون عن كل ما يعنيه مع ذلك ، لا ضير . يقول . لا ضير في البدء لو يتركون فقط مرفقيه على قاعدة الشباك ، فقد لو يتركون فقط مرفقيه على قاعدة الشباك ، فقط لو يتركون . . . . وبدون : انزل يا بني على مهل ، درجة درجة تمسك يا ولدي . طوال نهار الغبار بعد التعب على المائدة لأنهم يسرقونه من متعة اكتشاف احديداب سطوح البيوت المائلة مع انحدار التل ، ينصت دون تفكير إلى خرير ماء الصابون عند صخور البئر المحززة بالحبل مقطوعاً عن التواصل بنهيق أو بجمل عابرة : « أنت واحد منا . زوجتي مطلقة إن لم تشرب الشاي . تمسك بها . أربط البقرة . . الخ » .

كان هجوم الصباحات على النافذة في لحظات قصيرة

مجحفة تمنعه البدائل عن كل أمنية إذ أنه أعتاد النهوض قبل الشمس ليرى الطيور وهي تمزق بأصواتها سماء الفجر الفضية رابطة الغيوم بخط أسود بليل ومتقطع ، على اعتبار أن فتح النافذة ، بل مجرد فتحها كان يقربّ إليه سماء زقورات الآثار : ها هي ، قريبة . ويدخل غرفته فجر الحقول . يرتد : منشفته . ساعة الحائط . رفوف القواقع . ملابس الطفولة . . ويداه في الظل مفتوحتان للإمساك بشيء ما . عندها يبدأ الشك بجدية الوقائع السابقة ، واقفاً حتى ساعات الظهر ، ضائعاً يهتدي بأصداء مبعثرة ، بنعوت عميقة ثم احتمالات غضب تحولت تدريجياً إلى هواية باردة بنسيان وجع الساقين بعد الوقوف المستمر و . . . نادراً ما يصل إلى الاغماء . وانتهت القناعات مع زوال الفصول فأصبح رضاه نادراً ، عند ذاك بدأ بنقر الغلاف مثل فرخ في بيضة .

فمنذ أبعد اللحظات ، تدحرج : « أنا الغزالة الصغرى » . على حفرة غائط وتبقعت ثيابه فساقوه بالتصفيق حتى مدخل « الحصار » ، هكذا يسمون البيت ربما وفق طريقة خاصة في البناء . فكان يلمس الحيطان : باب يؤدي إلى باب ثم نوافذ صغيرة قوسيّة والغرف مظلمة ما عدا غرفته لأنها مرتفعة ، مكان دائم رغم تبدل الفصول ، مكان خاص للنوم والطعام والعري يحتل بقعة فيحميها من الأمطار وحرائق الشمس وبرد

twitter @baghdad_library

آخر الليل . والبيت هنا ، ذابل في مركز العالم وبعيد عن متناول اللصوص . معزول لأنه حرّ في أن يسقط أو يستمر ، ولكنه مقيد بمتانة الزوايا حتى خمسين سنة اخرى تقريباً .

كان يعرف أنه يستحق حين ساقوه إلى مدخل « الحصار » وهو الغزالة الصغرى فوق حفرة الغائط بدليل أن الخجل يأتيه فيكسر نظره إلى الأرض كلما تفحص الأفق ، كيف الأشجار ، وكيف انها تبعثر استقامة الخط فيحسب أن سماء الجيران خاصة بالجيران تقرب الله ببراءة اليقين بامكانية الاستجابة لأماني الفراش . والجيران هم العائلة نفسها بالوراثة أو بتبادل اواني حساء الخباز كفرصة متاحة لاستفزاز الذاهب خلف أرنب مبقع ، إذا ما أستثنى الحلاوة في علب خشبية مدورة ، وللناقص قطعة خبز وعليه كف الأب كطابوقة إذا ما رفض الخباز فقد كفر بالنعمة . يندس تحت وبر الغطاء برفق لكي لا ينكأ حجامة ساقي الجدة السمينة آكلة البيض الفاسد . الجدة مقعدة ، علامة احتجاج الأسلاف ضد الجيل ، وهي تحذّر وتحن : « كان يا ما كان عن الأميرة بدر الزمان . . » . ثم تنام عند عتبة باب السلطان ويمتد منقارها ، وهو يعني انف اللقلق على الحائط فيحول الفانوس لأجل الحصول على مزيد من الاستطالة حتى صدع الزاوية أو يرسم بسبابته على تراب المقشة ـ وان شيئاً ما ينتصب تحته دافئاً كالبول ـ عشرات الدوائر بلمسات حذرة

« دوائـر النعمـان » الفـائقـة في الـذوق . ذلـك الانفـراج غـير المقصود ، العطاس امام الوسادة : مخاط أخضر ، بمثـابة جـذع للثمار الدائرية . كان يحن إليه لأنه هوس النـطق بالأفعـال عبر لـذة الماء الفـاتر . احضـان وعجول الـظلمة تقـرب ما مضى ، خرساء سـوية في التحـول لانها خرسـاء ممتدة حتى قعـر طفولـة الجدة : مجرد جذع محاصر بشريطي قماش ، في الماء أيضاً حيث تستحم العجول . .

حـين اتجهت هاجـر إلى المطبـخ المنفرد عن البيت لتـوقد أحـطابها المتبقيـة صعد إلى شبـاكه وألصق مـرفقيـه بـالقـاعـدة فشاهدهم في ضوء النافذة الصريح ، أربعة رجـال وامرأتـين ، يضحكون بعيون دامعة بين رفعة الأثاث . رؤوس وأكتاف تبيّن لـه ترف الحيـاة التي تعلو مقابـل شباكـه ، وأن الـذي يفصلهم عنه ، فقط ، فراغ ما بين البيوت بحيث يتشجع رجل مسلول على القفز نحو سطوح الحارة الأخرى . ليس ثمة علامة في حائط الجص بـاستثناء فضـلات الحمام عـلى الحافـة السفـلى للشبـاك المقابل ، الحافة التي تـذبح صـورتهم من المنتصف ، ثم انبوب تصريف مياه المطر يمتد حتى الأساس .

مربع الضوء المحدد بمربع ظلام الهاوية ذي الأفقين المليئين بالمتعة ، حـافة الحـوض أو المائـدة أو أي شيء يجلب الثقة بـلا اكتفاء ولا خسارة لأنه ينبثق كهديـة مفاجئـة : ضوء . ضـوء !

twitter @baghdad_library

يعكس وجه شاهين على الزجاج فيتلمسه عندما يتذكر ذواء الخريف ، عميقاً مظللاً على الجص .

خرج النمل المجنح صوب الحبوب الراسية في حافات السيول منذ طوفان أكياس قمح المخازن بعد المطر الأخير ولم يستطع أن يراهم . كان يعرف انهم هناك يجربون السباحة في بركة الضوء غير أنهم مفصولون عنه بنسيج مخطط وهم يضحكون يومياً بين سجاداتهم المزينة بصور طواويس وأعراف هداهد وقرون وعول تمتص صدى قهقهاتهم وكلامهم السطحي الدافىء ، يهمسون في لحظات الهدوء بعد العاصفة ، حركة واحدة كصلاة إلى الأسفل بحيث يمتلىء الهواء بأماكنهم . ينحنون جميعاً ناطحين حافة الظلام فتنبثق جملة واضحة : كتبت بفحمة أو بقلم مستعار من الليل ، « ذكرى المعذب صابر يوم الأربعاء بعد المطر » ، لذلك ، وليس لأجل ذلك ، يسقط في فرق التناقض بين العذاب والضحك ، المعذب والضاحك ، بينما يجمعون استحقاقهم من قتل بعضهم بعضاً أثر التخديش والاهتزاز كصورة عتاب الاحباب . لن يحتمل الخيانة اكثر لأنه لا يريد بلوغ النهاية ، فيرتد باتجاه رفوف الغبار والقواقع ، لكن المربع المضيء يقفز حيثما يحول عينيه فيهرب إلى تخيل صورة البيت الذي سيبنيه في المستقبل قائماً على دعامات رفيعة في أوراق المشاريع ولكنها صورة قابلة للتحوير ما عدا الشرفة المطلة على

البـراري حيث يشرب القهـوة بالحليب ويتحـدث عن امكانيـة القيام بجولة خلف التـلال قبل أن يمـر بعواد نـظراً لحاجتـه إلى اشارة خاصة يحبها فيه ، ويمر ببيوت عديدة تقتسم قباب الأرض لذا سيحتاج إلى تحيات الجيران أولاً . بيوت تحد بيوتاً ، وبيوت تهب سطوحها كـأفنية لبيـوت أعلى . أمـا البيوت الأخيـرة فانها مصدات لرياح شباط وملاذات للأبقـار خلف ابواب الصفيـح المسندة بألواح مسمارية مستخرجة من منحدر التل الأسود حيث ينمو الفطر في اكواب الآشوريين بعدما تمر عليهـا الدواب وقـد عادت من التلال الجـرداء بينما تحتفـل الضفادع استعـداداً لهجر السبـات ويتهيـأ الـزيـزان بعـد ثـلاثـة شهـور للغنـاء في هشيم الحصاد ، ثـم عيدان الشقائق الميتة ـ شقائق الكلاب التي تتـرك ندباً بعدما يلمسها الرعاة . نظرت هاجر إلى الباب يفتح نفسـه بصرير بطيء فأوقفته وهي بكامل اناقة الحداد ، أوقفته . دخلت رائحة الأغنام إلى المنزل ، وقفت . كانت مـرتجفة لأنها مـرتبكة لأمر عزمت عليه فنسيته حالاً ، أما النازل فقد لمح ظل امرأة في الباب فناداه : هاجر . .

كان الظل سـاكناً يتـابع تسلق الـدرب على المنحـدر بينما كانت الأشجار السوداء أسفل الهـاوية تحك نفسها لكي تنتـزع بعض أوراقها الميتة . ومنذ أن وضعت الباب وراء ظهرها تبينت له رغبتها في الجلوس على هيئة السقوط عند النار بجلسة قـديمة

twitter @ baghdad_library

ورثتها عن شبيهاتها وبرجاء لا يوازي نشاط الشهب وقرقعة الأحطاب . رأسها متجه نحو أفق القمر ، وذراعاها معقودتان ، وقد كشف رقص اللهب عمق الغضون حيث يعبّر كل خط عن وقفة وداع أخيرة لأعزاء ، وقفة راسخة ، أبدية لصورتهم وهم يختفون بين الأصابع لحظة رفع الكف . اضمحلت طيات الثوب بشيء من الإهمال . الثوب رمادي مصموغ في الخلف حتى ظل الوتد على أعشاش العصافير ، متميز عن حائط الجص مثل مغارة ، وتقول : أراقب كل يوم طول ساقيك ، متى ستنطح حدّ الباب ، تتخلى عن عادات وتكتسب اخرى ؟ . ومضت على خط إطمئنان بسيط لأنه استجاب فزعاً لكلماتها وتذكر وهو ينظر إلى اتساع حضنها كيف مدت دجاجة جناحيها فوق كتاكيتها حين أبصرت في الأرض ظل الباشق . لكن الغريب الذي مرّ وسمع الهمس ، قال : ان شاهيناً لا يشبه أباه ، فذاك رجل مليء بالغناء . غالباً ما ينسى أي امرىء كيف كانت صورة رجل معين في طفولته ولكنه لن يقدر على نسيان محمود حتى ابعد يوم في الخرف لأنه ولد من مزنة بعد جفاف سنين فأخذته جدته إلى النهر ملفوفاً بمسحوق الشوك ، فكان يبتسم لمشهد الامتزاج العجيب بين الماء والضوء عندما تجيء الأمواج ، تذهب الأمواج ، وتجيء ثم تذهب لاطمة زعانف الأسماك الميتة . وكان النهار الأول في حياته يحمل أنباء سارة فوق ظهور حمير

القرى البعيدة . . . وطلعت العجائز من الوديان لمشاهدة الطفل المعجزة بعينيه الداكنتين وشعره الذهبي الممشط وهو يمص ابهامه ويبتسم لدائرة الوجوه المجعّدة ويجزّ خصل الشيب . لم يكن يحب الغناء فحسب إنما يخترع ألعاباً عجيبة . رجاءً . يعتذر الغريب . كان يركض خلف الأرانب منذ أن تعلم الركض بعد خطواته الأولى . . . رآها في حضور دائم بعد خمود النار حركة أثر حركة ولا يعرف كيف يقول : أمي . وهي تجهل عنه الكثير لأنه لا يعرف كيف يقول : امي . ولا ترى اخلاصه المشع كأخلاص الابناء عندما يسألون عن طبخة اليوم ، بل على العكس ، ترى الجحود المشع في مرور السنوات التي يقضيها محبوساً وهي عنده سواء في النشاط والمرض . . ويخمد الجمر فتغيب عنه كذكرى وفاة ، بلا أحاديث لانهما يعرفان حياة بعضهما البعض كما ينسيان بعضهما لحظة الصفاء الباردة ، نتاج الصداقة ، الابريّة ، ما أن تحضر حتى تغيب مطموسة في الليل باتجاه أفق القمر بعدما لبست صفة القسوة كما تفعل أحياناً عبر صيحة برمة . سمع اصطفاق قماش فخمن انها واقفة لكي تنفض الرماد لكنه لم يبصرها حتى سدت ضوء الباب ثم دخلت .

سمع صوتها الحزين ، أنيناً كصوتين مختلفين عبر مانع الذباب .

أولاً : وضعت حذاء المطاط تحت ابطها لكنها استدركت

twitter @baghdad_library

فلبسته ثم انتبهت ، ثانياً ، إلى ثقوب المسامير في الحائط . مربعات مغبرة ، أماكن مربعات لصور مخلوعة . صورة محمود في الوسط إلى جانب وجوه ممثلين حازوا على جائزة الفتنة السينمائية . عادت كما في ذلك اليوم باكية محيرة وقد تمنى أن تكون هادئة وهو يتبعها كلما استدارت بسبب الحائط ، ثم اختضت فجأة بعدما اخفت ذراعيها خلفها . دقيقة صمت . بل دقيقة وقوف لأن الصمت مستمر و : اتبعني . . لكنه انزلق صاعداً السلم حيث شباك الضحك بعد الهوة . صفعة . صفعة اخرى و : البس واتبعني . .

مرت خطواتها بمحاذاة احطاب التين فتلمسها فاهتزت بحركة تدل على النوم . تثار الروائح لحظة لمس التين . الروائح التين ـ يا للألم . عجائز . اشجار تعاصر التحولات ، تنفض وتكتسي . عجائز بين الأغصان ، رائحة الصرر والريش المنقوع والحساء وأبخرة القيعان تصعد أحياناً بمستوى التل حيث مكان وقفة الانوف في الافنية المحروقة تكشف عن علاقة نحسة ، تهتز . . نادراً ما تهتز بفعل الهواء فيجبرهما الانحدار على الركض حتى منتصف طريق الحصى المرصوف بشجيرات الكبر التي تهتز بفضل الحفيف . كان النهيق وحده ، ثم النهيق والخوار ، النباح والخوار ، أصوات اخرى لكنه اكتفى بالانصات إلى حفيف عباءة هاجر كشيء شبيه باحساس النهاية . العناصر الفطرية التي

تعلو على الانفعال الأول لـرؤية زغب الشارب . يمد الطريق نفسه إلى هدف سريّ في الهاوية ، لأن الهاويـة في كل مكـان ، أحياناً تكون خلف الباذنجـان حيث الموضـوع الخاص بمجـاعة السود ثم يرتفع الطريق مجبـراً على ظهـر تل فـلا يجب الألتفات لكنه يتذكر منظر أضواء القريـة عن بعد ، لا سيـما بيت حلاّب على أعلى تل ، بنوافذه التي يمسح ضوءها شجر دائم الخضرة في الحوش . لحظة اهتزاز التين ، يسمع مضخة الماء تغذي تفرعات السواقي فينداح ماؤها في زغب الحقول وحطام مزارع القطن . بحركة تدل على النوم ـ لا يزال هنـاك ، نوافـذ قوسيّـة والغرف مـظلمة مـا عدا غرفتـه لانها مـرتفعـة كمكـان دائم رغم تبـدل الفصـول . البيت . ذابل في مـركـز العـالم وبعيـد عن متنـاول اللصوص ، معزول لأنه حر في أن يسقط أو يستمر ولكنه مقيد بمتـانة الـزوايا ، لحـظة اهتزاز التـين ، يسمع الكـلاب المحيطة بمستطيل جلسة الضيوف تنتظر عظماً مقـذوفاً من فـوق كتف أما القطط فتموء في زنابيل الغلال مغازلـة اذناب بعضهـا ، قرقعـة قدور بفعل نساء غاضابات لكثر ما طهين من حواصل دجاج لم يسمح الوقت بتنظيفها . . .

سمع . أجل ، عادت كما في ذلك اليوم . هاجر . باكية محيرة غير أنه موحل بمكان ورأي ليس لأنه يكرههـا بل لأنـه لا يعرف كيف يقول : أمي . ويكذب ثم يظهر لها قاسياً ويعـرف

twitter @baghdad_library

أنها تنتظره على بعد خطوتين فيحس بالارتفاع والهدوء الشبيه باللهب وحذر الأراضي المفتوحة . أبداً ، لم يجبها بحسم كما توقعت ، وهو . . شاهين ، يفهم وينصرف بينما تخاطبه برجاء : انهض . فلا ينوي الامتناع لكنه لا يقاوم فحدثته عن مذكرات ثور خدم القرية ، وهي القادرة : انهض . ثم تحدثت عن وزّة ـ المرأة ذات الخوارق . كان ثوراً قهوائياً . ما معنى القهوائي ؟

يسمع الطرفة الأولىٰ : الثور القهوائي شبيه بالقهوة بحيث يحتاج الىٰ كوخ خاص به لأنه كبير . هل كنت مرتاحاً حقاً ؟ . وبسرعة : نعم كنت مرتاحاً حقاً . الثور القهوائي شبيه بالقهوة ، بالأحرىٰ شبيه بلون القهوة التي نضعها في الفنجان ونشربها ولا يمكن ان نضع الثور في الفنجان ونشربه لأنه كبير جداً . بحيث يحتاج إلىٰ كوخ خاص به . واغرورقت عيناها بدمع لم ينزل ولم يجف : كنت اتعذب طوال هذه المدة . . وانت ؟ فيقول : أنا ؟ . كانت قرناه : أنت لم تر قرينه وهو يقطع الحبال في محاولة غاضبة لمناطحة حيطان الكوخ . أنا أيضاً . ولكنه لم يفكر بمحادثتها الآن . لماذا ؟ . ووقفت فجأة أمامه : أريدك . . محتاجة إليك . كان صامتاً وليس حزيناً وإنما يريد أن يبكي . لا يدري احد لماذا كان يكره منظر الرجال فعندما مرض ذات ليلة وتمدد علىٰ التبن . . وما أن رأىٰ البيطري الذي لبس ثوب امرأة حتىٰ انتفض وهاج قافزاً حيطان الزرائب باحثاً عن

بقـــرة مستعـدة للولادة ثم اختفىٰ . اختفىٰ !!. تقـــول: نعم اختفىٰ . وتقـول : أريدك محتـاجة إليـك أريدك . . ولكنهـا لا تفهمـه : ومن يستطيـع فهمك ؟. فشعـر بالبـرد حيث لم يكن الكـلام مهماً . اختفىٰ الشبيـه بالقهـوة فاحتـار معجبوه بـذكـاء السارقين ، وكيف لم ينطحهم وهو الذي ينطح أي شيء ويدس قرنه ، هكذا يحب ان يدس قرنه في أي شيء لأنـه لم يكن ملك شخص معين ، ملك القرية كلها فقد اشتركت المنازل في شرائه قبل أن يذهب إلىٰ حقـول الحلفاء العـالية ودغـل جزر النهـر . حكاية يعرفها شـاهين . واستـطاعت وزّة أن تتنبأ وتكشف عن المستور . حوّل رأسه ، تغوص القرية خلف خيط التلال ويبقىٰ منـزل حلّاب يـدفع الضـوء من نـوافـذه إلىٰ مـديـات الـطريق القصيّة .

كـان النبـاح يصعـد من الأرجـاء . النقيق في البـرك . . وحين عوت الذئاب ابتدأت يقظة الحشرات عندما قال شيـخ : إن الشر فكـرة وان الحب طبيعة. كـانت وزة في غرفتهـا تمارس طقوس الانعتاق والتملص .

أحس شاهين ببـرد في الرأس عكس المتفق عليـه من أن البرد يبدأ بالأقدام لحظة طلوع قمر المستنقـع أمام تلك السـاحة التي يسمونها منزلاً خاصاً بالغائبة ، وثمة غرفة واحدة مرميـة في

twitter @baghdad_library

الطرف ، وقد فوجىء حين دفع الباب كيف لم يلتف بهذه الوجوه من قبل : كيف لم التقِ بهذه الـوجوه ؟ الحياة مكرسـة في مقهىٰ صغير . يمكن ذلك . وجوه حادة التعابير ، لواحـدٍ وجه الثعلب في قراءة الأطفال . الثعلب الشاطر ـ الثعلب الماكر . مستعارون من صـور كتاب القـراءة . مرضىٰ وأقـوياء تفـوح منهم رائحـة الخشب المنقـوع لحظة اهتـزاز شجر التـين . واحـد يجلـس في الزاوية ويدخن دون أن يرفـع بصره عن دوائـر سوداء رسمتهـا قواعد صحون الشاي . يدخن دائماً ولا يـدخل أحيـاناً . ثمـة ذباب ونساء ، ذباب الخريف ، رجـال ونساء . رجـال فكهون وذبـاب طنان يقتـات علىٰ البصـاق وبلورات السكّـر الضـائعـة كذكرىٰ عجوز تغسل وجهها بالعصير لازالة التجاعيد وفق مقولة مـا . شيوخ يحسبـون خرز المسبحـات أو يكـرزون بـذور عبـاد الشمس تحت لافتة : البول للحمير .

تدخل الوجوه القـاسية تبـاعاً بصحبـة غبـار الـطريق في وجود كثيف من دخان التبغ ، تذكر مسمار غرفة هاجر ، يتدلىٰ منـه حزام الـوالد الجلدي بتعـاطف حر مـع عصـا التـأديب ، ومسمار عام في منـزل وزّة يدخـل رأسه في تفـاصيل المعـاطف والعباءات محتفظاً بذكرىٰ روائح مختلفة : البقول والنيكوتـين . وتمتد أمامه أصابع راجفة إلىٰ أصابع اخرىٰ محروقـة لتزيـل عنها

قشـور الشفاء ولا تكف عن الحـركة والبحث لعلهـا تعثر بشيء يغطي البقع .

أسند رأسه إلىٰ الحـائط البارد فسمـع عبر المـلاط زحوف الـذكـريـات واصـوات النجـدة والـدعـوة إلىٰ الشـاي في اللبنْ المختبىء . . دبيباً أو شيئاً شبيهاً بالاستنساخ ، فلجأ إلىٰ تفحص ثور بشري تبرز خصيتاه بوضوح دافعـة مثلث السروال ، كـان يتكلم بصـوت مخـدوش ويهـتز مـلاطفـاً الأصلع السمـين ، أو السمين الأصلع نفسه ، ثم يأخذ لحظة كأجازة ليقرأ ردْ الفعل في الـوجوه و . . يبتسم . . يبتسمـون مباركـين المـزاح . يقـول : استمـر . يضرب كفـه بقوة ومـرونة عـلىٰ الصلعـة : يـوه مـاذا فعلت ؟ يقول أحدهم : استمر . ويضحكون . هنـاك فتحات خاصة بالضحك . لـلانسان فتحـات كثيرة احـداها للضحـك وكلهم طيبون تحت اللافتة لأجل تمشيـة الوقت يصفـع احدهم الآخر ثم يضحكون معاً ، واحياناً يضحكون سويةً . فرق كبير بسبب اختلاف الفتحات .

وفي نسق ايضاً ظهورهم علىٰ الحائط يأملون بمجيء أشياء من المجهول . في نسق . ينقلون أبصارهم بـين خشب السقف ثم يلاقونها عنـد عش سنونـو خطط العمـود الرئيسي بفضـلاته وغادر إلىٰ بلاد الهند كما تصف الأغنية .

twitter @baghdad_library

إن أي شخص هنا ينتظر بفارغ الصبر والحزن انفتاح الباب ومجيء الصفات الأولىٰ للغائبة : الظلمة والشهوة ، التنبؤ والغرق ، الزحوف والأستهلال والذبح المفتعل ، رمز الذبح تقريباً . كلهم يفكرون بالباب ويقتربون من بعضهم بعضاً ويحبون بعضهم ، غير أنها لم تخرج اليهم بعد لأنها تبدل في ضوء الكبريت وجهها . لربما سيأتي الحظ في هيئة شعاذ : صدقة . أو عودة غائب من وراء الأقفال في نفق : السلام عليكم . لكن ثمّ قلق وراء كل جدار يتوقع الجالس بعد الخروج أن يُباغت بكلب زاوية ليلية : عو .

كان الزمن ضائعاً في فراغ المكان ، كافياً لكي يستعرض كل منتظر اسماء الوجوه العميقة المطعّمة بيباب الحصاد . هناك آثار كلمات ذاوية علىٰ الشفاه السفلىٰ المتدلية . . حتىٰ المسافة بين الناظر والعمود ـ إلىٰ عش السنونو ترسم تاريخ شخص علىٰ عجل فهو رائع ، قوي ، متماثل للشفاء بعد سنة أخرىٰ يكتشف، إذن ، مجموعة افتراضات مخبوءة في حلم . أن يولد عارياً فيتطبع ثم يتقن حدّ الدقة كيف يوضح ويعتذر كأنما يعبر عن اسفه لهذا المجيء . في الحقيقة ، إن هي الا استجابات أولية متتالية كلعبة مضمونة الخسارة وليست ابداً مشكلة بداية ولا نهاية ، ولكن فيما بينهما . كيف استطيع ؟ يقول شاهين . اسئلة تعود لسؤال واحد اصلاً .

أطلق عينيه بمحاذاة الحائط إذ ينتهي البيت الطويل بآخر زاوية فأبصرهم ينحنون أمام الضوء المجزء لنافذة غرفة الغائبة ويتفحصون بعجب رقة جناح حشرة عندما تتلامس رؤوسهم على شكل زهرة سوداء تمد فروعها في ظلال سيقانهم المطوية على الحائط . يعد اعمدة السقف : واحد ، اثنان ، ثلاثة ـ صدع في العمود الرابع، والآخ (. . .) ، هذا الأخ بالذات يبدو مقلوباً بالنسبة للسقف ، رأسه إلى الأسفل حيث يرقص ظل النار ويزيد الرماد عتمة عينيه . صغار في مرحلة الزغب يذهبون إلى الزاوية واحداً بعد آخر وينظرون إلى الحائط عن قرب شديد . يحك الطويل ظهره بوتد حبل باب الخشب . يعودون . يذهب أحدهم إلى الزاوية . الطويل يتكلم ، ليس الطويل بالضبط ، إنما أطولهم يتكلم وهم ينصتون . ينحنون أمام الضوء المجزء لنافذة غرفة الغائبة وتتلامس رؤوسهم من جديد على شكل زهرة سوداء .

استفاق شاهين ، وهو يستفيق مبكراً احياناً ـ نوم الكلاب الحذر . كانت يداه مهملتين على صدره فانتبه لهما : نعم . اسمها هاجر . تجيد السؤال العادي : كم الساعة ؟ بعد خمس دقائق من : كم الساعة ؟ السابق . تسأله فينهض : هواء . يقصد أوكسجين ، على جذع مبتور أمام الباب يسمع السكون كمخرز يدخل الأذن فتسمح له بعينيها .

twitter @baghdad_library

وشيش كمخرز يقطعه عواء بعيد أو نهيق بعيد أو دبيب قوائم قطيع متأخر العودة .

خرج أطول الصغار وقعد علىٰ الجذع يحك عود كبريت فينير المكان . يحك عوداً آخر . يحك آخر فتْنبع النار من مكان بعيد ، زمان بعيد كبعد اللجوء والارتواء لأن الطفل يغوص بين الحائط والجذع فلا يلحظ منه سوىٰ عينيه الطائرتين في فراغ بعد الغروب . تنفس بطيء خائف كلما نزل أكثر بيْن الجذع والحائط . تنفس بطيء بطيء . . بط . . . يء ، يكاد أن ينقطع . بينهما مسافة تكفي لتمييز عمق الظلام ـ حتىٰ وعورة الهند مع خط منعكس الىٰ غابات افريقيا . عمق الظلام في الجمجمة . عيون الزنوج عبر الليل الماطر ، ليل خط الأستواء . الرجل الخائف ، الرجل صاحب الطبل . المرأة الخائفة ذات القلائد . الضوء البعيد في عينيه . عينا طفل بوذي بموازاة خط الى عيني طفل من مجتمع سموا . . . . .

. . . . سموا . . . . . سموا . . . . . .

لا تقتصر النار في علب الكبريت بل تختزن احياناً في عيون صفراء لنمور تمشي بين الأكواخ . يقول إنه بحاجة إلىٰ الحب . هكذا يقول : إنني بحاجة إلىٰ الحب . وهو يعني أنه بحاجة إلىٰ عيني نمر لكي يرىٰ مذلته في شكل سداسي ، كامنة ـ وهو

يقصد : خامدة . في هجران الحميمية العائلية كحفيف عباءة هاجر . أصناف اخرىٰ يمكنها الإنبات في هواء البرك . تلك هي البرك . هواء من هذا النوع تقريباً ، حقيقة كل ما يثير رائحة الانسان . . . حتىٰ احتكاك العود الأخير . العيون السداسية الصفراء للفهود السوداء ، النمور الجميلة الجائعة . ضوء يخرج من ثقبي الجمجمة . كان محتاجاً إلىٰ هذا الاحصاء لأنه محتاج الىٰ قسوة الضائع في البراري بسبب أرنب مبقع . وكان يلجأ إلىٰ النوم تقريباً حين قرع خفيّه علىٰ سطح الكرة الأرضية . وتبقىٰ هاجر بجوار الباب مستعدة لفتحه في أية لحظة بعد أن تفرش الجلباب علىٰ المخدة وتلبس قلادة سن الذئب وتضع القدر في الحمام وتغرز عود بخور في شق الحائط . كان يلجأ إلىٰ النوم لكي يسمع صوت شفط الخدّ حتىٰ غرفته العالية ثم صوت خشب البندقية مع سؤال حول المستوىٰ الدراسي . يسمعه منهاراً علىٰ المخدة بسبب تعب الصيد متحدثاً عن أوكار الأرانب ، وهاجر تقول :

« أنت تحب الباذنجان . شرائح أم دوا . . . » فلا يدعها تكمل لأنه يصعّد كلمة « دوائر » علىٰ شكل غناء : دوائر النعمان الفائقة في الذوق .

وهي تعرف أنه لا يصيد لأجل شيّ اللحم وإنما لمجرد متعة

twitter @baghdad_library

الصيد . ملول وحساس . صبور في البراري . سريع العطب في البيت . .

أصوات مختلفة لأشياء مسحوبة أو مرمية ، وكلمات ضائعة بين الأصوات هابطة عن قدرة السماع لأنها همسات ، باستثناء تلك التي يصرخها فتهز الرفوف وتفلت إلىٰ الطقس عبر الشبابيك القوسيّة فيسمعها المارون عجباً أو اغتباطاً أو شتيمة لا تعني التجريح . . . ويظل يتحدث حتىٰ منتصف الليل ويخفت صوته تدريجياً في اذن الموشك علىٰ النوم ، يخفت ويخفت ، ثم ينتبه من جديد : « هنا لندن . نحييكم ونقدم لكم أغنية حبك نار . . . » .

بعد أن ذاب الصبيّ بين الجذع والحائط انقطع الاهتزاز والحك فهجمت الظلمة . تلمس المكان : هوّة . بمحاذاة الجذع . هوّة بلا قرار فأين الحائط . مجرد اشاعة مقنعة حول احساس الامتداد . مجرد : اين الصبيّ ؟ . . عيناه ، أين ؟ عيناه الطائرتان في ثقب منطبق علىٰ الطريق القديم لقوافل التوابل والحرير والورق الصيني . عيناه ، ثقب الضوء . . . أين ؟

دخل القاعة بعد الذوبان . القاعة . المنزل . المقهى ، أي شيء تقريباً ـ بيت الغائبة وقد حضرت . مفاجأة ، ممتلئة بيضاء موشومة الذقن موشومة الأصابع ، وموشومة في كل جزء ظاهر

وكل جزء خفي تحت الثياب ، لأن سلسلة الخطوط الـزرقاء لن تكون مريحة للناظر لو انتهت عند حد الثوب الأسفل ، بل تدب كحيوان أزرق بعشرات الأرجل الىٰ بقعة لقـاء حميم في منتصف الجسم . انهار من الرموز تنبع من سر الحياة في منتصف الأنثى . منتصف الجسم تقريباً . عينان غائبتان كعيني القادم بعد تجربـة الموت . وهي قويـة لأنها تحمل ثقـل الحصىٰ المثقّب بمثابـة قلادة تتصافق مع حركة الساقين بـاتجاه الشيـخ القائـل أن الشر فكرة وأن . . .

الشوك نبت في ذقنها بدل الشعر . وانفلت اللولب . ففي كل مرة يحاول الامساك بلفظة تختصر الحياة ، كلمـة يقولهـا فلا يبقىٰ سر بعـد ذلك ، ولكنهـا تقفز الىٰ مكـان آخـر كلما حـاول جمعها .

لقد كسرتها الأيام المليئة ببكتريا الزيف البشري وهي هذا النقاء الملوث طوال الساعات المصروفة في النظر الىٰ نبض الأشياء الميتة وتقول : لم أنس ، ولكنني كنت غير قادرة عـلىٰ المجيء أو على ايفاء ديونكم ، مكسورة ايضـاً بلذة اعترافهـا الأخير بعـدم القـدرة عـلى ايفـاء الـدين كله ، ولا حتى نصفـه . وهي تـرىٰ الرجال يصعـدون على سلم عمـودي نحو الهـواء وترى النسـاء يصفقن لهم ، وبذلك اكتسبت تجربة في قراءة النوايـا بما يفـوق

twitter @baghdad_library

رصيد قرن من الخيبة . على اي حال ، يبدو في بواطن اعترافها بأنها ليست مهزومة تقرياً، وإنما متعبة تقريباً . ليست خائنة بل مسكونة بمرض الحواس احياناً ، مع ذلك فالأمور لا تبدو كما هي عليه لأنها ترىٰ بأعين متباينة الحدة . لا تستطيع لفظ بعض الحروف، بعض حروف العلة وليس بعض الحروف الصحيحة أبداً أبداً ، متحدثة عن قدرتها في إيقاف السيارات علىٰ عجلاتها الخلفية ورؤية رداء الجد باشارة واحدة من عصاها . توزع الحلوى على المارين وتبعثر زبائن سوق الهرج في المدينة . ومرّ زمن طويل ـ طويل تقريباً ، مأخوذة بأحاديث مبهمة ، لم يدرك الحاضرون معنىٰ لوجودهم هناك ممن يحمل منهم شرف الالتصاق ، أو قدرة الالتصاق عبر غفوة تمتد من مراهقة امرأة حتى سن اليأس . زمن كافٍ لادراك أن ما فعلوه وما كانوا يفعلونه بلا معنىٰ ، وأن حضورهم شبيه بغسل الأحجار قبل رميها في النهر .

وبقدر ما كان الأمر بعيداً عن شاهين فإنه ملزم بتصعيد حركة التنفس مخافة الضرب واللعن حد الأغماء إذا ما تجرأ بطلب المزيد من الأوكسجين .

في الحقيقة ، إن ما يعد شخصياً قد يعني الآخرين أحياناً بالفضول أو بغير الفضول لذلك لم يتمكن أحد من منع رغبة

الارتجاف كاستحالة منع رغبة الثرثرة، باستثناء شاهين . هو . شاهين. وليس سواه أبداً أبداً . والحال مع هاجر معادٍ لمفاهيم البيت المعروف وقد انتصبت بموازاة العمود المخطط بفضلات السنونو وحيدة مأخوذة بنداء تفك جدائلها عقدة عقدة وتغيّب الحاضرين . . . بينما انسحب الىٰ الجذع مخفياً وجهه بين كفيه ـ إلى الظلام . دامغاً بمهل الرموز التي تعلو على التجربة . تتجاوزه . تلك الهابطة من الأسلاف الطيبين الصحراويين الزهاد المعصومين عن الخطأ . فلو كان الحادث مجرد صدفة ، لأمكنه أن يتخيل ورأسه بين يديه وهو يسمع حفيف السيارات وليس حفيف الأشجار كما هو الحال لدى الغائبة التي حضرت ، ضوء الكبريت وليس الضوء الكبريتي . إنها الفوضىٰ أحياناً . يتخيل ورأسه بين يديه كما هو الحال بالنسبة له : تحول الحجر إلىٰ كعك ، إذا رغب الحجر . إنها الفوضىٰ دائماً . فوضى داخل فوضىٰ متبوعة بفوضى ، وأنه لا بد من تبرير لهذا الضغط المسنن علىٰ سطح الرأس ، هواية العالم الأزلية. تبرير حركة الأشياء .

دفع ذراعه إلى الخارج ، كل شيء خارج ، الحائط والظلام والجذع وعيدان تنظيف الأسنان ، كل شيء خارج . محاولة لرمي الأحداث في مخزن التأجيل. هي رغبة ، أن يقبل بما يرى ، إنها رغبة نقل القدمين كانت تخصه ، هو شاهين وليس

twitter @baghdad_library

غيره أبداً لأنها تمر خارجة من بدنه . حتماً سيعرف شيئاً ، سيحب شيئاً . يقول : سأعرف شيئاً وأحبه .

يقين مبدأ الملاحظة الذي لا يكذب حين يراقب : أنا شاهين ، أراقب نفسي تطول وتغير عاداتها .

نسي أنه سيفاجأ بارتفاع الأرض عندما صعّدت الضواري عواءها ، وشعر في نفس الوقت بحاجة لتحريك القدمين بلا انقطاع مصغياً إلى البقع المعتمة في سطح القمر وشمشمة الحيوانات في أخاديد ما بين التلال . الحفيف السري ، مرة أخرى ، حفيف ثياب النساء . نساء بلا شك ، يعبرن أفنية المنازل فوق احجار مرصوفة، يعبرن بحذر أحياناً حتى لا يطأن الأرض فتنكسر أصابعهن .

التماعات فورية ، كل ما يخص رغبته في رفس علبة مجعّدة. يبحث عن التماعات العلب في ضوء القمر . التماعات تقاطع قضبان الشبابيك على سفوح التلال حيث بعض مربعات الضوء المبقّعة بظلال أواني الشاي . المساحة أقل بنا عم الهواء . ظل فوق ظل. جزر ومزهريات ومسامير وأنوف في الظل . ربما نسي القلب واجبه مبهوراً أمام الحياكة المتقنة، القمر ومساقط الظلال . ضوء وظل ، بينما تذبل البيوت في مركز الكرة الأرضية فتذهب الصور ويأتي الجوع أحياناً. تأتي قنازع القش فيبصر بيت

حلّاب علىٰ أعلىٰ تل ويسمع مضخة الماء تغذي تفرعات السواقي المنعطفة بفضل المنحدرات لكي ينداح ماؤها في زغب حطام الحقول . . . عواء .

سمع صراخاً في أقصى القرية فخفت قدماه ، ثم تباطأتا . هذان القدمان بالتحديد ، تجران شخصاً إلىٰ جهة الصوت . ثمة أقدام اخرىٰ تجر ظلال اشخاص إلىٰ جهة الصراخ .

الذي في أقصى القرية . جلبة . ضجة ، حياة الآخرين . جاء رجل مسرعاً وتوقف بالقرب منه علىٰ أمل أن يسأله شاهين : ما الذي يحدث هناك ؟. فلم يجبه . ضجة . جلبة . لا مناص. أناس يفور فيهم الدم ، وهو أيضاً يبحث عن الصراخ لكن الأمر لا يعنيه لأنه مليء بالغبار ، مليء وملفوف . الليل في جانب العالم . وحده في هذا العالم ، مع ذلك فهو وحيد تقريباً . غير متأكد بأنه سمع صراخاً وأن رجلًا ما ، ظل رجل ، سأله : ما الذي يحدث هناك ؟. يأتيه الصراخ فيشعر بالأحشاء ، مجرد احشاء من ألياف دافئة . لحم شفاف ودم أحمر ، يضع كفه علىٰ جبينه ، يقول : ساخن . تنزلق الكف فتمتلىء قبضته بأنف فيقول : أنفي ، ربما كان أنفي . يستمر المشي ويرتفع الصراخ كشيء إلىٰ الأعلىٰ لا كصوت يزداد ويصير بعيداً جداً . . . هناك .

يضحك في داخله ثم يفتح عينه فيفاجأ بضوء النافذة ،

twitter @baghdad_library

مبهوراً بمربع منير عبر الزقاق . أربعة رجالٍ وامرأتان ، يضحكون بعيون دامعة بين رفعة الأثاث ، بلا أية علامة في حائط الجص باستثناء فضلات الحمام علىٰ حافة الشباك السفلى، تلك التي تذبح صورتهم من المنتصف ، ثم انبوب تصريف مياه المطر يبدأ من الأساس .

ينحنون بحركة واحدة كصلاة الىٰ الأسفل فتنبثق عبارة واضحة بعدما يملأون الهواء بأماكنهم ، « ذكرىٰ المعذب صابر يوم الأربعاء بعد المطر » . يضحكون في مربع الضوء المحدد بمربع ظلام الهاوية ذي الافقين المليئين بالحذر ، حافة الحوض أو المائدة أو أي شيء يجلب الثقة بلا اكتفاء ولا خسارة لأنه ينبثق كهدية مفاجأة : ضوء . وتقوم المرأة التي في اقصىٰ اليمين وتدور حول نفسها ثم لا تقو علىٰ الأحتمال فتسند رأسها فوق كلمة « صابر » ناطحة الحائط وهي تهتز بحركة تدل علىٰ الذبح حتىٰ النهاية . . وتنتهي فعلاً ، منزلقة منهارة نحو الأرض ، إذا كان ثمة أرض اصلاً ، في حين يبقىٰ صدىٰ ضحكتها صاعداً من محل السقوط نحو مكان الخفقة الأخيرة لقميصها المهتز ذي البقع الحمراء ، وقد سحبت بأصابعها حروف « صابر » الفحميّة فتبعثر الاسم نهائياً . وتوقفوا عن الضحك فجأة ناظرين الى المرأة الثانية ، وهي اصغر سناً إذا لم تخنه مسألة القرب والبعد عن مصدر الضوء ، بعشر سنين أو أقل ، إلا أنها أقل فتنة من الأولىٰ

المنزلقة لذا فقد أصلحت الفارق بالمساحيق وأخذت تفك شريطاً أحمر عن عقصة شعرها ثم ترتبه من جديد . انخفض صوتهم تدريجياً وتحول إلىٰ كلام هامس فقام الرجل الأسمر البدين من مكانه ، وهو بدين لأن بطنه كبيرة ، وهو أيضاً أحد الرجال تقريباً . قعد لصق المرأة بينما انشغل الآخرون بنقل بعض الأشياء من مكان إلىٰ مكان قريب . فأين المرأة الأخرىٰ ؟ إنه ينقر . اين المرأة التي انزلقت ؟ . ينقر فمها ثم يمسح فمه .

ينقر عنقها فتمسح عنقها . ينحني قليلاً فتظهر يده ماسكة بكرة صغيرة حمراء . يضع الكرة الصغيرة الحمراء في فمه ، ويلوكها نافخاً خده المعاكس لجهة المرأة وهي تفعل مثله ، أي إنها تضع كرة صغيرة حمراء نافخة خدها المعاكس له . . .

تنبت المرأة الأولىٰ في منتصف النافذة وتدقق في الشباك المقابل ـ شباك شاهين وهو يقول : شباكي . ثم ينسحب قليلاً مفكراً بكيفية ظهورها ، فأما انها زحفت أو تدحرجت من أقصىٰ حتىٰ مقدمة الغرفة . لكنها لم تطل التحديق فقد أشار إليها أحدهم أن تقترب ليبدأ الهرج بصوت واضح هذه المرة . حديث عن غطاء السيارة وضرورة وجود ملصق لفتاة جميلة عند مرآة السائق . ثم تحدثّوا عن عمق حفرة الأساس وأنابيب الماء ومزهرية الخشب ذات الزهور المطاطية . وعن الدهشة المحتملة

twitter @baghdad_library

في الغد حول مسألة الحصول علىٰ ملاعق وسكاكين علامة الجمل . انقطع الحديث بعدما تحول إلىٰ همس ، وانحنوا إلىٰ الاسفل مجدداً ثم رفعوا اعناقهم بحركة واحدة كشرب الطيور ، انفجر الضحك . عيون دامعة وحركات استنجاد ، احدهم يتشبث بالآخر حتىٰ لا يسقط ، أو يتمسك به . نشيد ست فتحات . ضحك ضحك حك حك . يضحكون ضحكاً. ضاحكون في الضحك . . . ويضحك شاهين باضطراب ولكنه ينسحب الى الزاوية ماداً يده بلا تفكير الىٰ طرف الرداء ، ودون قرار أيضاً بدأ يهتز بعذاب نادر في محاولة يائسة لتثبيت صورة ما ، أو واقعة تتكون أثر فك أزرار الصدر أولاً فتقوس بأقصىٰ ما يستطيع لكي لا تذهب الصورة ، ملصقاً خده ببرودة الجص . . . لكن الضحك المقابل بدد الأوضاع كلها . . . وأخيراً انقذه الأنزلاق والوقوع فلم يحاول مرة ثانية لأنه يعرف أن لا فائدة من المحاولة .

سمع في الأسفل صرير الباب ، وبقفزة واحدة اندس تحت اللحاف وبدأ قلبه ينقر ـ الآن . ينقر بأمر من وقع خطوات السلم . السلم يصعد وليس الخطوات أبداً . عضة ارتفاع الخفقات تتلازم مع احتكاك الخف النسائي في لحظة قصيرة أكيدة الوقوع عسيرة النسيان الذي يأتي أحياناً بعد الاهتزاز كحفر في الذاكرة . مطلقة حتىٰ وقت ارتسام الباب علىٰ الحائط بفعل ضوء

الفانوس ، ثم تصير الغرفة مضيئة مليئة بالباب . الباب هو الغرفة ، والغرفة هي الباب . باب من الضوء . شاهين يا ولدي لماذا تركتني وهربت ؟ . تقول : يا ولدي . وهي تعني ابنها ، ثم صرخة يعرفها : لماذا هربت ؟ كلمني . . انهض أنت . تضغط عليه بالنوم فوقه قاصدة التهديد بالخنق ، غير أنها تدور بعد ذلك قائلة : لو لم أكن امك لقلت بأنك لست ابن أبيك . . يوه انهض حبيبي أتدري ؟ سأقول لك . تقول له : ان وزة أخبرتني عن أبيك قالت انه يتنفس لحد الآن غير انه لن يجيء الآن ، لقد قاده الأرنب المبقع إلىٰ أرض مليئة بالأرانب المبقعة و . . غداً سنبحث عنه أنا و . . أنت . تقول هاجر : غداً ، أنا وأنت . شاهين هل أنت نائم ؟ حسناً ، بالنسبة لي لن أستطيع النوم ، هذه الليلة علىٰ الأقل . . . .

ونزل الخف ببطىء علىٰ السلم متوافقاً وتقلص الباب حتىٰ تحول إلىٰ خط مضيء فتلاشىٰ . يقول شاهين : تلاشىٰ . ويدفع الغطاء فلا يرىٰ نافذة مقابلة لكن صدىٰ ضحكاتهم . صدىٰ الضحكات كان يأتيه عبر تواريخ بعيدة : هناك كانت امرأتان وأربعة رجال . ست فتحات ضاحكة . . والآن ذهب الجميع إلىٰ النوم بعدما اتعبهم الاهتزاز . . .

وبقي الزيزان يصعّد غناءه في ممرات الشوك ، وأصوات

twitter @baghdad_library

عواء ملتاع لضواري جائعة . يفكر بشيء واحد تقريباً ، واقفاً حتىٰ أطراف الفجر بعد ما فشل في قراءة الساعة بسبب الظلام حيث يسمع دقاتها كذكرىٰ مهملة ساقطة عن ارتفاعات مظللة اعتبرها الآخرون غروراً في لحظات السأم إذا ما قيست الامور من وجهة نظر التنكيل بالذات لأنه لا يجد شيئاً يدفعه إلىٰ فعل ما يفعل . لا شيء . ليس لأجل شيء أبداً وليس لأجل نفسه تقريباً . لا شيء . لن يجد شبيهاً له ، يقول : لن أجد . ويعرف قسوة هذه الكلمة لذا فإن الغرور يبدأ من تلك اللحظة التي تذكره بالأماسي الطيّبة المسبوقة بصباحات ندية ايام العنزات الثلاث في المنحدر . مهنة الانسان الاولىٰ من أصناف المهن الحرة . سحر النعوت والنداءات المبهمة الموجهة إلىٰ القطعان بقصد التحكم : « ترش ترش ، تعني : تعالي يا نعجة . هسّو : اذهبي عني . ترد هؤهؤهؤ : اشربي الماء . هخ هخ : لطرد العنزات . . . الخ » لذا ايضاً فالعلاج من هذه البقع هو الضحك وليس الكلام أبداً أبداً . الضحك دائماً . الضحك المرتفع لأستخراج زوايا الانكسار إلىٰ الأشياء بدليل التجائه إلىٰ مسند الشباك بحجة الشوق للفضاء أو الصمت بحجة التفكير بموضوع خاص . . واستمر هذا الأمر حتىٰ وقت تبدل احاسيسه الحالية حول الأوراق اليابسة التي تطرحها أشجار الخريف بمصاف الرعشة الآلية ـ لحظة القيام لقراءة الساعة . نظر إلىٰ

الليـل ، دبيب الفضة الشفـافة عـلىٰ السفوح ، وفي الأفق ثمـة بياض ممزق ، غـير انه لا يملك القـوة الكافيـة ، تقريبـاً ، لقهر خجله من جـراء النـظر إلىٰ الخـارج بـاعتبـاره مـرتفعـا عن الخريف . . وحتىٰ لحظة اقران تلك الأوراق بتخيل النحاس في امتداد لا حدّ له . امتداد أكيد لا حدّ لـه . فالعـلاج من تلك البقع هو الضحك . الضحك دائـماً وأبداً . إذ لا يمكنـه نسب النتائج إلىٰ ترتيب معين في حياته لأنه لم يضحك ضحكة حقيقة ولو لمرة واحدة بعد خديعة الختان ، مع أنه يميل إلىٰ ذلك أحياناً فيقول : لا بأس . لا بأس . وقد تمثـل كثيراً بـالطفـولة ، لأن الـطفولـة ضباب . فكـر ذات يوم بـأنه مختلف لأنـه يحس بـألم المسمـار ، المطرقـة من طرف وصعـوبـة الاختـراق من الـطرف الآخر . أو يجب أن يختلف لأنه يحس أحياناً بألم المسمار . فـلا يمكن احضـار ذكرىٰ بعيـدة بـدون تغـطيتهـا بـالضبـاب ولفهـا بـالمفردات المبهمـة . . ونداءات مستمـرة حتىٰ لحـظات الفجـر الاولىٰ : ترد هؤهؤهؤ . يسمع صراخ الليل المنسحب . خديعة الختان وهي الجديرة بالتـذكر دائـماً ، يوم جـاء الأب مائـلاً مع السفح فاستطاع أن يميز البهجة في عينيه رغم بعد المسافة بينهما ، ولـوّح لـه بـالكـوفيـة : « اتـرك عنـزاتـك يـا بني . . تعـال يـا شاهين . » .

وتردد في البدء لأن وقت العودة لم يحن بعد مقاساً بـالظل

twitter @baghdad_library

تحت القـدمين ، لكن الأب كـان جاداً فلن يعـاقبه أإذا مـا عاد مبكـراً هذه المـرة . واحتضنه هـذه المرة . تلك المـرة البعيدة . وأحبه هذه المرة لأنهم يوزعون علباً ملونة مليئة بحلوىٰ ملونة في بيت عبـد المجيد . حيث كـانت الزغـاريـد تخـرج من أنـابيب البنادق ، أما النساء فيطلقن الرصاص من افـواههن . بهجة . واقفون . الوان . روائح محضرة من أندر الأعشاب . . وصراخ أطفال ، فلن يستطيع الهرب لأنه محمول بذراعين قويين . عندها فقط ، علم أن لا جدوىٰ من الرفس ـ لأنهم سقوه بالقوة في مرة سابقة ، حليب انثىٰ الحمار لأجل الشفاء من السعال الديكي ، فأحتاج لرائحة السوس . احياناً ذلك السـوس الذي يستـدعي البكاء . . . آه السوس ! . الرعي المتواصـل بلاعـودة . لكنهم أجلسوه أخيراً منفرج الساقين تحت عمامة صفراء وكلمات تركية مبهمة ومنخرين كثقبي فأر مليئين بالدغـل فقال : « هـخ هخ « وأفـرجوا سـاقيه أكـثر ، وقـال التـركي : « مـا شـاء الله مـاش الله . . . بال علىٰ المخدة » . وانتهىٰ كل شيء . ثم حُمل ركضاً في الألم أو ركضاً في السر بين مئات العيون التيٰ استـطالت حتىٰ الآذان . . وهكـذا أصبح بـدون ذلك الشيء الـذي كـان بـين الساقين لأنهم استبدلوه بلفافة بيضاء ثم بكرة حمراء فيها بعد ، ثم بشيء جديد ذي قبعة ناعمة ، لكي يرش البول مباشرة . البول يتدفق من الثقب ، علىٰ حدّ زعم الصياد .

بقي والزيزان يصعّد غناءه في ممـرات الشوك ، وأخـذت الأشياء بالغياب مع القمر ، او بتهشم القمر لأن الظل انتفخ ، ولأنه سقط مع دقة حاسمة من دقات السـاعة ثم استيقظ رأسـاً وفق عادة النهوض قبل الشمس ليرىٰ الطيور تمزق فضة الفجـر باصواتها رابطة بعض الغيـوم بخط أسود بليـل ومتقطع . فتـح النافذة . علىٰ اعتبار أن فتح النافذة ، بل مجرد فتحها كان يقرب إليه سماء زقورات الآثار : ها هي قريبة ، ها هي . ويدخل فجر الحقـول في غرفتـه فيرتـد ؛ منشفته . سـاعة الحـائط . رفـوف القواقع ـ ملابس الطفولة . ويداه في الظل مفتـوحتان لـلأمساك بشيء ما . . .

ومنذ عشرين عاماً تصعد هاجر إليه : الا تفطر ؟ .

فينزل إلىٰ اللبن الرائب والشاي ويسمع نشـرات الأخبار الأولىٰ : « زلازل امـريكـا الـلاتينيـة . فيضـانـات الهنـد . انقـلابات . عمليـات الفدائيـين العرب . مجاعـات السـود . محادثات نزع السلاح النـووي . مخدرات . تجسس . جلسـات مجلس الأمن ـ اما آخر الأخبـار فكانت عن الجمعيـات الخيريـة للفاتيكان ، وفضائح جائزة نوبل . . . » . بعد احتباس طـويل عن رؤية الفصول وانتهاء القناعات وبعد أن صـار رضاه نـادراً قرر أن ينقر الغلاف مثل فرخ في بيضة ويخرج إلىٰ الناس الذين

twitter @baghdad_library

اعتادوا غطساته الطويلة ، وصاروا يعيدون جميع الرسائل إلىٰ صندوق البريد ، تلك القادمة من أصدقاء هواة التعارف والمراسلة ايام الدراسة الابتدائية ، فيقولون : شاهين محمود ؟ ! لا نعرف هذا الاسم . ولكنه ظل وفياً لعوّاد حتىٰ نيسان الماضي وقت ابتداء غطسته الأخيرة . ذلك لانهما متشابهان فقط . بخاصية ندرة الكلام ، وهي احدىٰ الخصائص . فيما عدا ذلك فلا يلتقيان في شيء غير تلك الملاحظة التي لا يعرفها احدهما عن الآخر ، ضخامة لوامس الحس .

خرج بخطوات مربوطة منزلاً عينيه مع التل حتىٰ استقر بصره بنهاية قطيفة الطحالب عند صخور البئر المخززة بالحبل . ومن أقصىٰ الاخدود لمح أيدي النساء تشير إلىٰ شعره المبعثر وعقفته في السير : شاهين ! ! شاهين !! شاهين !! . فتوارىٰ بسرعة خلف القن منحدراً إلىٰ جنوب القرية حيث وادي السدرة ، ساحة الطفولة ، مدرسة الشتائم . الامنيات برؤية منام الشمس خلف الجبل . اثار الدعلج في الأخاديد . رفوف طيور الشقراق ومهاوي القبرات بين الأشواك ، وشيش الغروب في المنخفض ؛ سرة انثىٰ كبيرة ممددة منصَّفة بالنهر ، والقمم أثداء ترضَع الشمس . لحظات استطالة الظل إلىٰ درجة الالتفاف حول التل حتىٰ مجيء المزعج . الليل هو المزعج . ليس مزعجاً بالضبط . طويل تقريباً ، بحيث لا يمكن تخيل الوادي

فياللیل ، او مجرد تذكرة لأنه ضاج بحيوانات غريبة وأشباح ومسوخ لاسيما انه محيط بتل المقبرة من كل الجهات . كانت الأصوات مجموعة حتوف تهدد المنازل . غارات الضواري علىٰ القطعات ، الثعالب علىٰ الدجاج والبط ، الأرانب علىٰ البقول ، الغرير علىٰ القبور ، الأشباح علىٰ الخائفين . مع ذلك ، كان بعض الشجعان والحمقىٰ يتبارون في امكانية اجتياز الوادي وغرز وتدموٴ شرفي المقبرة .

وعند حلول الصباح يكون كل شيء قد ذهب باستثناء الروث وآثار المخالب علىٰ الطين في كل بقعة من مزارع القطن . ثمة سدرة وحيدة في قعر المكان الجدب وقد اعطت للوادي شرف التسمية عن جدارة في المكوث والتحمل منذ أزمان الجوع في عهد الجماعات الاولى ، مهربون ، صقارون ، سحرة ، قطاع طرق ، تجار أسلحة ، ثوار . . وهي هكذا ، لحد الآن تظلل المشاريع الأولىٰ لأحلام بناء الأسر في أربع الأطفال الرعاة من كلا الجنسين ، لذلك فقد نظر إليها بجلال وضراعة . كان يمر بها يومياً ويحسبها بعيدة لأن الناظر إليها من كتف الوادي ، مهما كان الناظر ، يراها صغيرة كأشواك قنفذ . ايام التلازم الاول ، حاجة الآدميّ إلىٰ اخيه وحاجته إلىٰ عواد الولوع أبداً بالطين ، بحيث صار يعرف بمرور الأيام عن طريق حاسة الشم إن كانت الاواني ستنفطر ، أو ان أرجل الحمير ستسقط بعد جفاف

twitter @baghdad_library

الطين . الحمير الطينية وليس حمير النهيق حتماً . كـانت السدرة بمثابة مخزن لتلك الاختراعات ، لأنها ستحطَّم من قبـل الرجـل التقي عـلىٰ اعتبـار انها أصنـام ، فيضـطر الصغيـران ـ عـواد وشاهين ـ إلىٰ الحلم بدخول سلك الشرطة .

ثمة ايضاً تلك الدروب الرفيعة المرسومة بحوافر القطعان كحبال عظيمة تشد السدرة إلىٰ جهات الوادي فتذهب محاولات السيول عبثاً في تعرية جذورها .

وفي تفاصيل مفزعة كأعناق ملوية يمتلىء الوادي بترسبات تفضـح وهماً قـديماً كـاشفة اكـذوبة الاتسـاع السحري في زمن غابر . هل كان الوادي واسعاً وعميقاً بحق ؟ . يسأل شاهين . ولكنه وصل سن اليأس . الوادي وليس شاهين أبداً ابداً . نقول الوادي ونعني الأنثى لانها منخفض . نعني الوادي وليس الانثىٰ أبداً . وصل سن اليأس بعد هجران الضواري والأشباح ، ثمة ما يخيف : تقوب القوارض في جروف قديمة وقـد هوت عـظام الموتىٰ بفعل السيل ، مجرد مسحوق أصفر غير مثير للبكتريا .

وكفّ كل كائن عن الهجوم بعد سنوات الجوع لأن المسوخ أكلت بعضها ، ورحل الضعيف الذي كان قوياً إلىٰ ظلال قطنية في اعالي الجبال . كان آخر الضعفـاء فـي الحلقـة الضائعـة من خيط السلالة . وكلما حثه الحنين إلىٰ القوة زار تلك الهوة زيـارة

عاجلة واخذ يعوي ويعوي ويعوي حتىٰ إذا أجابته الجروف امتلأ بحب التكرار فبحث دون جدوىٰ عن شبيه يسمونه الانثىٰ . عواد ملتاع مثل خسارة نهائية . لا شيء يشبه شيئاً . يقول . فأين الضواري ؟ واين الذي كان ساحراً كرفة فرح تلقائي ؟ . لقد كفت الأرض عن تجربة النشاط وأمست التلال والصخور والأشواك والقبرات مجرد تلال وصخور واشواك وقبرات . وسار حيث يفتح الوادي فمه ليأكل حطام مزارع القطن . اتساع مضطرد حتىٰ حدود النهر بمحاذاة الجبل . حوض خصب يغري تجار القطن لبناء شُرف عالية تتيح لهم رؤية الحزام الأخضر منذ الوهلة الوهلة الأولىٰ ، يستمعون إلىٰ صوت تفتق الجوز عن دراهم لامعة في أماسي القمر بعد الكأس الثالث . هناك وجد شاهين صديقه القديم فلم يعرفه للوهلة الاولىٰ لأنه كان يعض سنونوة سوداء ، فقيل له : ليست سنونوة سوداء وانما شارباً أسود . آشاهين !!شاهين صديقي . . لقد جعلك النوم أصفر أصفر . وانت أصفر كالمغول . ويضحك لأنه اكتشف الضحك النابع من مربع الشباك المضيء و : اقعد يا صديقي ، أرىٰ أنك لم تكن تحب الشاي إن لم تتبدل ، لقد فعلت الكثير بغيابك ، بعض الطموح ، رسوم أخيرة لأوضاع شرار في حالتي الجري والوثوب لأنني لا أحب امتداد البوز مع اليدين الاماميتين . شرار أسم كلب عزيز من أصل هجين لذا فهو متهور بعض الشيء لأنه

twitter @baghdad_library

حائر بين العوامل الوراثية . يقول عواد : اسمح لي باعطائك سيجارة . المشاكل التي تعرفها مع الوالد لم تنته لكنها تخمد تحت خدعة التجمع ثم الانفجار في اوقات متباعدة . كان الفضاء مبتدئاً من الجرف بمثابة شرفة لاصطياد البرق الفني . وبالنسبة لعواد فكل شيء محسوب بالتفاصيل تقريباً حتىٰ ملابس الشغل المزينة ببعض بقع الأصباغ ، انتهاءً بتفسير اللقاء الحميم الذي لو كان بين عواد و . . . عواد نفسه لأعتبره تاريخياً قياساً إلىٰ شخص منفعل يواجه حجراً عزيزاً . وشاهين : اسم هذا الحجر . مرحباً . يقول . مرحباً مرة اخرىٰ بمثل هذا الشوق . مرحباً دائماً .

كان عواد منشغلاً طوال الفترة السابقة بعلاقة غريبة مع الكلب شرار . يقول : اسمه شرار ، يحب لحم البط ولا يحب ثمر التين . رسمه في اوضاع الجري والوثوب واستبدل عينيه بزراري معطف مطري .

جهاد متواصل بين فترات مجيء ابنة القطّان لكي تمتدح محاولاته باعجاب خفي وتحجّم عينيها حسب الموقف كطريقة للنقد الصامت وهي مهتمة بحياته لتؤكد اختلافها عن السناء وذلك بالنفور من أشغال الابرة وجلسات نفش صوف الوسائد ، حتىٰ أدق التفاصيل . تعرف أن شراراً مولود من كلبة عارف

الغدارة التي تعض الأطفال كلما اقتربوا منها وقد عضت مؤخـرة زهرة فاغتنم عـواد فرصـة وجودهـا في المغارة ، إذ أغلق عليهـا بصخرة ثم ردمها بالتراب ، غير انه رأىٰ بعد أيام جـرواً ابيض يسحب خرقة فتـأكد من عـدم خروج الكلبة وثبت له ان ذلـك الجرو كان خارج المغارة لحظة الوأد ، فبدأ بتدليله مبتدئاً بتفكير طويل قبل العثور علىٰ اسم (شرَار) يسقيه ويطعمه ويدحرج له كرة الصوف ويصطحبه في رحلات رسم المناظر الطبيعيـة ، ثم يراقبه في اوقات السأم يتسلق التلال برشاقة ويصطاد الدراج ثم يضطجع رافعاً اطرافه إلىٰ الأعلىٰ ويفتح فمه مبتسماً ، وقد خفف هذا التآلف من شعور عواد بالذنب الواخز . سمع شاهين فلم يقم بأي رد فعل سوىٰ انه هرش مؤخرة رأسه وضحك . غير أن التفاصيل الأخرىٰ جاءته من عواد كأنما من شخص آخـر يديـر وجهه نحو حطام الحقول ويتحدث عن أمر خاص ، او عن شرار تقريباً . يقول : وقتها لم يجد عارف خبراً عن كلبته إذ أعتقد أن الضواري مزقتهـا وهي تدرب صغـارها عـلىٰ التحمل وخـطف القبرات في الوادي .

وعبر زمن حكاياته كلها يشعل سيجـارة ثم يرميهـا فينتثر الجمـر ، بينما كـان شاهـين يرفس الأحجـار عن كتف الـوادي فتهوي مصفوعة بحافات أخاديـد المنحدر . يحـدث احيانـاً أن ينقسم الحجـر إلى قسمين ، أو ثـلاثة مـوزعاً نفسـه في الجـوف

twitter @baghdad_library

وكاشفاً عن خطوط بركانية وكبـريتية تفضح قرون النمو البطيء وقد غمست عشرات المـرات ببول حيـوانات متعـادية . يقـول عـواد : ابعدتني المشـاغل عن صـديقي شرار بـاستثناء فتـرات الحنين إلى اللعب . يتحدث كنائم فيقول انه يجده بعد كل مـرة وقد اختزن لحماً جديداً تحت جلده . نعود إلى الوادي . ما زلنا صغاراً . كلما استقر حجر شعر بالاطمئنان . همس سري خاص يفـوق لغة التخـاطب اليـوميـة . همس بمستـوى الاعتـراف . . وبانقسامـه عن خطوط تنـطفىء جمرة الحـرص والرغبـة في يقين القلب : تلك الدقات الرتيبة الضعيفة التي توشـك ، بعد كـل دقة قادمة ، على الانتهاء . اجل إنها همسات . يقول عواد ويبين بتلك المرارة الخاصة عبر زمن حكاياته كلها ، أنه خرج ذات يوم على صوت شمشمة وراء الباب فوجده يلعق قدر الحساء المتروك بـلا تنظيف ، وحـين ابصـره : حـين أبصـرني عـوى بـطريقـة سخيفة ، عدووو . . .

اعتقد في البدء ـ امام فضاء حطام الحقول ـ أن شرارا يعبر عن شـوق بعد غيـاب ، لكنه هـاجم ، هكذا تهـاجم الكلاب تقـريباً ، فـاضطر إلى التـراجع بـطريقة لا يعـرف كيف تمت . ونشب العداء بين الصديقين .

كان المطر يوسع حجم قطراته فيـما مضى لأنه آخـر أمطار

العام كنهر ينسكب من السماء ، فخرج النمل المجنح مع طوفان اكياس القمح باتجاه الحبوب الراسية عند حافات السيول ، وقد لمح وهو يفكر بكيفية إعادة العلاقة مع شرار ، ظل امرأة يمر في مربع الشباك . ثوب أصفر تدفعه الريح بين الساقين ، فدخلت رائحة قلائدها من الشق فارتاح وتمطي ثم اطبق كفيه بتوتر بين فخذيه . رأى عزيزة القطان . صاحبة الحظ الأوفر من الخبرة بسبب تجارة ابيها وتجواله في المدن ، لكنها نظرت باحتقار ثم مضت إلى البئر . يقول عواد أنها كانت تمضي أحياناً إلى البئر في بداية العلاقة فيخرج بأثرها غير أنه يجد الفضاء ، ويسمع كأنما من بعيد ، من بعيد جداً ، شراراً يعوي في الفراغ أو يموء بمستوى الأحجار . ذلك الشغوف بلحم البط تحول إلى نؤوم معرض عن عداوات الوراثة ضد القطط ، فلم يبق حليب في إناء ، أو لحمة في سلة ، وقد تعددت الثقوب إلى حد الاعتذار بالكسل لمجرد القيام بمحاولة وضع حصاة أمام القطة . كان عواد يشرح حكاياته منذ المطر الأخير سيجارة أثر سيجارة . غريب غربة الأعمى عن مقعده . شاهين هو الغريب على كتف الوادي ، غير مصدق أن الجسد الذي تدفئه الانفاس خاص به ، ولكنه بمثابة عمود المنتصف أمام الهول الجدب . ذراع الخشب وذراع اللحم شيء واحد ، هذه هي . من ؟.

غربة الأعمى عن مقعده فيندر أن يحدث بينهما جريان أو

twitter @baghdad_library

احتكاك . موت . اهمال . . وإنهما ملقيان في فراغ الخريف . فيقول عواد أنه حين خرج بأثرها وجد الفضاء وسمع كأنما من بعيد شراراً يعوي وقد ذهب إلى ظل الكوخ واختار حجراً للتوسد لأنه في مرتبة منخفضة من الجوع . فجاءه بقطعة خبز وضعها أمام عينيه المطفأتين دون حذر من إعادة فكرة الهجوم ، فتشمم الخبز وخفض رأسه قليلاً وحرك ذيله ثم استدار بحركة طي القماش ومضى إلى ظل الكوخ مختاراً لنفسه حجراً ، داعياً ذباب الكلاب لكي يقرص جلده بدل القيام بمشقة الحك . فقال عواد : « حسناً ، ستضطر إلى اعتبار الورقة السمراء قطعة خبز » .

وظل غريباً غربة الأعمى يدحرج حجراً آخر إلى الجوف فتنهض حقب مديدة سائلة فيتذكر أنه أراد أن يكون فاعلاً ومتيناً ومتماسكاً دون الحاجة للرعشة والهاجس والأمنية . وفتح فمه على أمل أن يبتلع التضاريس ويهضمها ثم يتقيأها مرتبة كما يرغب ، كاملة الصفات ليتبادل معها الإلفة ، ويريد أن يقرر انفصال السدرة عن مكانها فيراها تنفصل ، لكنه يرتد حذراً بعد مهوى الحجر . يقول : كل ذلك بسبب شخص معين ، بسبب مجموعة أخطاء لمجموعة أشخاص يتكرر وجودهم . . . ويترسب فيه خط بركاني ليعزله عن بعضه . بسبب آخرين يشبهونه ، لكن أحدهم لا يبالي ليلة سماع الصراخ في اقصى القرية ،

فينصف الحشد بلا فضول منحدراً نحو الأدغال لاصطياد االدرّاج الذهبي . في الأصل : لكل طريدة وسيلة صيد . الكل يهرب في البدء ثم يمتثل بعد التعب . . . واخيراً يهوي إلى الجوف برّفات متتابعة مصفوعاً بحافات أخاديد المنحدر ، ويحدث أحياناً أن ينقسم إلى قسمين ، إلى ثلاثة . . . فيقول عواد أن أمه فهمت بسبب اعراضه عن الطعام متضامناً مع شرار بعد قيامه بفورة إخضاع حين صب اللون الأصفر على حالة الركض وبقيت حالة النوم كأنما كان يركض في حقل قمح واختفى . يقول : اختفى . ثم يتمدد على السرير فيأخذه العطاس . احياناً ينظر إلى شجرة الصفصاف تقرع الشباك بأغصانها ، وهو يسمع قرع اغصانها على الشباك فيستنتج أن الريح الشمالية تحاول تجريب قوتها باقتلاع السقوف . وسمع في الأسفل أصواتاً معقدة تعطي لصفير الريح صفة الغربة أو التنافس . ليست غربة الأعمى عن مقعده ، بل غربة التنافس . وشعر بمعاناة الهواء بعد الاصطدام بالتلال . وفي منخفضات سمعية ، ربما بعيدة وحذرة ، صعدت كلمة (شرار) كأبرة طويلة إلى حنجرته ، بهمس لا يمكن احتماله ، فانتبه في البدء وأرهف لكي يسمعها ثانية ، لكن اشتداد قرع الأغصان على الشباك اقنعه باستحالة الامساك بأية كلمة بعثرها الهواء مع الثياب المنسية فوق الحبال ونباتات الدرداء الخفيفة . وعند أسس البيوت ، حين رفع عواد بصره عن اللوحة

twitter @baghdad_library

الصفـراء ، كـان العشب الميت يهـتز ، ودخلت الحشـرات في الثقوب ، وجلب الأطفال ملحاً لكي ينثروه في دوامـات الريـح لتحقيق رغبة الطيران ، لكنهم اعتذروا للعاصفة بشكـل تأنيب لأنها سـوف لن تنزلهم بهـدوء بعد أن تـرفعهم بعنف . وهنـاك أيضاً ، أبصر الاختفاء التـدريجي لخطوط لعبـة (القرلي) عـلى منحدرات التل حيث الشجر يشتم الريح لكي يعود إلى وضـع الاستقـامة . وكـان ثمـة صفـير قصب السقـوف ورفـرفـة آذان الحمير ، فقال : « ستمطر لآخر مرة » وصار متعباً بعدما أعتمت الغرفة عتمة صفراء على الشباك . فتح قميصه وهبط في الـريح فصـاحت عاليـة : « لا تخرج يـا بني . . » لكنه وجـد نفسه في الدروب يتسلق تلاً مراهناً بتثبيت نفسه بالقوة ، ضاماً ذراعيه في وضـع الصـلاة ، فتنغـرز ذرات التـراب في جبينـه وتستقـر إلى الأبد .

يقـول عواد أنـه مدّ ذراعيـه . . هكـذا ، محـاولاً ايقـاف الريح . ويقول أنه كان يضحك بعدما انحدر إلى جهة معلومة . إلى شـرار تقريبـاً . ودخل دار عـارف من البـاب الخلفي حيث ترقص درفات النوافذ الخشبية ، وهناك رأى شراراً يتوسد صخرة بـاب الكوخ فـاقترب منـه . يقول : « اقتـربت منه . لمستـه . احببته اكثر من أي وقت ، مسدت شعره . . » وقد هدأت الريح عندما بدأ المطر . أما عيناه ، « آه » ، كانتا اكثر حنـاناً من أي

شيء ، لكنهما تحولتا إلى كرتين زجاجيتين تقريباً . أنتَ لم تر عينيه ـ أين أنت ؟ بينما امتلأ أنفه بغبار شجر التين . . . .

كان المطر يوسع حجم قطراته فيما مضى لأنه آخر أمطار العام كنهر ينسكب من السماء ، فخرج النمل المجنح مع طوفان اكياس القمح باتجاه الحبوب الراسية عند حافات السيول ، وقد لمح وهو يفكر بمرارة الذكرى صديقه يرفس الأحجار فتهوي إلى الجوف ، حجر بعد حجر . . ويرتعش على لمسة كف خفيفة فيقابله وجه عواد : صديقي ، لماذا هربت ؟ كنت أراقب حركاتك . لكنه كان منشغلاً بالتنفس ومراقبة مهوى الأحجار . يقول له : انني بحاجة إليك . فيسقط آخر . . يهوي مصفوعاً بحافات حفر السيول ، ثم يستقر في الجوف بلا معنى ، باشارات مجردة إلى الأشياء : هذه صخرة . هذا أخدود . هذه شوكة . هناك قبرة . . . . الخ . في مرسم عواد تبدل الاحساس الأول عند رؤيتها تحت كشاف الضوء . مدت كفها للتعارف : عزيزة القطّان . . أيه ، شاهين أليس كذلك ؟. فحول وجهه عن ابتسامتها الخائنة نحو جدران الكهف الهندسي ، ابتسامة حيوان محتضر . كان عواد يحضر بشيء من الارتباك والسرعة أدواته الخاصة ، ذيول التشريح وشفرات القشط . يهيج الأصباغ لكي يحطم العطر النادر . ويقول : كنت على يقين بأنك ستبدلين الفستان ، جئت قبل الموعد . فتقول انها متشوقة لرؤية صورتها

twitter @baghdad_library

منتهيـة . ولكنني متأكـدة بأنها لن تشبهني أيـه . . العم هنا ؟ . ويقول : في الجامع كعادته . ها ؟ لمـاذا أنت متأكـدة ؟ . فتقول انها لا تدري ، هكذا . شاهين ما رأيك ؟ فيجيب بأن الأصدقاء الذين يلتقون بعد غياب ، يتحـدثون عن مـوت كلب . اسمه شرار ، مولود من كلبة غدارة وهو هجـين لأنه يحب أكـل البط ويـدعو ذبـاب الكلاب لكي يقـرص جلده بـدل القيـام بمشقـة الحك . ويفاجأ بسؤالها وعينيها الشيطانيتين تحت الضوء . أنا ؟ لا أدري . لم يرتلك التعابير في امرأة أخـرى لأنه لا يعـرف غير هاجر ولا يعرف كيف يقول لها : أمي . عينا عزيزة ، أي لون لهما ؟ ليستا بعينين ، وانما كائنين ، حيوانين مستقلين عنهـا . لم يعـرف مقدار اتسـاعهما لأنها تحجمهـما حسب الموقف ، وكيفـما تشاء . ولكن الانطباع الذي لا يمكن انكاره ، ذلك النـزول أو الانحـدار في طرفيهـما البعيدين ، التـوافق الفظيـع مـع مـوازاة الحـاجبين في لحـظة الاستفهام . دهـاء منبثق عن توتـر القـوس باتجاهه . الضوء العميق حتى زاوية الأنف بحيث لا يمكن إنكار الـذل الذي أصـابه بعـد التحديق فيهـما . أي لون ، أي لـون لهما ؟ . كشف له السـواد الغائـر شيئاً من الـذكاء والاستـدراك السريع لأنـه أبصر الظل الشفيف لصـورته في لحـظة الاستفهام والاتساع العسير ـ بحيث تضطره إلى نسيان جميع الأجوبة الممكنة نظراً لخيبة اللغة في التعبير عن المشهد . إن كلمة (لذة) أبعد ما

تكـون عن نقل الـوقائـع الشبيهة بـالموت تقـريباً أمـام استدارة العدسة في حالة الاستفهام . ليس الاهتزاز في الزاوية ولاشباك الضحـك ولا العنزات الثـلاث على المنحـدر ، بل ربمـا رائحـة السوس . ولا حتى رائحة السوس . آه السوس !! أبداً . يقول بأنه سمع كلاماً ، كأن ذلك لا يعنيه . ولكنه أمر جدير بالاذعان امام مفردات الفسيولوجيا البسيطة . ليست مجرد عين . يقول : هذه العين بالذات . أي لون لها ؟. إنها الحياة مكرسة في لحظة الانتباه إلى حركة دخول النصل بطيئاً بطيئـاً في القلب . وهكذا حين أراد التعبير عن فهم الابهام ، قال أنه يعي وقائع موته كمن ينفذ خطة طويلة بذل في إعدادها زمناً يمتد من آشور بانيبال حتى القيامة . مع ذلك ، فالأمر محال مطلق ، وليس محالاً تقريباً أبداً أبداً .

واستدارت لتعدل ثوبها في محاولة ما لزيـادة انتصاب النهـدين ، ويقول أنها تعدل ثـوبها لتحفيـز الارتفاعـين . فلاحظ خصـرها الدقيق الذي يقلل من تأثير حـدة وجهها ، نـزولاً إلى الارتفاع الواضح للردفين بدرجة تدعو إلى اختراق المألوف واحتضانها من الخلف كيما يحس بحنان اللحم وأهميتـه ، أو لذة الخطّ المنصف ـ اسمها عزيزة لانها لا تشبه صور الاهتزاز المستحضـرة ـ كيف يكسر الفستـان وينساب إلى الجـورب الشبكي ، ويؤشر الحذاء الرياضي المنخفض . الخط المنصف . شيء مـا يذكـر بالسـرير

twitter @baghdad_library

عندما تتحول البساطة المصطنعة إلى نوع من الفتنة .

ولكنها تقتحم ، وهي تطيل نطق الحروف وتعذبه بالتشديد على السين ، كأنه يحس بانتظام أسنانها ، بروعة اللسان الممكنة خلف الانتظام الطبيعي . إلا أن ذلك ، كل ذلك تقريباً ، كفيل بالنسيان عند حضور امرأة اجمل منها ، لولا الخيط الغليظ القطني الذي شدت به شعرها بحيث بدت كأنها تنسكب جزءً بعد جزء من قمة الرأس ، تسيل مع خصلة الشعر عبر الخصر حتى انكسار الثوب بحفرة الردفين مما يعطيها صفة ملكية غالية ، أو شيئاً من هذا القبيل . .

وأشار عواد إشارات لا تخفي بأن يبدأ الرسم ـ رسمها هي ، صورتها ، صورة عينيها على الخشب المحطم الجاف حتى يصل ذات يوم إلى سر بياض العنق تحت كشاف الضوء . . وكل ذلك يبدأ تقريباً ، من استخراج التعابير في وجهها المدبب الرائع .

بعد تجربة ساعتين من محاولات رسم الخط الخارجي الذي يتغير وفق طبيعة الخجل أو إنزال الرأس أو وضع اليد على الفم أثناء الضحك ، وقد يحمّر وجهها تحت الضوء ويستمر في الإحمرار حتى وضع الالفة والملل من الجلوس . وكانت تلك

المثيرة توقف عواداً بنكاتها فيضحك لانها تمط الكلمات وتكثر من لفظة : ايه . . ايه .

وعندما انتبه شاهين إلى وقفة المحل الواحد ، وقفته الجامدة ، أضطر لطلب الإذن بالانصراف مؤكداً عودته في المرة القادمة .

في الدروب الهابطة ، مرة اخرى . ظل سيجارته المهداة من عواد على الجدران . أبواب الخشب يميناً ، أبواب شمالاً . وعلى رأسه تظلل السقوف فينزل الفيء إلى عصب البصر . حكاية المرأة الولوعة بالمرح ، قال لها عواد : اجلسي بمحاذاة الشباك ليتاح لك رؤية تناقر الحمام فوق الطابوق النافر . وكانت السماء وراء الأسلاك خريفية صريحة . ولعزيزة عطر خاص ، عطر الأرضيات الرطبة ، رائحة حظائر ، بينما الأبواب العتيقة في الحيطان العتيقة تفضي إلى نزول يأكل جص الأساس باتجاه رسوم الأطفال بالطبشور وفحم المواقد الخابية . عزيزة أمرأة ذئبة . طريق يمتد حتى الجبل . شمس وقارب . تقريباً ، هو من هذا النمط . يعتقد بأنه أبصر وجوهاً تخرج بمحاذاة قبضة الطرق ، وتخرج معها رائحة المحتويات ومياه مجاري الصابون أسفل الخشب البنيّ المرصع بمسامير عريضة الرأس .

كانت خطواته المنفردة تبين للناظرين ضرورة الضحك ،

twitter @baghdad_library

فكل واحد منهم أخرج نصف جسده وهتف بدهشة : شاهين !! شـاهين !! شـاهين !! . دهشـات متواليـة . أصوات متنـاغمة تتجمع لتؤلف نشيد دهشة واحد : شاهين !!!. لأن المطر قطرة فوق قطرة ، والحقل بذرة فـوق بذرة . لحـظة أن تضع واحـدة اسمها خديجة كفيها بين فخذيها وتحمر أمام امتداد من الأبـواب المصبوغة بألوان الأعراس الفاقعة ، فينزل بصره إلى أوراق كتاب ممزق ، عبارة تقول : « هل بامكانك استنتاج قاعدة لضرب كسر عشري في ٢٠٠٠ ؟ » . فعاهد نفسه على نكران وضعيـة الخفة والاحتفـاظ بالـوقار الخـاص معتقداً أنـه تجـول في امـاكن شبـه مغلقة ، محتاجاً بشكل ما إلى ضرورة الانزراع في الحياة متحرراً من الغطس الخاص ، فقد قرر ان يحاجج عزيزة بصراحة الديك بعـد أن يدرب نفسـه طوال الليـل على طـريقة لفظ الكلمـات الأولى ، غير أنه فوجىء بالجزء المعتم لدرابزين السياج الملتوي ، حيث يخترق شجر الآس المعطر تشابك القضبان ، ثم رفع رأسه فكان منزل حلّاب . جزء ما قد نسيه الصبّاغ .

أغمض عينه واستدار فـرآها تبتسم بـوجه مجعّـد كسيول المـطر ، وحـين دسّ يـديـه في جيـوبـه أحس بـدفـء وضيق ، احساس كثيف كغرين النهر سيمتد إلىٰ ايلولات قـادمة دون أن ينسىٰ المصافحة الأولىٰ ؛ سلام دافىء في أصابع منسية . وسمـع عنـد طرفيهـا اللذين ينزلق عليهـما المبرد ، فضـائح المـدن عبـر

نشرات الأخبار لم يقل لها بعد ذلك ـ الرأس مهمل إلىٰ الخلف امام شق الحائط حيث لحظة الاهتزاز العنيف ثم الانزلاق في ندرة العذاب . .

ما زال يصب الوانه القروية علىٰ الخطوط المفترضة . دائرتان ويقصد عينين . خطان متوازيان ويقصد عنقاً . دائرة كبيرة تلم الدائرتين الصغيرتين ويقصد وجهاً . تنفس علىٰ الخشب العتيق الذي مزقته الأرضة . زعانف هي جديلة النزول بسيلان بقعة بيضاء تعني خيط القطن الأبيض . ويبتسم مخافة أن ينساها ويتذكر الأصباغ محاذراً صمتها وشفافية الزجاج فيها بعدما أبصر دمعتين مشنوقتين بالأهداب كصورة العنب في الماء ، فأخذ يغني لكي يكسر الصمت كاشفاً لها عن جانب الهرج مخافة ان يصمت فينكشف : حسناً يا عزيزة . . . تي ، من جهتي تنازلت ، فمهما كانت قدرتي فلن أرسم مثل الله . . وانتِ ، أنتِ الحلوة ، مجرد تخطيط اولي في مشاريعه العظيمة . وتبتسم له ابتسامة باردة وتجيبه بسؤال : هل اسميه عجزاً ؟ . وينصت للعبارة ثم يعيد فيقفز : لا لا لا ، سميه تواضعاً ، بل قولي اعترافاً ، لا . نكران ذات ، ولا حتىٰ هذا . بشيء لا يسمىٰ ، لانني فهمت من ذلك الذي لا يحس بأنك تهزين الحجر . وتضحك عزيزة قائلة ، هكذا إذن ، فلتتعذبا بي ، انت وصديقك . فيخلع تعبه : كفىٰ كفىٰ . . آه تعبت سنكمل غداً

twitter @baghdad_library

فقد اقترب موعد مجيء الوالد . . وانت تعرفين الباقي . تنهض وتتمطىٰ فيقلدها وتقول انهما سيكملان غداً ، ويقول : ربما لا ، سأقول لك شيئاً بشأن شاهين . . هيا . ينزلان إلىٰ بساط منشور ، حيطان مظللة واخرىٰ مضيئة ترفع السقوف تحت السماء وتنفرج ضمن نزول بين التلال كطعنة إلىٰ الأسفل ، حيث يسمح للدريب الصغير بالصعود مروراً بالحقول فالبئر ثم القرية . اما الخارجون من الطعنة لاسيما مع الدم عند الغروب يتوقعون رؤية الشباك الكبير الأصفر الخاص بالمرأة عالية ، الجميلة ذات الأربعين شتاء ولكنهم يفاجأون احياناً بحجم الشباك فيتراهنون عند حلول المناسبات بطريقة لصق الكف ؛ بأن هذا الشيء أو ذاك أكبر من شباك عالية ، وهي تستمع كالعادة إلىٰ ربابة البرنامج البدوي منذ عشرين سنة دون أن تفوتها حلقة واحدة ، وهذا التاريخ ابتداء من الحلقة الأولىٰ يشير إلىٰ الصلاة الاولىٰ لمسعود باضطراد منتظم نظراً لازدياد معجبية . ومن هذا المكان ايضاً شاهدت ابنها وابنة القطان فدفعت الزجاج المتحرك صائحة : هاي ، هاي ملاعين !! . فلم يرتبك لانه يعرف امه ، ولم يلتفت لانه سيعرفها أكثر .

ومنذ عشرين سنة فإن زهرة رفسة اخيرة بعد ميلاد عواد ، ولكنها قطعة محززة من القبح بسبب تأثير أوتار الربابة وتقلبات الطقس من حيث الحرارة والرطوبة والامطار والضغط الجوي ،

بالكاد تكون ابنة لتلك المليئة بالنشاط : عالية .

يقول الأحياء أن الحياة صعبة . ما أروع أن تكون صعبة !! وهم الأحياء في كل مكان من الكرة الأرضية ، يعرفون أسماء بعضهم بعضاً : البشر ، الناس ، الآخرون . كلهم آخرون بالنسبة لبعضهم . المرء . الانسان الذي يفتح عينيه صباحاً فلا يجد غير بخار الشاي فيصعّد ايماءاته اللامجدية مالئاً الفراغ بتنفس مسموع لكي يعترف لنفسه بملكية الشهيق . مجرد انطباع سريع عن عالية ، لأن المرأة تعني جميع الناس وفق مفهوم الأدب ، مفهوم السيد حسن مطلك أو السيد هيرمان هيسة أو غيرهما . وهكذا كان الأمر بالنسبة لها عندما تتعرىٰ لكي تستبدل ملابسها بين ساعة واخرىٰ واثقة بأن الجدران ليست من الزجاج .

وبين قضبان الشباك يمشي الرجال العائدون من حطام مزارع القطن . الأبقار الضمّر تحرك ذيولها لطرد البعوض . ضجة تأديب الاولاد تصدر عن كل مكان . اقصد ؛ كل مكان في الشرق .

كانت تصغي لوقع خطىٰ الفلاحين وتلصق شفتيها علىٰ صورهم الصغيرة الماشية بين القضبان ، الذين قدموا من الغبار فيهم رائحة الصوف . تعد أضلاعهم النافرة ؛ اتنعش في كل

twitter @baghdad_library

جهة . نعم ، اثنعش وفق العدّ العراقي رغم الشعر الكثيف . ليست الرغبة لأجلها علىٰ اي حال ، بل لأجل الذين يمنحونها الأبوة بصفة الحماية القاسية فلا تقوىٰ علىٰ قول شيء ولا تعترض . نداء منبثق عن اوتار الرباب . الوتر الوحيد لانه مجمعة اوتار . نداء شبهه الرعاة بنعجة تتبع كبشها . عواد مثلاً : الفرشاة أم والألوان أسرة ، وهذه ايضاً نتائج عدم الكذب . عالية . عالية . كانت قد سمعت عبر أماسي الخريف اغنية مكررة تذكرها برجل طاهر لم يتعب نفسه في عدّ نقاط الوشم علىٰ وجهها الذي شبهه الرجال بالقمر . وزهرة تنصرع عند ذكر الزواج . وعواد ايضاً ، بمثابة خشبة الحجز مانعة التسلل لانه يفجر الغضب بعد أن يهدأ بغراباته في الشرفة الحجرية . أشياء كثيرة . أشياء وأشياء لا معنىٰ لها تقريباً . أشياء بلا فائدة كالعلب والصفائح والاحجار الملونة وعدوىٰ قواقع شاهين لانه يسعد بقوقعة مثقوبة كما يسعد بامرأة مثقوبة . وهي : عالية . مفردات قاموس التربية : لا تد . . . ، لا تفـ . . . ، لا تنـ . . . ، لا تبـ . . . لا ولا ولا ولا . . . الخ .

شهدته يكسر الأواني لحظة الغضب كواحد من الرجال الذين يكسرون اي شيء لحظة الغضب . والرجل شوك جميل لأنه مخيف .

انه لأمر مسل عند هبوط المساءات العالية يشعر الفرد

بـالضيق . وهي فردة لانها تشعـر بالضيق كـآخر يـوم من ايـام العـودة . وماذا يفعـل المرء بعـد أن يصفي جميـع حسـابـاتـه ؟ يدخن ؟ يشرب ؟ يذهب إلىٰ الفراش ؟ يغسل يديه بالصابون ؟ يخون ؟ يتشاجـر ؟ يتناول البـاذنجان علىٰ الجريـدة ؟ اي شيء يفعـل ؟ لا بد أنـه سيبعـثر حسـابـاتـه ليعـود إلىٰ تصفيتهـا من جديد . . وهكذا .

لقد حددت معرفتها بحدود النقطة الأخيرة لقوة البصر ، واتيح لها أن تفهم الوجوه المحيطة بعدما تكتسب ندباً أو أخاديدَ تركها الضحك . سابقاً كان مسعود يحمل وجهاً غير وجهه الحالي وهو مختلف عن وجوه الآخرين ، لأن صلوات آخر الليل تحقن الرضا تحت جلده فتنتفخ الخدوش لتتسـاوىٰ مع الخـدّ . يصفو ويصفو متجهاً نحو لون الطفولة، لذا فإن الخطر عليه يزداد وفق احتمال اشتهاء النسـاء عندمـا يرغبن في تقبيـل طفل مـرتين او ثلاث مرات بدون استئذان ، وهو يصرخ لا بسبب الضيق بـل بفضـل الدلال . امـا الآخرون فيـرسبون الشيخـوخة بـالكد ؛ انتظار النتائج ، أو انتظار التقاعد . عمل النمل الدائب ، يأكل في فصل ما ادخره في فصل سابق . . وبعد ذلك ؟ تأتي اللحظة الكـريهـة المتـوقعـة : مـاذا فعلت ؟ . اقـول : هم ، واعني : عالية . تفتح عينيها في الصباح فتجد أن اعواماً كثيرة مرت مرور

twitter @baghdad_library

الغيوم . امام المرآة : ما زلت . بعيداً عن المرآة : ماذا فعلت ؟ .

غداً ـ ربما ـ سينطفىء كل شيء وتجد أن تلك الأعوام جديرة باقامة الصلاة وفق حسابات مسعود .

والتفتت إلىٰ صوت الخف البسيط يلج العتبة : بسم الله . . . لست صغيرة يا عجوزي ، ما الذي تفعلين هناك ؟ تتجسسين ؟ . فتنفض رأسها مشيحة عنه : اشعر بالضيق ، لكني أرتاح عندما أفعل ذلك . وهو يعرف ؛ النظر عبر الشباك ، السجائر الحادة ، البرنامج البدوي ، تغيير الثياب . تقول : بعدما انجزت شغل البيت ؛ كنست الأرض ، طبخت ، غسلت المواعين ، رتبت المكان . وتأتي كل أخبار المنطقة عبر الشباك . يقف اثنان في الطريق فيقول احدهما للآخر : « هذا سر بيننا ، والسر إذا تجاوز اثنين افتضح » فيقول له الآخر : « اطمئن ، سرّك في بئر . » . وتقول : يوه . . ماذا أفعل . انظر إلىٰ ابنتك فلا تساعدني في اي شيء . لأنها مشغولة بالتطريز وعمل الزهور من أحذية المطاط . فيقول : اتقي الله . وتقول : صارت لدينا اكياس من الأحذية . . أفّ ، رائحة تزكم الأنف . ويقول : اين الولد ؟ . فتجيب : لا أدري . . . أشعر أحياناً بالندم لأننا نعامله هكذا . ابنك لم يسىء لأحد

فلماذا ؟ . يعني انه يرسم . . وإذا ؟ . فيستعيذ بالله لانه يريد ابعادها عن الشباك فلا تبتعد : هه . . لن أبتعد . الا تأكل ؟ . لا يأكل . يذهب إلىٰ الجامع .

مرة اخرىٰ ، اقول عالية وأعني الآخرين . ما أن نتخيلها حتىٰ تكون امامنا كشبح التصويب ، وهي تدور في البيت مقطبة الجبين ، مبعثرة داخل ردائها الاحمر الواسع كذكرىٰ سفرة سياحيّة . لا بد انها تحيي الناس من وراء الأسلاك فيرد الجميع تحيتها . صباح الخير . صباح الخير . تبرز فجأة من ركام المعرفة الاولية ضائعة في لجة الترتيب المزعج . لقد خلقت هكذا لأن أحداً ، شخصاً . لا أحد تقريباً ، رأىٰ مراحل نموها وهي تدفع القميص إلى الخارج منذ سن التاسعة فيتفتق الخيط بسبب حجومها الجديدة حتىٰ لحظات تحية الناس : صباح الخير . كانت تتحدث باستمرار لتجلب إليها الانتباه ، وكان صوتها يتلون ، مطموسة في سعادة لا تعرف مصدرها . يحدثونها عن بعضهم ، اما هي : عالية ، فلا تعرف كيف تصف لانها تشاهد فحسب ، وتتعرف علىٰ الاشياء . تنظر إلىٰ طعنة الدرب . تنظر إلىٰ طرف القرية . . . وتنظر ايضاً ألىٰ بقعة بصاق السجائر بعد أن تجاوزت الأربعين بيوم واحد فقط ، فلا تدري كيف حدث ذلك .

تعود إلىٰ شباكها فترىٰ النحيف القادم ملتصقة اكثر لتتعرف عليه ، فلا تتعرف . قادم إليها مباشرة . يراها ولا

twitter @baghdad_library

يبصرها عندما تشير . ليست ثمة تحية خاصة بانتصاف النهار ؛ ظهر الخير؟ . من ذا الذي يطلع غريباً عبر الطعنة كأنه يعرفها ولا يعـرفهـا فتحـاول أن تبتسم للشبـح . قـد لا تستـطيـع تبتسم . رجل من الغجر يدور حول البيت ويعرف المدخل . . من ؟ وبعد لحظة ، تقول زهرة : هذا شاهـين . يدخـل الفناء المعبد باسفلت لأجل طهر الوضوء . وتتساءل عالية : شاهين ؟ من شاهين ؟ . . آه . . شاهين !! .

فقامت إليه وقبلته . رأىٰ في طرف عينهـا البياض الهـائل المحيط بالعدسة ؛ بياضـاً ذهبياً مشعـاً . تنحني بوداعـة لتقربـه أكثر ، فيمتد بصره عبر الشباك إلىٰ الأرض الرخوة الخالية ؛ إلىٰ السراب ، حيث يأتي خطر معين شبيه بالحصار تقريباً ، غير انه ليس حصاراً ، ولا حتىٰ خطراً . .

ورأىٰ أيضـاً بعد قبلتـين وثلاث انحنـاءات أنها مدفـوعة بسحر أساطير ذاتية إلىٰ التأويلات لفرض حماية نفسها . كل فرد هنا بما فيهم زهرة ، مدفوع بسحر غريب، تقريباً ، كالقدر الذي لا محيد عنه . أراد أن يلبس الباب لأنه لا يعرف كيف وأين يجب أن يجلس ، فتمسكت به واوصت زهرة باعداد الشاي .

بصره يدور حول عالية ، ولا يسقط عليها . يرتفع احياناً بـين هندسـة الوسـائد حتىٰ الأعـلان السياحي ، صـورة اللبوة

الجريحة . يقول لنفسه كلمة وهو يطيل التحديق في جلستها الملتاعة ؛ وضع الابتهال والنجدة عبر العصور . يمكنه ان يفسر بلا معرفة وبلا أي شعور بنقصان الألم . لأن الانسان الأقدم كان ينقصه التعبير عن الألم . يضيق بتوسلها فلا يجد مهرباً . الانسان الذي يقدس صورة تعلو علىٰ توحل الحظ ؛ في قائمتيها الأماميتين . ولكن آخرها قد سقط مثل كرسي محطّم . فكها الهلالي . الجوف الملتصق بالجلد . مخالبها التي أهملت كخطوط في رقيم طيني لكي تخلَّد لحظة الاحتضار ، كأنها كانت تنتظر المصور أن يتم نقشها .

تتحامل وتتساند قبل أن تسقط بمستوىٰ الأرض وتسلم لذباب التفسخ . إنه يسمع نجدها القادمة من قعر العصور حتىٰ ساعة القيامة . صرخة ملتاعة صادرة عن أسفل القصبة الهوائية . . وقد صارت السهام عزيزة عليها . .

تقول انها صورة آثار وتقبله مرة ثالثة . فيقول : نعم صورة آثار . ويفكر انه لم يحظ بشفطة خدّ . لم يتذكر أن أحداً شفط خده واحس هكذا بطعم الصوف . طعم بلا معنىٰ تقريباً .

لحظات طويلة اخرىٰ . يرفع بصره حيث جروح اللبوة مستنكراً ومعتذراً بشكل أسف . كانت عالية تحكي . يدري انها

twitter @baghdad_library

تحكي ، فلا يسمع سوىٰ الكلمات المرفقة بلكزة الخاصرة . ولماذا تغيب يا بني ؟ فأنت ترىٰ أن عواداً يحتاج إلىٰ صديق لكي يهدأ . وتقول : اننا بحاجة إليك . . يا وديعاً . انظري إليه يا زهرة ، اليس وديعاً ككبش ، نحيف بفعل الفيء . . . ولا يهم . ويدري انها تحكي . تقول : لو انك تزوجت . . لماذا لا تتزوج ؟ . ضعي بعض القرفة في الشاي . ويجيبها بآه طويلة . تقول : لماذا الآه . . اقترب يا حبيبي ، لماذا لا تقترب يا بني ؟ لماذا لا تأتي وتسلي عمتك . . ؟ . غير انه يبتعد وعيناه معلقتان في جروح اللبوة ، فيقول : الشاي . وتقول : حالاً ، الشاي يا زهرة . . . يوه هل رجعت إلىٰ ورود المطاط ؟ .

جاءت تلك البقعة واخذته قبل أن يشرب الشاي ، وهي مشدودة بخيط القطن اليومي . مشدودة ومزعنفة تقريباً . وتقول انها تبحث عن عواد لأمر هام يحدث بين العوائل . تلك النادرة ، فكيف يمتنع بعدما أنحدرت به عبر طعنة المضيق إلىٰ النهر .

كان ينصت إلىٰ حفيف ثوبها . صوت زحوف في الظلام . فيضغط لكي يظل مرتفعاً عن الانفعال الأول ، خائفاً التجارب التي لا تأتي بعد المغامرة . ولكنها مجازفة ؛ احراج معززبسطوع الشمس الهاوية نحو الغروب . وهي موجودة بجواره ، يكاد

يلمسها كملكة من ملكات الجن بقدر الضعف أو الانكسار من أن شيئاً ما يموت فيه عند حضور الآخرين .

استطاعت معرفة الشحوب في وجهه وألغت بنظرة واحدة ترف الفراغ لتضعه في التجربة مباشرة وتصب عليه حامض العاطفة ثم تدعوه للنهوض بمستواها منذ اللحظة الأولىٰ حيث عرف أهمية صياح الديكة وتأملات منتصف اليل ، كذلك الابهام العميق في صوت الساعة قبل الفجر ، أهمية الأشجار والوادي وحصىٰ النهر البليل بزيت الرخويات . وكان لا بد من تبادل الريب بالاشارات لفرز الروابط المؤقتة والدائمية . وكانت الضربة الواحدة تؤلمه وفق اشارات اخرىٰ لتبادل الاتهام ، ولكنها تكنس عنه متاعب الليل وتهزه كورقة عشب لتدني الطيران منه بعد أن اكتشف مبدأ الضحك واحتفظ بسر الاكتشاف لنفسه . اما الشجاعة ؛ شجاعته وهو يعقد ساقية بساقيها فوق السواقي ، تلك اللغة السرية التي تطفو علىٰ لسانه . ولكنها لا تطفو كما كان يعتقد عقب المصافحة الاولىٰ . هكذا . . لمس الانفصال الممكن للروح . حقيقة لمس هذا . . . وهذا انتفاض الزاوية امام تلك البقعة المشدودة بخيط القطن اليومي . يقول : عزيزة ، ويعني التي تسليه بعراك اجزائها أثناء المشي حتىٰ يصلا إلىٰ صوف الغَرَبِ المنفوض ، وهناك سيجد الحصىٰ ؛ حصاة ترص حصاةً ترص حصاة ترص حصاة . . . إلىٰ ما لا نهاية ،

twitter @baghdad_library

فلا يجرؤ علىٰ اغماض عينيه لئلا يسمع دويّ العالم .

وتركض بمهل لتلحق الموجة . موجة من بين الأمواج . تغرس قدميها في معجون الرمل ثم في الماء البارد وتقول : هل جربت لذة مياه النهر ؟ هيا افعل مثلي . ويفعل مثلها ، فتقول : بماذا تحس . ويضحك بلا معنى مجيباً : أحس أن قدميّ في ماء النهر . وتضحك أيضاً لأنها تتذكر ، ربما ، حكاية قديمة منسية ، مجيء طفل في سلة طافية . أما بالنسبة له فقد اعطىٰ المشهد إسماً من اسماء الأمتحان، وهو يثق بقدرتها علىٰ منعه من الإنسحاب . . حتىٰ مجيء الشتاء الذي سيكون أكثر ضباباً وخفة في القفز . . . يظل يحوّم حول تلك العصا . ما من أحد يبتعد عن الطفولة مسافة خطوة ، يحوم حول تلك العصا ، لحظة النهر الأحمر وحجوم البط القديم ، أسراب وراء أسراب تكتب ارقاماً في الهواء . تجزؤ الهواء بنشاط اجنحتها وتعبر إلىٰ صحاري آسيا . . ويذكر أنه جاء مرة إلىٰ هنا إلىٰ الحصىٰ المثقوب، «ولكن حذار . . يجب أن تبول علىٰ الحصاة قبل أن تأخذها . . . » . كانت تنكمش وتنبسط آتية من جاوة ، من سومطرة ، من جزر القمر ، وتحوّم حول تلك العصا الصغيرة وتقول : بماذا تحس ؟ ويذكر أن أباه اصطحبه مرة واحدة فقط إلى هذا المكان في إحدىٰ رحلات صيد البط ، فنظر مباشرة إلىٰ النهر كله وليس إلىٰ جزء منه بالتحديد . وعندما كانت تعبر تلك الأسراب السوداء إلىٰ

صحاري آسيا ، يقول له : « ما زلت صغيراً يا ولدي ، قد تحتاج إلى عمر آخر لتعرف متى يجب أن تضغط على الزناد » . فيصر على تعلم هواية الأب ويقعد ممتنعاً عن أكمال الرحلة ، لكنه يتشبث بتلك اليد الضخمة ، ويأتيه صوت مرتفع ، يتسكب ذلك الصوت من السماء الداخلية : « زعلت يا ابن امك ؟ خذ اطلق . اقتل البط كله » . فيطلق ولا يصيب لأن البط لن ينتظر طلقة اخرىٰ . « أرأيت ؟» يقول : « أنت الذي تمنعني » . فيستفسر الصياد : « كيف امنعك ؟ هل أمسكت يديك »؟ . « ولكنك تخجلني » .

« جرّب . خذ جرّب مرة اخرىٰ . . ها ، لن أتكلم . » .

« لقد طار البط يا أبي » . « انظر بمحاذاة الشاطىء، فإن وجدت بطة ميتة فاطلق عليها . . ها ها . » ها ها ها هيء . تقول : لم تضحك يا شاهين ؟ . فيقول : لم أضحك يا عزيزة ؟ لا شيء ، فقط انه البط الميت . ثم ينظر اليها بانكار، ثم الىٰ سحب العصافير ـ في صحاري آسيا ـ تلك الهابطة نحو أشجار جزر النهر : امرأة أمام النحاس . امرأة امام الفراغ كصورة من صور عواد . يحوّم حول تلك العصا ويمد ذراعه عبر الهواء الفاصل بينهما ؛ ذلك البهاء والرضىٰ ، يتلمسه لكي يتأكد انه حقيقة واقعة في البرودة . . وينغمس : بريق العينين وبريق الماء . ما من أحد يبتعد مسافة خطوة لحظة النهر الأحمر وحجوم البط

twitter @baghdad_library

القديم فلا يدري ما جدوىٰ التصديق . حقيقة : ما جدوى التصديق ؟ . ألم تقع تقريباً ؟ . صورة مثبتة في فراغ العزلة . . أما الآن ؛ يمد يديه ليتلمس الأنثىٰ فيصاب بالدوار . وتبدل الصورة لونها ثم تتحول إلىٰ مجرد شكل . ورغم ذلك ، يحوم حول العصا الصغيرة بعد نوبة الغاشية . يستطيع شم رائحة الأبط والشعر ، ذلك البهاء المحقون تحت الجلد وفي بريق العينين والسحنة النحاسية الرطبة . يودّ لو يسمع رفّات قلبها تحت طراوة النهد الأيسر ، وهي تعض شفتها السفلىٰ ، في الأصل : تعض بكاءه الداخلي ، فيقول : فيما مضىٰ كان اسمها عزيزة ، أما الآن فإن اسمها عزيزة . عاصفة في الرأس أو خدر في المفاصل . تقريباً، سقوطه في زيت كثيف ويتلاشى كل شيء خارج حدود اضمامة العين ، فيحتقن الجلد مرة اخرىٰ بلون السطح الجعد المصبوغ بنحاس الشفق ، فلا حاجة للتفسير ثمة . يريد أن يقول شيئاً ، يفتح فمه . . . لا جدوىٰ . يحدق في ذلك النزول الجميل لطرفيهما المتباعدين وموازاة الحاجبين لحظة الاستفهام، ثم يهتز برؤيتها كاملة أمام الفراغ .

جعلته هذه الأشياء خائفاً . يريد أن يهرب ، ويقول : تمسكي بي حتىٰ لا أهرب . وتتمسك به حتىٰ لا يهرب متوسلة . مع ذلك فإن اصطدامه بصوتٍ بشري لم ينقذه من بقعته السوداء فيقول : تمسكي أكثر . وتمسح عنه الاغماءة بابتسامة مدببة

وتقول : هناك ، عند كثافة الأشجار ، تلك الأغصان المغموسة في الموج سنجد قارب العم عارف ، ونذهب في نزهة صغيرة . ويجيب: هناك الاغصان المغموسة في قارب العم ، لن أذهب إلىٰ نزهة صغيرة لأنني لا أحب النزهة الصغيرة ولم أركب قارباً صغيراً من قبل. تقول : بل سنركب القارب ، يجب أن تتعلم مثلنا بحيث تستطيع الذهاب منفرداً . ويحوم حول نفسه قائلاً : لن أركب القارب واتعلم منفرداً مثلكم . وتصرخ به : بل ستركب مرغماً . فيجيب بهدوء أكثر : بل سأركب مرغماً ، نعم . وتمشي أمامه عارية القدمين على معجون الرمل ، فلم ينزع خفيه كما فعلت بل تركهما يرشانه بالرمل .

وتنحني عند الأغصان المغموسة فيبين القارب ، يتفحصه : عمودان، شبكة صيد ، جفنة اسفلتية ، وتد وحبل ، كيس فيه شيء . وتقول : اصعد . بعدما تفك العقدة . فيقول : سأصعد ، ولكن الىٰ أين ؟ تقول : إلىٰ النهر . ويقول: هذا هو النهر ، فلما نذهب إليه ؟ وتضحك ، ويضحك أيضاً ، ثم تركب أولاً وتتناول يده وتستعمله فيتأرجح بعد أن ينقل قدمه إلىٰ الجوف ويغمض عينيه ويوتر ظهره فتأمره بالارتخاء . كان النهر أملس مغطى بعيد ان الطفو علىٰ جانبي القارب ، وأسراب اسماك صغيرة فضية تهاجم الخشب ـ بعدما فتح عينيه يبصر عموداً في حركة غطس وارتفاع فيتبين أنه

twitter @baghdad_library

مجـذاف ، ويبصر الشاطىء مبتعـداً بخطوة عمـلاق ، والقارب يندفع أكثر ، علىٰ مهل أحياناً نحو زعانف الأسماك الكبيرة التي لا تجيـد السبـاحـة في الشـاطىء . ينسـاب في نشـاط حــركـة الأمواج . . علىٰ مهل . تيار صنعته حدبـة صخور نحـو حدبـة صخور أخرىٰ . وتنغلق الرؤية في ظل الجبل امام مهبط الشمس فـوق أوراق الاشجار الـدائمة الخضـرة فلا يبقى سـوىٰ التيـار السعيـد المجعد معلقـاً في الأفق بمستوىٰ اهـداب التي ارتعشت لتنفض لـذة النعاس . في الأصـل : انتفاض العصفـور لحـظة الزواج . وتطلق صوتها في أغنية تتحدث عن معنى الحياكة فـلا تلوث انتظام حركة المجذافين . يدخل الماء عبر ثقب سريّ الىٰ الكيس الـذي فيـه شيء . ويقتـرب الخـطر بـدنـو القـارب من الصخرة الكبيرة ثم يحيد قليلاً إلىٰ الشرق فلا تقطع اغنيتها لأنها لم ترخ يديها علىٰ العمودين .

تأمره أن يغترف الماء بجفنة الأسفلت فيفعل بحذر أولاً ثم يتعلم .

نقول : ان الامر صار مسلياً . وكانت هي ايضاً ؛ عزيزة القطان تأمر بأن يتسلىٰ لكي تتسلىٰ ايضـاً ، بعدمـا ابتعدا عن خط الخطر .

يعتقد انه ابصر دبيبـاً علىٰ الصخـرة . أجل ، دبيبـاً على

الصخرة ، عندما انشغلت باداراة القارب حولها في طريق الرجوع نحو الأغصان المغموسة . . .

لامس خشب القارب اعشاب النهر ؛ الرؤوس فقط . جوف في مساحة ضائعة مدفوع بقوة رقة الأمواج المتتابعة المتساوية المنحنية علىٰ بعضها بعطف . اخوّة الأمواج . حنان يحضن حناناً . ام ترضع اماً . وتقول له : اقفز . ثم تعقد الحبل حول الشجرة . تركض في معجون الرمل ثم تسقط نفسها ناظرة إلىٰ بعض غيوم الخريف الذاوية .

يقول : اعتقد انني رأيت . . . ثم يجلس امام زفيرها ، تقول : نعم ، انه نمل اسود يعيش هناك . يقول : نعم ، نمل اسود يعيش هناك ، فماذا يأكل في وسط النهر ، تقول : الا تعرف ؟ يأكل اي شيء ؛ الحبَّ او السكّر ، مثلما تأكل اية نملة . يقول : آه . . يأكل مثلما تأكل اية نملة الحبّ او السكر ، اعرف ، ولكن من أين ؟ اعني ، من أين تأكل ؟ . فتشير إلىٰ السماء : من هناك يأتي طعام النمل . . وطعام البشر .

ويحوم حول تلك العصا . ما من أحد يبتعد عن نفسه لحظة النهر الأحمر ؛ اسراب وراء أسراب تكتب أرقاماً في الهواء ، تجزؤ الهواء بأجنحتها وتعبر إلىٰ صحاري آسيا حيث خط الاستواء الشمالي ، والزنوج علىٰ الصخرة عبر نشرات الأخبار : الارهاب

twitter @baghdad_library

العالمي ، وليس الحب العالمي . أخبار مجاعة النمل . شاهين ـ شاهين ابن الصياد ـ ابن الظهيرة القائظة ـ ابن قارب الخشب ـ ابن حصىٰ النهر البليل بزيت الرخويات ـ ابن الخريف حيث شباك الضحك . حتىٰ ؟ . تقول انها تعرفه بفضل صخرة النمل ـ ابن العاطفة الاولىٰ حتىٰ آدم ابن حواء . وتقول انها تدري ان صخرة النمل واحدة من معجزاته عندما تشير إلىٰ الأزرق المرتفع فوق مياه النهر أحياناً ، فلا يعلم ماذا يحصل حين يمر الصياون ويثيرون السؤال نفسه : ماذا يأكل النمل ؟ ثم يلقون بعض الشعير . أتدري ماذا يحصل ؟ . يقول : نعم ، أدري ماذا يحصل ، سيفرح النمل بالشعير . وتزجره : كلا لن يفرح النمل ، ولكن الزورق ينقلب . فيضحك متذكراً أنه قرأ عبارة علىٰ باب حمام : « لماذا تكتبون هذه السخافات ؟ » فتقول : ماذا تعني بالسخافات ؟ . فيقول : لا شيء ، لا أدري . . .

استوت تنفض حبات الرمل عن شعرها وتسوي الخيط القطني الغليظ ، ثم سارت أمامه علىٰ حافات جروف رملية امسكتها جذور الطرفة عن السقوط . وما من أحد يبتعد عن الطفولة مسافة خطوة . رأسه على فخذ هاجر بدعوىٰ البحث عن القمل وهي تعلم أن شعره معطر بالصابون . لم يكن يفهم معنىٰ القمل عندما غاصت اذنه في الدفء وأراد أن يغفو حتىٰ ينتهي

عوض القصاب من سلخ الذبيحة . يقول لها أنه يريد الدفء بسبب القمل . لكن الأصابع الرشيقة تفرك شعره فتصدر عنها رائحة السوس . . آه ، السوس !! ـ السوس ايضاً حول العصا ، اسفل بطن البقرة المذبوحة ؛ بيضاء حارة تنيض تحت السكين . دم أحمر يسيل ثم ينجمد . وان شيئاً ما ، أسفل البطن تقريباً ؛ دفء البقرة تحت قلائد القرنفل بالضبط حيث تنتظر الفتاة في آخر الطابور سقوط اللحم في صحنها وتشكو من قصر جدائلها بعدما سمعت وصية عجوز ؛ بأن صفار البيض مع الروث يمكن أن يطيل الشعر . كان فخذها يتنفس تحت اذنه . فخذ البقرة . فخذ عزيزة . فخذ هاجر . . بينما القصاب يضحك ويحك مديته علىٰ اللحم الحار ويتأكد احياناً من خيط سرواله بحجة اراحة ساقيه من تعب القرفصاء . فتاة اخرىٰ تدفن شعرها تحت منديل أسود وتتجنب مخاط الصبي المجاور عندما يعطس . وحين اشتد القيظ ، بحلول المساء ، قال : لديّ في شق الجرف ، تدرين ؟ إن طائر الشقراق من أحسن الطيور لأنه يضع بيضتين في ظل حفرة ، ويخاف عندما أنظر إلىٰ عشه ، اعني انظر لىٰ عشي ، من خلال الحطب . . .

مشت باتجاه انفساح الممر الرملي . ثمة طين جاف مشقق ، أشواك وآثار مخالب لثعالب عبرت في الليل .

فكر ، وعيناه مشدودتان في تضاؤل الضوء بأنها تعرف كل

twitter @baghdad_library

شيء عن المكان . واعتقدت بأنه سيحدثها عن شعوره بالتفاهة وأفضلية الموت وانه يفكر جاداً بقطع التنفس . فـأخذت تعصر نفسها طوال طـريق العودة لكي تفلح في اسقـائه قنـاعة الـرضا وتناضل لتحويل عناصر التعب إلىٰ بريق . . .

حسب فهمها : ربما صار مقتنعاً بقولها ، ولكنه قد لا يفهم معنىٰ أن أن يتعلم المرء شيئاً من رحلة القارب ، ووصل حماسها إلىٰ درجــة الضحـك من طيــران القبـرة وثقــوب الجـرذان في السواقي . وبدا لها بأنه علىٰ وشك ، ربما في رحلة اخرىٰ ، أن يغيّر نظرته السوداء إلىٰ نفســه كخطوة اولىٰ لازالـة موانـع الحذر بينهـما . لكنه اكتفىٰ بـالانصـات إلىٰ حفيف ثـوبهـا كـدبيب في الظلمة ، ويجيبها أحياناً اجابات بعيدة عن السؤال . . . فسارت بيأس ، إذ لم يكن الكلام مهماً بعد ذلك . .

تقول : فهمت . ثم تنفجر ببكاء مرّ مـديرة وجههـا نحو آخر دفقة من النور ، فرأىٰ دمعتهـا الصافيـة لذيـذة لأنه أحس بندىٰ الأعشاب التي نبتت في الربيع المـاضي بين شقـوق حافـة النافذة . وأراد أن يقول : لا تبكِ أحسن . لكنها لم تنتظر منـه قولاً ،فدفنت وجهها بكفيها وهرولت صعوداً علىٰ التل ثم بدأت بالنزول من الجهـة الأخرىٰ ، خـطوات الانكسار بعـد الهجران الاول . خطوات . خطوات . تصعد شتائم الغروب إلىٰ سحب

الشفق كالتفريغ بعد امتلاء ، فيما يرىٰ الحالم انه مجرد قشر رقيق معلق في غرفة خياطة ؛ بمعنىٰ انه معرض لطريق الأبرة ، يتنسم غلظة هواء الخريف ، بارد ومفخخ باعترافات سطوة الفراغ . خطوات اخرىٰ . يرىٰ انه يقترب من الغطس ثانية ، وينظر وجهاً في الظل فيقول : من أنت ؟ يقول الوجه : انا امك هاجر ، خفت عليك ، انتظرتك ، أين كنت ؟. فيجيب : كنت في الماء ثم خرجت إلى اليابسة . ويحدق الوجه الذي في الظل بحنان يفوق الحكمة . ربما باشفاق يفوق نفاد الصبر . وجه ذو تجاعيد ، تجيب صورته عن عدد العقارب التي لدغته ، ويترقرق فيه ماء الساقية المالح . تظهر أسنان نخرها النيكوتين دافعة لمسافة هلاك نفس الجوف العنبري . في الظل أيضاً أصابع صريحة تشير إلى كف عازف منسي ، تغطي الجزء الأسفل ؛ جزء طفلة متغوطة تلحس تراب الأساس .

خطوات الانكسار بعد الهجران الأول . خطوات اخرىٰ . يسقط التآلف مع المحيط صعوداً حتىٰ الشباك مروراً بلفظ اذاعات لحظة هبوط المساء الكثيف في اواني الطبخ وحدوث زلازل شيلي عبر رغوة الصابون تحت باب الخشب انتهاء بخروف يمص الضرع بيد المرأة التي ليست مرأة وانما دبابيس تبن دخلت الجلد . .

twitter @baghdad_library

يصعد بعد ما صار خواء . صار شيئاً ، مجرد شيء . خواء يمشي إلىٰ خواء فيتسلل خدر التجربة في الباقي ويمتص الوحدات والكلمات والشرطة علىٰ خشب البيك أب وأحشاء ثور طبخت بمحتوياتها وغصة حنجرة مخدوشة بشفرة الحلاقة وبراءة من أصابع القدم ونظرات بوميّةبعد كل هذا ، فهو سعيد حتىٰ لحظة : « فهمت » ثم انفجرت ببكاء مرّ مديره وجهها نحو آخر دفقة من النور .

وجد في ثقوب العصافير تحت السقف القصبي لبيتهم المستعد دوماً للنصر علىٰ العواصف ، بعض الأمل في أن يكون مرناً ، خشبي الساقين علىٰ ظهر ـ جوف القارب ، رغم انه استمر في التأمل اكثر من عشرين خريفاً ليجد الفكرة ، ولعله يجدها بعدما يتحول العصفور إلىٰ ببغاء ، والسمكة إلىٰ ضفدعة ، ويطول عمره لكي يتمكن من التجذيف منفرداً فيعلن عن اكتشاف مبدأ الضحك وسط ساحة مسوّرة بالعيون والأكف المصفقة .

الضحك دائماً . الضحك . الضحك . الضحك ، إلىٰ ما لا نهاية . . . كان عواد يدلي رأسه من الحائط حين توجهت إليه . وقد فكر بظهور شاهين كضرورة مجردة عن أهمية الهدف ، وقد جمعهما اللعب عند السدرة في رصيد من التجارب الحدسية .

أعني : الاستنشاق والدغدغة . أعني : غباء الآمال ورشوة الحلم بالوقوف على الأحجار . اعني : خدعة الطول . وكانت ارتفاعات جروف السيل بمثابة المنجد من الظهيرات القائظة ، لأن ظل الحمار لا يسع اثنين بسبب تقافز الجراد الذي ينقله إلى وضع مواجه للريح لتخفيف مشقة تحريك الذيل ؛ فهو من القصر بحيث لا يصل الرقبة ، كما أنه يريد الفيء لرأسه المدبب كما يريدان . ومخافة الضواري اللائذة : واحدة لها بوز مستطيل . يرتفع الاستنشاق تحت وطأة الحذر ، انها رائحة شاهين كانت شبيهة برائحة المطر بعد القحط . او رائحة التمر المدبوغ ، او نحو هذا الحجم بالنسبة إلى ارتفاع الجروف .

ورغم الفارزة الوقتية الكبيرة بين سحر الجروف وبداية الظهور بعد الغطسة ، فإن رائحة المطر بعد القحط تقريباً ، رائحته بعد تبدل الساعات العادية باخرى الكترونية ، كما هي وهو لا يشعر بحاجة ألى سؤال عادي : ماذا فعلت طوال هذه المدة ؟ . لان ذلك سينكشف في ليونة تحمل الهزء والاحساس الشبيه بالمرض لدى كل منهما .

ومهما كانت الوسائل ـ حسب اعتقادي ـ فإن شاهيناً دخل إليه زائراً ليخرج صديقاً في صورة إعلان امام الناس لأنه بحاجة إلى نصر الاكتشاف او خبرة الفشل .

twitter @baghdad_library

كان الظلام يترسب تباعاً في المنخفضات عندما يدلي رأسه ويراقب انحاء الطريق معاهداً نفسه علىٰ إفشال التخمينات ؛ بأن العلاقة ستنتهي بفاجعة الإشباع أو اللاتفاهم . فلطالما أهدىٰ إليه الصفعات بعد خلاف حول الأقوىٰ ؛ الذئب أم الضبع ؟ ثم يعودان في اليوم التالي إلىٰ القرار بأنهما متعادلان في القوة ، فلو كان العكس لاختفىٰ أحد الصنفين ؛ اما الذئب أو الضبع . يقول : كانت صغيرة ، أما الآن . . . ؟ . يقول : كانت صغيرة فذهبت . وهم يقولون : العلاقة علىٰ وشك النهاية . لكنه يقول بانه علىٰ وشك الامساك بالسر الذي يأتي بسرعة ثم يقفز إلىٰ الهاوية ، ليس علىٰ طرف اللسان فحسب ، وانما في جرس القلب تقريباً . استنتاج ما ، بأن الدوام يأتي من الكشف المستمر دون حاجة للحديث عن العمق أو السطح . . إلا انه سيحتاج إلىٰ جهد كبير لمعرفة شاهين ، ولا يحتاج لبعض هذا الجهد لمعرفة عزيزة ، لذلك سيراه من خلالها في الممرات نفسها . ربما ، سيدفعه الحب إلىٰ اختيار مكان خاص لكي يعلن عن اكتشافاته : التفحص علىٰ عجل لا يحتاج للدقة في فرز الفواكه الفاسدة أو النقاش حول امكانية انبات النخيل ـ أعني نخيل الجنوب العراقي ـ في الحائط .

أقول : ربما . وكلمة (ربما) أدقّ الكلمات تعبيراً عن الإحتمال . إلا أن السر الذي تعلمه عن الصبر اثناء دراسة

تشريح الثيران أو مراقبة مواسم الحصاد التي تعدي العاطفة : البذار المسمىٰ بتعب البداية ← النوم المسمىٰ بانتظار الرزق ← الحصاد أو نتيجة الصبر علىٰ الانتظار . وربما تأتي السنابل سوداء بفضل الزوان ، مع ذلك فإن الجميع يستعدون للبذار القادم لئلا يشعروا بضياع الجهود . ومع ذلك ، ربما ، سيعتذرون للمحراث ، بأنهم تعلموا فنون الزرع . . على الأقل . يحك ذقنه بسبب البعوض ويرىٰ الهبوط بعد رحلتها معه . ها هي ، تبدو كعلامة في الظلمة . يسميها الحواجز النافعة ، كالآثار المهدمة النافعة . لعلها ستزداد سمكاً بعد نيّة الاشارة في طلب الاعتراف . اقصد سمك الحواجز ، لا سمك عزيزة . لذا لم يعد يذكر أنها قالت له مرة انها مرتبطة بصاحب النظارة السوداء . شخص قريب . علاقة شبه رسميّة . غير أن ذلك الشخص كان دنيئاً بالقياس إليه كفنان .

تقول : مرحباً . . صديقي العزيز . لانها فهمت نواياه رغم السواد . ويقول : مرحباً . فقط لأنه فهم ايضاً . ويا له من صعب ولكنه مستعد . . هذا هو المهم . يعرف ان صديقه صعب ، ليس هذا هو المهم ، بل : مرحباً . كذلك : هذه انفاس الصعود . . ما أطيب الصعود وأنت ترين الظلام قبل القمر اللعنة علىٰ البعوض . . أفّ . ثم يدخل في محاسبة شديدة لانتزاع اعترافها كما وعد نفسه .

twitter @baghdad_library

واعترفت له ، بحذر ، بأنها لم تصل بعد إلىٰ حد النطق بـ : « أحبك » دون الحاجة للمقدمات . وان علاقتهما وصلت أقصىٰ درجات الصداقة . ومن يدري ماذا سيكون بعد الدرجة القصوىٰ ؟ . ثم اعترف لها بمعاناته تجاهها وتجاه نفسه . . واخيراً تجاه الجديد شاهين .

تطلب الاذن بالانصراف بعد وداع بارد ، بلمسة كف باردة من فوق الحائط . سنلتقي غداً . إن شاء الله . . . ويعود إلىٰ مشغله متلمساً طريقه بين الأخشاب حينما بدأ عمل الأرضة علىٰ ارتفاع خمسة امتار فوق النهر البعيد . يحك ذاكرته فتعمل بشكل مدمر واضعة احتمالات القصاص قبل هذه اللحظة . غير ان الاحتمالات كانت أشد وطأة مما توقع ، بفضل الثقة الزائدة التي اجازها لنفسه لحظات الوقوف امام اللوحة ، مدعياً بفعل تأثيرها بأنه قادر علىٰ صناعة المرأة كما يفهم المدرسة الانطباعية . هذه رغبته تقريباً ، لأنه يرىٰ الشجرة بيضاء علىٰ خلاف رؤية الناس . اقول : انه تعلم من المذابح الزرقاء الخاصة بالسيد الأجنبي ؛ هنري روسو . تلك التي تمد الأشياء إلىٰ جوانب الفراغ بحيث تجعل الموت لعبة سحرية وتعطي الحياة للجمادات . اعني : صورة الغجرية النائمة تحت القمر أو تحت لحية الأسد بلا اي خوف . منظر شبيه بمناظر الاختناق .

من جانبه ، حاول اعتبار تصريحها مجرد تبرير لكي تمتن

علاقتها مع صاحب النظارة السوداء الذي يضرب رأسه بالحائط حين يكتشف انها وقفت مع غيره وتحدثا طويلاً عن تكاثـر دودة القزّ .

وبـدأ الألم منهـا . من عـريـزة . لا بـديـل عن المـرأة الشيـطانة ، الضحكـة النادرة ، البيـاض الهـلالي في العينـين ، الألتفـاتـة الـذكيـة لأنثىٰ الـرجـل تلك . قـالت : « لـك عـالم خاص . . . اما أنا فلا أستطيع . » ، عندما كـان يبني أحلامـه على أمل وجود امرأة تضع العاطفة فوق واجبات المطبـخ وتقول مبـاشرة انها عـاجزة عن فهم جمـل ما بعـد التـأمـل بمعـزل عن الحس ، وقد عبرت له مرات عديدة ، كفـرصة لـلانتباه ، عن تعبها في محاولات بلوغ الأطراف الدنيا لحلمه . مـرة من خلال هدية تمثل تقويماً مزيناً برسـوم عصر النهضة ، حيث كتبت بعـد يومين من التفكير باختيـار العبارة المنـاسبة : « إلىٰ اعـظم رجل عـرفته في حيـاتي و . . . » وتحت تأثـير العجز نفسـه ، والبراءة الخبيثـة ذاتها أكملت جملتهـا : « . . وأعز صـديق . » . وأعز صديق . وأعز صديق . . . الخ . .

خرج ألىٰ الظلمة ليرىٰ نفسه بوضوح .

فكـر شاهـين بـالانصـراف إلىٰ الشـاي لكي يلعب لعبـة التوازن ، فقابله شخص في الشباك عبر الـزقاق . ربمـا شاهـده

twitter @baghdad_library

معهم هناك كلما التجأ إلىٰ المسند . وجه ذلك الرجل . . هناك ، يحمل بقعة حمراء بحيث لا يستطيع الصبر على المكوث في مكانه فينتقل إلىٰ الزاوية ليتخيل الشخص . . فأين الآخرون ؟ هناك فقط . لا في مكان آخر ، مقاعدهم البيضاء ذات المساند العالية التي تسبب له الضيق بخلوّها منهم . اين هم ؟ .

يمد ذراعيه . ما أروع أن يمد المرء ذراعيه !! . يمدهما ألىٰ الجانبين ، إلىٰ الأعلىٰ ، إلىٰ اي اتجاه آخر . . ما أروع ذلك !! . يمدهما فلا تصطدمان بشيء . بدون أمر ولا طلب ولا رجاء . . ولا حتىٰ تجسس . ولكنه يشعر بالحذر تقريباً . لا شيء مؤكد ، لا شيء . . .

يشعر بحرية الفراغ عندما يقطع مسافة معينة بين النافذة والزاوية ، أو بالعكس . يدلي رأسه بعد اختفاء الشخص ذي البقعة الحمراء . تتشكل زوايا الأشياء كسهام تتجه إليه تقريباً فيرىٰ خطوات الناس الراغبين ، بمحاذاة مجرىٰ الزقاق ، بالوصول إلىٰ بيوتهم . يراهم بلا نزاهة معروفة يحملون لأولادهم عشاء الليلة الماضية ، فيذكر تلك الجملة ؛ صيحة بلا صوت . جملة قديمة : « كلهم وسخون . . حتىٰ أنا وأنت . » . ويجلس ماداً ذراعيه ، ما أورع ذلك !! . ويحرض نفسه على قبول فكرة المرض . غير أنه استيقظ نهائياً معيداً إلىٰ نفسه كلمات الاغنية التي تحدثت عن الحياكة . وقائع رحلة القارب مرة اخرىٰ .

صور واضحة . يشعر بأنه علىٰ وشك الانفعال مندهشاً تجاه قدرته الجديدة في قول الكلمات التي أراد أن يقولها لعزيزة ، فلم يستطع . واعتقد أن استمرار هذا الوضع كفيل باحداث بعض التبدل في حياته .

يطبق فتحتي الابصار فتأتيه الصور قريبة ملونة طافية فوق مياه تنزل من السماء . يهز البرميل الذي يستخدمه كمقعد ، في وضع الابتسام ، فيرىٰ أنه ، ربما ، سيموت غداً . . . . .

يفتح عينيه ؛ صورته الكابية في الزجاج ، وهو يسمع أصواتاً خاصة به : موت فأر تحت القدم ، محادثات بين طابوقتين ، شكوىٰ أرجل الطاولات بسبب تعب الوقوف والرفع ، تنفس تروس الساعة ، أصوات لا مكان لها ولا أصل . . . أصوات . . أحد . . .

يدلي مرة اخرىٰ ؛ ثمة هاوية باتجاه القاع تقريباً . ليس ثمة هاوية باتجاه اي شيء . يرىٰ انه سينطفىء . ينطفىء . ظلمة كثيفة دبقة . ظلمة دبقة . .

نظرة إلىٰ الأعلىٰ ؛ تبتعد السماء مثل فقاعة سوداء ، وتخرج رائحة الوبر من حيوانات الوادي . يفكر بأن الرجل ذا البقعة الحمراء قد نزل بحرص درجات السلم بحيث لم يستطع رؤية اقدامه . . وسمع صوت سقوطه في مكان ما . . .

twitter @baghdad_library

ظل علىٰ حافة الشباك . أقصد : حافة الكـرة الأرضية . يسند خديه بيديه وينظر صورته الكابية بحياد تام . يشعر بانه لا يرغب بالخلود ، إذا كان ثمة خلود في ذلك الفراغ ، حيث رأىٰ انتهاء الفصول دون أن يتعلم كيف يكوّر طينة ليشتق منهـا بدن عصفور . ولم يفهم عناصر حجر ساكن ، كيف مرّ خط كبريتي ونصفّ الحصاة ؟ . ولكنها مغرية ! جذّابة ، ناجحة تقريباً . لا أعني امرأة ، بل أعني الهاوية . بالضبط : الظلمة . النوم بعـد الضحك . يقول : مرحباً ايها الأسفل .

وفي الزجاج ، بدلاً عن الصورة الكابية ـ صورته ، أبصر زبيبتي نهديهـا ضامـرتين كسجـين ، صفراوين بلون القميص ـ قميص القتـل الذي تستحقـه . فقالت لـه الأصوات : خـذها لـك . فقال : بـأي شيء آخذهـا وقد استعملت يـديّ لاسناد رأسي ؟ اذن ، بمـاذا أسنـد رأسي ؟ . ثم ينـزلق ألىٰ الخـلف بتشجيع منه . يسمعهم فيقوم .

تدخل المرأتان بخطوات تدل علىٰ الاهتمام . كانت الاولىٰ قـد استبدلت قميصهـا بآخـر معلَّم بعلامـات السنـك في ورق اللعب ، وهي تغرز سيجارة بيضاء طويلة في طـرف ابتسامتهـا المتعجرفة وتنفض رأسها أمام الطاووس ، باتجاه الباب ؛ حيث تنبع كرة سمراء ، كتفان ممتلئان ، ثم يظهر كله ، الرجل السمين

الأسمر . اسمه صابر ، لانها قالت له : ما كان يجب عليك ان تدفعها هكذا يا صابر . ينبع الرجلان الآخران ؛ يلبس نفس البدلة . اعني : لكل واحد بدلته التي تشبه بدلة الآخر تقريباً . يتدلىٰ من عنقيهما حبلان عريضان أحمران . يبدأ الجميع بتمزيق موضوع مهم فيخيب شاهين . يرتفع صوت مطارق من الأسفل . اي أسفل أعني ؟ المهم أن هناك أسفلَ يُطرق بمطارق ضخمة تضرب أشياء حديدية فيهتز الحائط . تقول المرأة الاخرىٰ : اوقفوا هذا الطرق . . نريد أن نضحك . ويقول الآخر : لن يمنعنا الطرق . ثم يسقط نفسه فوق اقرب مقعد ذي مسند أبيض ، لأنه واحد من المقاعد ذات المساند البيضاء . ويقول رجل من ذوي الحبال : دعيه يكمل يا فاتن . يقول الآخر عبر فتحته المتقاطعة مع الحبل : لن يمنعنا الطرق من أن نضحك . . فلنضحك هيا . ثم يسقط نفسه فوق اقرب مقعد ذي مسند أبيض لأنه واحد من المقاعد ذات المساند البيضاء المتبقية . تذهب المرأة الاولىٰ إلىٰ أقصىٰ الغرفة فترفع ، علىٰ الأصح ، تسحب سيجارتها عن ابتسامتها المتعجرفة ليتاح لها الكلام وهي ملتفتة عنهم تقريباً : جهزوا الأدوات ريثما أعود من المرحاض . ويأتي صراخ طفل من الأسفل الذي يُطرق بمطارق ضخمة تضرب أشياء حديدية فيهتز الحائط ، المطارق تطرق ، والحيطان تهتز فيسقطون تباعاً علىٰ المقاعد ذات المساند البيضاء .

twitter @baghdad_library

فـأما انهم متعبـون ، أو يمشون بـلا أحذيـة ، أو أنهم ينتظرون صـاحب البقعة الحمـراء أو المرأة القـائلة : . . ريثما أعـود من المرحاض .

كلما ازداد الـطرق ازداد معه صـراخ الطفـل ، فينـاديهم شاهين بصوت خفيض لكي لا يسمعوه : اولاد العنز ، اوقفوا الـطرق ، فلا يحتـاج رأس الطفـل إلىٰ تعـديـل أكـثر ، اوقفـوا هذا . . . أو . يخاف علىٰ المطارق . يقول أحد الرجال وهو يفك الحبـل الأحمر عن رقبتـه ويلقيه نحـو الـزاويـة : أشـك بنجـاح العملية . فيرد الآخر وهو يفك الحبل الأحمـر عن رقبته ويلقيـه نحو الزاوية باتجاه مكان سقوط الحبل الأول : كلا يا فيصـل ، سننجح ، مع أن الجدران قوية ، لكن الرجـال اقويـاء ايضاً ، والمطارق قويـة . . وغداً ؛ بـرررررر . . . تفتح الحنفيـة فيتدفق الماء . يرد الأصلع ساخراً : ناولني الصابونة ههب . .

تصعد اللطخة الحمراء امام صاحبها ، ثم يصعد الرجل خلف لطخته : كل شيء علىٰ ما يرام ، اتفقت مع حلّاب حول عدد الأكياس ثم أرسلت السـائق إلىٰ المدينـة ليجلب الحنفيات والانـابيب والبيرة . يـا جماعـة الا تأكلون ؟ لقـد ذبحني الجوع بشرفي . ينزلون لملء الجوع . . .

ولّما كان غريباً عنهم غربة الأعمىٰ عن مقعده فقد وصـل

إلىٰ طرف الشك بانهم لن يفعلوها ثانية . حقاً لقد اندثرت تجربة النهار باعتبارها غير أكيدة الوقوع . علىٰ الأصح ؛ انها لم تقع أصلاً . كان ثمة امرأة في النهر تسمىٰ عزيزة في بعض الأحيان ، ورجل آخر ولوع بالكلاب الميتة ومربعات الخشب ، ربما كان اسمه جراد ؟ وربما عواد ؟ وربما لم يكن له أي أسم . . من يدري ؟ .

فأين نهر القارب وجبل الأغنية التي تتحدث عن معنىٰ الحياكة عندما كانت اليابسة تنبض بالنحاس وتمتد حتىٰ سحب العصافير الهابطة نحو عقدة الحبل ؟ .

المطارق تطرق فينقطع صراخ الطفل ، وبماذا سيصرخ إذا فقد رأسه ؟ . يقول : ها هم . ليتأكد بأن الحقيقة الوحيدة ؛ هم . يتأكد مرة اخرىٰ ، فما علامات التأكد ؟ . كانت ظلالهم علىٰ الحائط تمس ذيل الطاووس من الأعلىٰ حتىٰ زاوية السقف مروراً بذكرىٰ المعذب صابر ، وذكرىٰ اشكال انوفهم علىٰ الحائط كمناقير طيور منقرضة ؛ طيور ما قبل التاريخ . إنها حكاية العادة اليومية وما عداها فميت .

ينوي تسلق الرفّ المثبت فوق رأسه بعدما لمس البرودة الخشبية ، برودة الجسد لا برودة الخشب . وان اية محاولة كفيلة بكسره من المنتصف ، كسر شاهين لا كسر الرف .

twitter @baghdad_library

وتسلل بحذر واضعاً انفه على شرشف الغبار ولكنه سمع الباب ؛ طق طق طق . يقول الطرق : انزل يا بنيّ ، ولكن علىٰ مهل . . درجة درجة كيلا تسقط يا حبيبي ، افتح يـا ولدي ألا تأكل ؟ . فيجيب فمه نافخاً غبار الرف : طرق من هنـا وطرق من هنا . . الا تسمع ؟ . يقول الباب : أنا التي تطرق فكيف لا أسمع ؟ . ويرد فمـه نافخـاً ما تبقىٰ من الغبـار : أعني الطرق هنا ، لا أعني الطرق هنا . يقول البـاب : تقصد الـطرق عند تجـار القطن ، هـاه !!، لقـد اعتـذرت فـاتن عن ذلـك لأنهم يشكلون انابيب الماء ، فقلت لا عليك نحن جيران . يقـول : نعم لا عليك إذا كان اسمهم تجار القطن فإنهم فاتن ، فلا تعتقد بأنني متمسك كثيراً بالرفّ لذا لا أستطيع أن آكل لقمة . ونادته بتوسل فعرفها قائلاً : كنت اعتقد بأنكِ الباب وما هي اللقمة . تقول هاجر : اي شيء تسد بـه فراغ بـطنك . . اللبن مثـلاً . ويتـرك الـرف متجهـاً نحـو البـاب : اللبن ؟ !. . هـل طلع الصبـاح ؟ . تصيـح : أوووه . . سـأكسر البـاب وأضـربـك بالعصا . لا لا تكسري الباب وتضربيني بالعصا ، انتظري ريثما أعود من المرحاض . تقول : أي مرحاض تعني ؟. فيقول : ما أدراني ؟ الجميع يذهبون إلىٰ المرحاض حتىٰ فاتن .

ينـزل درجـات السلّم عـلىٰ مهـل درجـة درجـة لكي لا يسقط . بينما كان عواد ينزل ليرىٰ نفسه اكثر في الظلمة ويستقبل

الحلم كقُمع بومضـات ضوء دا[illegible] يتسع فيمكنّـه من الإبصار وليس المشاهدة أبداً . ضوء مـا في زاوية بعيـدة ـ احدىٰ زوايـا نفسه ، فيرتعش ، بل يتسع وهو يشعر بقوة مدمرة بين أصابعه ، وينكر المشكلة ، إذا كانت ثمة مشكلة أصلاً ؟ ، بعدما يصل إلىٰ الـرقص أو الطيـران ، ويلمس ؛ أن كل وقـوع في حياتـه يعني درجة اخرىٰ نحو الصعود بمعية أدوات حفر الحواجز التي يـراها من الأعلىٰ مريض اللمس والبصر بحيث تحولت هاتـان الأداتان إلىٰ لوامس حشرية ضخمة تسبب له الألم لحظة اصطدامها بـأي شيء لاسيما الهواء . الخيال منبع الكوابيس في الصحو وليس في النوم أبداً أبداً ، يبدل نزعاته من أقصىٰ القسوة حتىٰ أقصىٰ اللين فيكاد أن يسيل نحـو وجوه الأحبـاب والثعالب وذكـرىٰ العزيـز شرار كمشاعر تشبه الانانية لاسيما بعد المغارب .

أما أنه لم يكن يهتم كثيراً بطقوس البيت . هذا صحيح . فلا يعطي أهمية لترتيب شعره ، وقد ينسىٰ ما إذا كان المفرق علىٰ اليمين أم علىٰ اليسار ، باعتبار أن تلك السمة خاصة بالرسامين وهي ضرورية لكي يتميز عن الآخرين بالقدر الكافي من الوسامة الطبيعية ، كأحساس خاص بالجمال يلغي الهندسية البشرية التي تجعل الأنسان شبيهاً بالـدمية . وأن عـزيزة لن تجهـد نفسها في التعرف عليه كل صباح عند تجمع الرؤوس .

بدأ هواء الخريف بالهبوب لاعقاً أطـراف الأشياء ليـذكره

twitter @baghdad_library

بأن هذه الليلة مجرد نموذج من ليالٍ كثيرة لا بد أن يمر بها في طريق الوصول حيث يتجنح قلبه نحو المدن المسرفة بالتزويق قبل أن يسمع صوت الحصىٰ المتدحرج أمام قدميه ، أو قبل طلوع القمر فلا تبقىٰ هناك أهمية لجهاد الإبصار .

ليس الحال كما تخيّل اذن .

كانت الرغبة المطفأة تبدأ منه لحظة ملاقاتها وهي تهتز أمامه بشهوة تأتي من الخارج معاكسة للخوف ، من مكان بعيد ، من غيمة عابرة ، أو من شيء صلب كالحاضر الذي ينطق فيه اسمها فيتحول إلىٰ ماضٍ بعدما ينتهي من النطق . كان ضوء الجمر يدَبّ علىٰ جسدها المدهون بعبق الانثىٰ البشرية وهي تغوص في وبر القطيفة وتنظر إليه خائفة بطرف عينها . نظرتها تقول ؛ اقترب ايها البعيد . . فيمد يديه فلا تصلان . ويسقط رأسها في حضنها و . . تموت . يسحب يديه فيرىٰ ضوء الجمر من جديد مكرساً بين انطباق الشفتين علىٰ كلمة حائرة . يدفع قدميه حتىٰ النهاية البعيدة فيواجه صورة اللبوة الجريحة . يفكر : انها خلفه بالضبط . إنها هناك . ويعود بخطوة واسعة فيلقىٰ ابتسامتها المدببة . . ثم يعود إلىٰ الطرف البعيد حيث يفتح الباب نفسه للضيوف . يمد رأسه ؛ تأتي ذكرىٰ الرقصات ، رائحة الغبار العائم الذي لم يحط بعد ، والسكون الذي يلف كل شيء

باستثناء الجراء الصغيرة اللائ بصرع الكلبة الأم ـ وتموء بخفوت ، اما شرار فبعيد عنها مسافة تقدر بحدود الإطمئنان . . .

ووجد نفسه في مشغله المظلم ، يتلمس طريقه بين الأخشاب ، فقرر الولوج تحت اللحاف لكي يرىٰ الصباح بعد اغماض العين .

جلسوا منذ البارحة فقام الأسمر البدين من مكانه وقعد لصق المرأة محركاً رأسه بطريقة تشبه النقر ، فمه علىٰ فمها . بينما انشغل الآخرون بنقل بعض الأشياء من مكان إلىٰ مكان قريب . ينقر فمها ثم يمسح فمه . ينقر عنقها فتمسح عنقها .

يبدأون بمرحلة اخرىٰ من الهرج وذلك بالانحناء إلىٰ الأسفل . يضحكون بعيون دامعة . يضحكون يضحكون . . . يجمع شاهين قوته في محاولة للوثوب فيفاجأ بالهاوية ويحس انه صغير بحيث لا يستطيع الذهاب إلىٰ العاصفة عند الافواه الفاغرة . ثم يتجمع من جديد كأنه يشرب ، والسبب يعود إلىٰ تعب رحلة القارب . كيف يحدث هذا ؟ . خداها يحمران بينما يترسب الشحم في جزئها الأسفل لكي يكون انقلابها سهلاً إلىٰ الخلف ، وانتهىٰ الأمر لانها نشيطة آخر مرة علىٰ الكرسي الأبيض ، تهتز كالغصن خوفاً من اكمال العمل . ويعود رأسها

twitter @baghdad_library

إلىٰ الخلف مدلية أنفها فوق فتحة الضحك علىٰ أمل أن تتفق مع الآخرين بعـد نظرة إعجاب . فلو كـان الوقت شتـاءً ، والحال معروفاً ، لقـامت إلىٰ الستارة تخلعها بسجيتبن بعدمـا تقشر شيئاً كروياً وتضعه في الجهة المعاكسة للرجل، ولا تحتاج إلىٰ مشاهدة الليل المثقب باضواء السيارات القادمة ، وظهـور مخازن القـطن المحدودبة عندما تسبح في نور فاضح قـرب خريـر حوص المـاء المكسور . . وهي مستعدة للصعود حتىٰ رؤية الشمس .

قام الأسمر البدين عن مكانه . دار الاسمر البدين دورتين فقالت المرأة : أوي . . ما هذا يـا صابـر ؟ . وانتفضت فزعـة حـين رفع قـطة سوداء بـين نعلين . وقـالت المـرأة الأخـرىٰ : أوي . . لا تحصرها يا صابر ، دعها تذهب يا صابر . القطة لا تموء بل تصيح وترفس . .

يقترب الأصلع من الشباك ويرميها إلىٰ الهاوية لكي تنام في الأدغال اليابسة عند طرف الكونكريت . .

ينقـطع الضحـك . ينـظر الجميـع في الـظلمـة السفـلىٰ بتمعن . وتألمت المرأة . يبـدو انها تألمت تقـريباً . يتـألم الرجـل الآخر . يتألم الآخر . ولكن النساء تتألم اكثر بسبب القسوة ، ما عدا الرجل الذي رماها بعدما نظر برجاء إلىٰ شفائها العاجل في تلك الرفسات المتشبثة بالنعلين ، وبعدها يقول أن للقطط سبع

أرواح ، ثم يعود نحو منتصف الغرفة . يدور ويدور ثم يضع رأسه فوق مسند الكرسي فيعطونه سيجاراً ويضحكون . .

لحظات غريبة امام شباكه ، القتهم باهمال علىٰ مرتفع مضيء . يجتمعون لأنهم بحاجة إلىٰ بعضهم ، حاجة الأصلع إلىٰ أخيه كحاجة المرأة إلىٰ الرجل . متناسين القطة الطاوية علىٰ آلامها بانتظار الصحو .

شعر بخطأ الأشياء . كلها خاطئة تقريباً ، غير صحيحة ، تلك التي تحدث في المربع المضيء . . ولكنها أشياء سعيدة ينقل بصره باتجاه التل الكبير حيث البوابات الواسعة لمنزل حلّاب مرتكزة علىٰ شعفات الحشائش الصناعية . ثمة رقع تهتز مشيرة إلىٰ قدم الأرض رغم ضيق الوقت . فصار رأسه يابساً كعلبة ثقاب . . وشعر بأنه موجود منذ أقدم العصور ، او بالأحرى ؛ يشعر أحياناً بأنه زامن معظم الكوارث ، فيعاند علىٰ نزع نفسه منهم . هم . ولكنهم يسحبونه بالضحك المجدي وليس بالضحك النافع . الضحك دائماً . الضحك لىٰ ما لا نهاية . غير أنه لن يذهب إليهم تقريباً ، بل يذهب إلىٰ الزاوية ويمد يده دون تفكير ألىٰ طرف الرداء ثم يهتز بعذاب نادر لأجل تثبيت صورة ما تتكون أثر فك أزرار الصدر اولاً ، فلا يجد غير ترسب الشحم في جزئها الأسفل ، ويتقوس بأقصىٰ امكانيات النحافة ملصقاً خده بالجص حتىٰ السقوط . . . ويفشل .

twitter @baghdad_library

يظل متكوماً في الزاوية ، شاعراً بجفنيه يحكان كفه . . ويستمر الحال حتىٰ لحظة سماعه دبيب الفضة الشفافة علىٰ السفوح ، لحظة تدفق الضوء حينما تعلن الديكة عن طلوع النهار .

منذ عشرين عاماً ، تصعد إليه يومياً : ألا تفطر ؟ . فينزل إلىٰ اللبن وبخار الشاي ، ويسمع نشرات الأخبار الأولىٰ : « زلازل أمريكا اللاتينية . فيضانات الهند . عمليات الفدائيين العرب . محادثات نزع السلاح النووي . قرارات مجلس الأمن . الارهاب العالمي . مخدرات . تجسس . انقلابات . حوادث عنف . مجاعات السود . فضائح سياسية . تمييز عنصري . ارهاب . ارهاب . فساد . . . الخ » يفتح الباب فيجد الأربعاء دون أن يعرف الجمعة ، وذلك لنشاط الضوء بلا غيوم . خسارة فادحة بعد ومضة الاكتشاف ، بأن أسوأ عمل يقوم به الانسان هو ؛ فتح الباب . والضو حساس بلا حدود تقريبية . الأربعاء حزين لأن الصباح مدهون بلون سرة اللحاف إذا ما استثنىٰ وفاة أشجار التين في نهاية قطيفة الطحالب .

كانت الطيور قد هاجرت إلىٰ فيضانات الهند ، وبقي العاجز علىٰ مائدة النمل الأحمر ؛ يحل ضيفاً مجزءً في الثقوب .

إلا أن اختياره كان عفوياً بلا شك . يحسب : الأربعاء هو

اليوم الثاني من الاسبوع لأن الثلاثاء يوم أول . كل شيء يبشر بالضحك تقريباً ، حتىٰ بذور الموسم التي رفعت قشرة الأرض لتحيي جيرانها من الأعشاب الميتة .

النزول . سماع الأخبار . الذهاب إلىٰ بيت شاهين . اللقاء بعالية وهي تدعوه لتدليك قرصة الحشرة . صباح الجمعة ، وليس فجر الأربعاء أبداً ، بعدما رأت وهي تضع صحن اللبن وتدير مفتاح الراديو ، ظلاً خيطياً يتحرك علىٰ الستارة المضاءة بصباح الجمعةفصرخت : يا الهي !! . . أفعىٰ !! . غير أن زهرة التي سمعت انزلاق ابريق الشاي في الغرفة المجاورة ، جربت أن تستمر في النوم ، فجاءتها امها ورفعتها عن السرير ، وهي لا تستطيع الجزم بأن الذي رأته كان ظلاً لأفعىٰ متدلية في ضوء صباح الجمعة .

فالشباك مغلق ، وشقوق السياج مسددة بالجص باستثناء الفتحة الخاصة بتصريف مياه الغسيل . وجد الأثاث مبعثراً ، أثاثها المنتظم دائماً ، حول طبعات أحذية علىٰ اللبن المنداح ، فرفع الستارة باشارة منها . أمسك بالحبل ـ حبل الستارة . يعتقد بأنه الحبل نفسه وليس الأفعىٰ ، فتقول عالية ، واعني مجموعة النساء : يوه !! حسبتها أفعىٰ ؟ ولكنها حبل . ولكنه حبل . ثم ترتب البيت وتدعوه إلىٰ الفطور .

twitter @baghdad_library

تقول عالية : هنا . . الا ترىٰ البقعة الحمراء في فخذي ؟ الا تعرف التدليك ؟ . فيقول : حكيه بالحائط ، حكيه بالحائط . تقول : احك ماذا ؟ . . يوه !! . يقول : الفخذ ، فخذك ، اعني قرصةالحشرة ، اعني البقعة . . حكيه بالحائط .

تقول : يوه ! . . أحك ماذا ؟ . فيقول . ألم تقولي أحك ماذا ؟ . . انها قرصة . يفترض بأي واحد أن يحك قرصته بنفسه لأن عزيزة قالت ، هل رأيت أرملة زوجها علىٰ قيد الحياة ؟ . تمتعض : أفّ ، ابنة القطان ! ماذا تقصد بقيد الحياة ؟ . يقول : نعم ، ماذا تقصد بقيد الحياة ؟ من هي ابنة القطان ؟ . . آه . . لا لا هي لم تقل ذلك ، ولكننا ، أقصد نحن . . نكون أحياناً علىٰ قيد الحياة . تضحك عالية . وعندما تضحك عالية ، لا بد أن يضحك معها من يراها تضحك . يسمعان سعالاً خارج الباب فتسحب ثوبها وتقول : هذا عمك مسعود . فيقول مسعود وهو دائري الوجه طويلة بسبب ذقن العبادة : هل لدينا ضيوف ؟ السلام عليكم . من الضيف ؟ . تقول : انه شاهين . فيتساءل : شاهين ؟؟ ليس لدينا سوىٰ شاهين واحد . شاهين اسم طيرها جارح ، فلا يسمي بهذا الأسم سوىٰ الصياد ، وليس لدينا صياد غير محمود . تقول عالية : صدقت ويقول مسعود : اهلاً بك ، كنت أريد الالتقاء بك ولكني مشغول دائماً وانت رجل نظيف لو تعلمت الصلاة

فقط ، فلا تنجرف مع عواد ، الافضل أن تتعلم الصلاة واليوم جمعة . . . يقول : نعم ، المفروض أن تعلم الصلاة لأن عواداً ينجرف يوم الأربعاء . . هل قلت انها الجمعة ؟ . . ها ها كنت اعتقد انها أربعاء ، فيما بعد . .

مسعود . تقول . أعني تنادي القريب الذي يعرف أن اسمه تحذير في بعض الأحيان بسبب هزة الرأس هذه لذلك لا بد أن يخرج لأنه لا يريد الرد حين يفهم أن مناداته طلب . . فيخرج إلىٰ الجامع بينما تعّود هي إلىٰ قرصة الحشرة .

تقول زهرة أن عواداً في المقبرة ، فيسألها : متىٰ حدث ذلك ؟ يجب أن أتألم . تقول : انه علىٰ قيد الحياة ولكنه ذهب لزيارة المقبرة .

ثمة نساء ، ذكريات نساء تقريباً . نساء ميتات يحتضن أطفالاً موتىٰ تحت المطر وعواصف الغبار ومياه البطيخ المسروق كل يوم بفضل الشموس الحارة المسروقة ايضاً من الاستواء . ليس هناك تل تل بالمعنىٰ الجغرافي ، فالشواهد موجهة صوب الغبار كفقاعات كف متوم إلى جنوب الأكواخ. يحدد ببصره مكان الجدة السمينة آكلة البيض الفاسد ، والصور الغامضة التي تملأ الجوف أحياناً حتىٰ الشعور بضرورة التقيؤ . كانت تأتي كظلال رفيعة نعش أثر نعش ، مربوطة برؤوس مسامير ناتئة .

twitter @baghdad_library

رجال يحملون رجلاً ممداً . كان رجلاً . . أما الآن فمجرد رجل ينزل لأنهم ينزلونه إلىٰ عمر الفقاعة التي تنفجر حين يجب أن تكبر . . وهو رجل مهم . كان ثمة نساء ، ذكريات نساء تقريباً ، في الأرض المفقعة ـ أرض التل الأسود حيث يستخرج الحفارون ألواحاً مسمارية لتستخدم كقواعد لجرار الماء ، بينما ينمو القطر في نهايات الربيع داخل أكواب الفخار المدفونة بعدما تمر عليها الدواب وقد عادت من التلال الجرداء . .

كانوا يصنعون النواح بمساعدة الات الدمع ، مقهورين هناك . يصلون تباعاً كالقطرات ، مسبوقين دائماً بالنساء ذوات الباقات المطاطية ؛ أشكال البامياء والعنصل . متعطرات بالقرنفل الطبيعي وروائح مستخرجة من أندر الأعشاب تصلح لليلة ثلجية بعد الشجار . واحدة بعين السمكة السوداء ، قاتلة . . اما الأخرىٰ فلا يبين وجهها لانها تنظر إلىٰ كلبها الذي يتشمم الطعام والحلوىٰ وباقات المطاط ويلمس الشواهد ثم يبول رافعاً قائمته الخلفية . أين عواد ؟ . توالىٰ مجيء النساء صعوداً من بطن الوادي كخيط أسود بليل ، إذ نادراً ما تهاجر الغربان أسراباً منظمة . خرجن بين الأحجار عبر ضوء الأربعاء المدهون بلون سرة اللحاف إذا ما استثنى وفاة أشجار التين في أقصىٰ قطيفة الطحالب . يوم الجمعة تقريباً . .

جاءت الآنسات بعد العجائز : لون الشقائق ودم

الذبيحة . ثم الذكور : لون اللبن الرائب . ثم الأطفال : لون العيد وأدوات المهرّج .

أجراس معلقة في اعناق حمير من أصل أحسائي . تـركوا فوضىٰ ادوات الشاي والحصران ووسائد الصوف وآثـار طبعات الأحـذيـة عـلى اللبن المنـداح ، وانسـل بعضهم من الـطاقـات واجواف الغرف المظلمة الخاصة بعري النساء وصرر العجائز من الملح السحري وبعض دنانير قرضت أرقامها الفئران . .

يقـولون بـانه نهار مهم ، ولكن اختيـاره كان عفـوياً بـلا شك . فقد نذرت كل امرأة نذراً خاصاً واعتـزمت أن لا تكلم أحداً عدا أفراد القرية وضيوف القرىٰ الأخرىٰ . واحدة نذرت أن تضـرب نعجتها مـائة جلدة ثم تصعـد التل راكضـة وتنـزل متدحرجة ، بعدما كان الليل مُقاماً بالصيام من قبل الأتقيـاء . أعين محمرة وافواه ملثمة .

وفي مثل هذا اليوم ، الجمعة ، توفي عبد المجيد قبل آخر الفيضانات ، وهو رجل مهم . كـان لا يمسك رغيفـاً إلا وصار أرغفة بين أصابعه . يقولون : كـان جميلاً في بعض الأحيـان ، بصـدر عريض يحجب مـاء السـد تحت لحيتـه اللمـاعـة التي لا تزال ، رغم مرور الأيام ، تفوح منها رائحة البقـدونس مخترقـة تراب القبر .

twitter @baghdad_library

وتحول المكان فجأة إلىٰ ملتقىٰ عائلي بين الأحياء والموتىٰ ، وانزوىٰ سليم الراعي ملصقاً قدميه بخرقة غمام يقرأ فيها أشكال نعاج ويعض أصبعه ندماً علىٰ ما فعل بنعجة لم يفرق بينها وبين المرأة . . وتقيأت خديجة من فرط الصعود وهي تلوح له بشالها ، إذ كان ارتفاع التل تسعين نفس فـانية عـلىٰ المدرج ، وارتفعت أنّات ودعوات . . . فأين عواد ؟ .

هكذا نظر إلىٰ نفسه امام عدد هائل من الرؤوس والعيون الرمادية المطفأة ، وشعر بانه يمتد في أزمنة غـابرة أو قـادمة ، في وجوه بيضاء وسوداء وصفراء خلف تـلال الهنود الحمـر وأحزان سكـان التبت الـزرقـاء ، وفي وجـوه تحمــل مـزيـج وجهـين ؛ الخلاسيين ، وهو سيد هذه الخرائب الناطقة بالضحك : اعراس الكرة الأرضية لا أعراس زحل ولا نبتـون . الأرض وحدهـا ، الأرض المثقبـة بالمـراحيض . وهو عـلى كل شيء . . كـل شيء تقريباً .

سمع قائلاً يقول : اغسل قدميك بعد نهار شـاق سيزول عنك التعب ، فلن تجد في هذه البقعة ـ صوت يقول : اتـركني وشأني ـ غير وسادتك . . وإذا شئت استخدمها بمثـابة زوجـة . وشهـد رغـوة الثــدي خلف قميص أسـود ، مستسلماً لمجــرىٰ المخاط ، في ذلك الانغلاق ، امرأة ما تحول وجههـا بالكـدّ إلىٰ

صخرة قوقعيّة التعبير بعد الموسم الثالث من تاريخ دفن عبد المجيد حين حزنت الأنهار فحدث الفيضان ، إذ أدلت جديلتها في مكان وقالت : افعل بي ما تشاء ، فلن أعترض . وكانت لحيته المعطرة تهتز تحت التراب . تبين له أن أسمها ؛ عزيزة ، وانها تغيب وتظهر حسب حركة الحشد الأرجوجية . . تغيب وتظهر . .

لا بد أن أعود إلىٰ بعض أيام عبد المجيد لأن الجميع يعودون ، عندما كنت هناك أكتب عنهم . يحدثون بعضهم عن وقائع موته التي يعرفها كل شخص هنا بالتفصيل المضجر أيام جنون القمر وانطفاء نبضة بعد أن تأخر شهوراً في نوبات قيء وجولات رجم ليلية . كان حلّاب يصبر نفسه بأكل لحم الثعالب مع انها من فصيلة الكلاب ، ولا بأس فهي لا تميت مثل سم الفئران الذي دُسَّ في طعام عبد المجيد فلم يقض فوراً بل تحول إلىٰ خوّاف من القمر لاسيما في منتصفات شهور الصيف ، يخرج رأسه من شق حائط مطل علىٰ الطريق ليتفحص سيقان المارة وسيتخرج غاية المشي في الارتفاع أو السرعة أو دحرجة الحصىٰ .

وفي صباح إحدىٰ الجمعات وجدوه متخشباً يتدلىٰ رأسه عبر الصدع وقد عفره تراب العجلات التي حملت البطيخ إلىٰ

twitter @baghdad_library

المدينة . لم يمت تقريباً . لم يمت مباشرة ، لكن أعصابه اضطربت ، وكان هياجه يشتد في الليالي المقمرة فيمد رأسه من ثلمات الحيطان ويرجم المارين بالحجارة ثم يعود إلىٰ سياج بيته ليرفعه بلبنات جديدة ويغرز قطع الزجاج وأغصان النباتات الشوكية في أعلىٰ السياج ، حتىٰ غاب البيت ومحتوياته عن الانظار .

كان الجميع يتساءلون باستثناء شاهين الذي لا يعرف التفاصيل : « ما اذي حدث لعبد المجيد ؟ » فيكتمون الأمر عن الغرباء ، ولكن الحكاية انتشرت بجهود النمّامين بحيث تجاوزت سبع قرىٰ ممتدة مع النهر . . والمهم أنهم وجدوه متخشباً وليس ميتاً تقريباً . وبعد مرور عام فلا تقبل النفوس أن تصدق موته رغم أن الجميع ألقوا نظرة أخيرة علىٰ جثمانه المهاب .

كان حلّاب في تلك الأثناء يحفر أرض مضيفة بقلق الخطوات ويجمع مساعديه من تجار القطن ويروّض نفسه علىٰ تعطيل الذاكرة لكي يصبح ذلك الأمر من واجباته الاجتماعية . تلك الليلة العطنة ، لن تنزلق عن جلده بسلام ، لحظات الانتظار الحاسم علىٰ القطيفة ، فيلتفت بخفة ؛ المرآة خلفه . . ثم تصير أمامة : « هل يصلح هذا الوجه للحب ؟ » . يسأل نفسه بوقار ويبتسم مغيراً شكل عينيه غير مصدق تلك الحكاية المعروفة

عنه، من أنه لم يرَ النور الا بعد خمس سنوات من تاريخ ميلاده ، حيث كانت عيناه ملتحمتين كقبتين من اللحم الشفاف يتحرك تحتهما شيء حي ، وقد شبههما أحد العّطارين ، بفأرتين في كيس . ولكن احدىٰ العجائز ، مجرد مغامرة ، فتحت قبتيه بسكين البصل فرأىٰ الأشياء مركبة عديمة اللون لأول مرة ، وقد أثرت الرؤية الاولىٰ علىٰ فهمه للأشياء فيما بعد . تلك القصة إذن . كان ينظر في المرآة وقد صار أنفه ممطوطاً وملمس أنفه رؤيا . . وعيناه مجرد جرحين . لكنه قام بواجبه عند وفاة عبد المجيد ، فأشرف بنفسه علىٰ توزيع اللحم ـ لحم الثور الذي ذبحه فرأىٰ عيون الصغار لامعة كعيون الجرذان الخائفة فتقزز من مخاطهم الأخضر ، وعاد إلىٰ حافة الموقد يمط خصيتيه بلا شعور منه وينظر حوله خشية العقارب ويفكر بذبح ثور آخر . . ثم إلىٰ المرآة : « هل يصلح هذا الوجه للحب ؟ » .

يقولون أنه أرتعد علىٰ صوت رصاصتين في باب مضيفة وبحث عن مكان للاختباء فلم يجد غير الحصير يلفه في الزاوية . . وظل كذلك حتىٰ أدركه شعبان بعدما سمع الطلقتين فدفع الباب منادياً : « ايها المختار . . . يا مختار . » فردت لفة الحصير : « من ؟ شعبان ؟ أنا هنا فأين أنت ؟ » ويقول صديقه : « اخرج » ويريه ثقبين في قلب مرسوم بطباشير الأطفال

twitter @baghdad_library

على الباب . « هـذه المرة في قلب البـاب . . والمرة القـادمة في قلبك . » .

أقص الوقائع ولا أدري . انها لأكاذيب تأتي بها الروايات الواقعية عادة . ربما لم يكن الأمر صحيحـاً ، وربمـا العكس ، غير انه مبالغ فيه ، لأن شاهيناً فهمه هكـذا من الافواه القـريبة وهو ينظر إلىٰ نقطة واحدة ؛ امرأة ما ، تجاهد في حركاتها لإفهام الآخـرين وقد تحـول وجهها بـالكد إلىٰ صخـرة قوقعيـة فـأدلت جديلتها في مكان ، وقالت : افعل ما تشاء فلن أعترض . بينما كانت لحيته تهتز تحت التراب . تبـين له أن أكـثر الأشياء عـذاباً تلك التي تتجه مباشرة إلىٰ الموضوع الذي يعذب . ولكنه يقسّم عذاباته أمام تعدد المواضيع كايجـاد نوع من البـدائل لتلك التي يبعثهـا المحتشدون وتتحملهـا التلال قـريبـاً من الأفق ، هبـوط الذكريات البليلة كوحدة مفككة في أشـد حالات الغـربة قـرب الشـواهد ، عنـدما يلوذ لكي ينتـظر وصـولهـا وهـو يعـرف أنها تضاحك غيره ، أو تشرح لغيره وجهة نظرها . . ولكن لا شيء يعادل استواء حاجبيها تقريباً ، كتعبير عن الذنب لحظة البكاء : رأىٰ الدمع أبعد المياه عنه ، وانكسارها عندما شعر انه انتصر إن لم تقدم له نوعاً من المتعـة لانها تعرف كيف تميّـز مشيته ، علىٰ الأقل ، عندما تراقب الهابطين ، ويشعر بها تراقبه فيجاهد لكي لا تذهب قدماه إلىٰ الجانبين . لم يكن يعرف مـاذا سيفعل عنـد

حضورها ، حيث تطير اللغة ويظل الاعتراف الأول ، البوح الأول ، وسيلة مغلوطة في وضع خط النهاية . .

جاءت متأخرة وجلست أمامه بعد أن قدم لها صخرة امرأة صغيرة اعطتهُ شعوراً بضيق الملابس . شعرها التبني المجدول وبياض ساقيها وجهها المعذب .

كانت تثرثر بكل اتجاه لكي تستقطب بتلك الجلبة أبصار الآخرين وقد ابتدأ التعاطف بحنان خجول ظهر أنه مساوي لجميع الأحلام الممكنة عن عالم الرجولة ، وقد جاهد لأجل البلوغ قبل الوقت كدليل علىٰ التعب من مواصلة الخيال ، مع أن المرء ينكر بداياته بعدما يبلغ . . ولكن البداية تبقىٰ اعظم خطوة تقريباً من بين الخطوات الفاشلة التالية .

كان الأمر بالنسبة له طلباً للخلاص من وضع متعب لكي يسقط في وضع أكثر تعباً . فبادر ، ليس بدافع الحب النقي كما يحلو للبعض أن يسميه ، وانما بدافع الاعجاب بنزوعها إلىٰ اللامبالاة ، وقد حدس خطأ بأنها ستقدم له النسيان اللذيذ للخيال الذي لا يتحقق . وهكذا فانه كان شجاعاً تقريباً لحظة تقديم الصخرة ودعوتها للجلوس ، لكي يعلن عن ذكورته بكلمة (. . . . .) في اذنها . وأن همه الوحيد . . يقول : أتدرين . . لذلك فإن هذه التجاعيد . . أتدرين سأموت في

twitter @baghdad_library

الثلاثين أو اتعرض لأزمة . وفق تصنيف خاص يعطيه حجماً غريباً مع تناسي وجود الآخرين وظروف تشكيل عوامل التعرية الطبيعية وغياب المعرفة عن وقائع وفاة عبد المجيد ، مما يحمل في التفاصيل مشاعر الاحترام المزيّف لكي يظهر بالمظهر اللائق وفق مفهومه الخاص : أن يدسَّ يديه بين فخذيها كاعتراف يمثل العاطفة . ولكن الأمر بعكس ما يتمنىٰ وفق شروط النظافة الاجتماعية التي اعرب عنها فأشارت إليه كمنبع للأخلاق . .

ألا أنه حلم في الليلة السابقة بشفتيها المطبقتين وعينيها الشبيهتين بعيني أرنب أليف . أن يكتب لها عشر قصاصات : « انك مغرية لأنني معجب ببكائك . . » و « كلما حاولت النوم رأيتك محتلة فراشي فأنام علىٰ الأرض . » و « بما أنني جائع . . إذن أريد أن آكلك يا ضفدعة . » و « اعتقد بأنني احبك أحياناً . » . . الخ . انها اكثر الرسائل الغرامية غموضاً للتعبير عن الصراحة ، ولذلك اختار وقت ذهابها إلىٰ البيت لكي يسبقها إلىٰ السدرة متذرعاً بشم ترب الجرذان ، ويسلمها أحد القصاصات المطوية ، فتفزع : إذا كانت من عواد فلن آخذها . وتدسها في جيبها ثم تصعد راكضة كتف الوادي . . .

كان ينتظر النتائج متخيلاً طريقة ردها في الغد ، خائفاً من الغد ، وراغباً في أن يأتي قبل الوقت المقرر ـ أو لا يأتي أبداً ،

بافتراض كارثة تؤدي إلىٰ موته أو موتها ، مع ذلك ، فإن كان الأمر متعلقاً بعشرة أعوام فإنها لا بد آتية ولا بد أن تقترب كلحظة في حالة حصولها . . فلا يمكن قياس مقدار العذاب ؛ عذاب انتظار الغد بدافع الرغبة في نسيانه أو التقليل من أهميته عند حصول المطلوب ، إذا لم يعتبر ذلك العذاب طبيعياً ولذيذاً بعد أن يمر .

فِرحة جاحظة تملأ المكان . وجسده يمتطي الهواء ، ويتوق للخروج من ملابسه أمام صفقة من الضحك ، فيزفر لتبرد أنفاسه . . وتدخله الأشواك ، البيوت ، أواني النحاس ، التلال . . أما الرجل الملتحمي فيأكله العدم ، لكن رائحة البقدونس تفوح من لحيته عبر التراب . والأرض قديمة ، شيء مخيف . غير أنها يمكن أن تكون مليئة بالمسرات الشبيهة بقصاصات الحب .

شجرة السدر فقدت القدرة علىٰ الامتصاص وتمثيل الغذاء ، وعصفور صغير سقط من عشه وتحول إلىٰ طعام للنمل الأحمر . بحث في الوجوه عندما عاد إلىٰ التل الأسود عن جواب ، ولكنها كانت خالية من التعبير : رجل عزيز مات بطعنة خنجر أو بسم الفئران وهو لا يستحق إلا الخير . . وتجمع الناس في هول عظيم . تأتي ذبابة خضراء فتقطع الفكرة وتجبره علىٰ متابعة رقصتها .

twitter @baghdad_library

عـواد يهتم بجمـال الأشيـاء لأن نهيق الحمـار يبعث فيـه النشوة ، كذلك الامتداد الجدب لجنوب التلال .

السماء بغيوم وبدون غيوم . القرية في هذا المكان وليس في مكان آخر . يحدثـه عن جدوىٰ عـلاقات سـرّية بـين الخطوط والظلال ويتأمل خارطة من البول علىٰ الأغطية المنشورة ، صديقه يقول أن الجواريب الصغيرة تعني شيئاً ، أما الطويلة فتعني شيئاً آخر .

وهو شاهين ، يحدق في الأشياء فحسب دون أن يبصرهـا ويسمع أصواتـاً دون أن يميزهـا . الأرض قديمـة شيء مخيف . عـواد يقول : يمكن أن يحب الـرجل اكـثر من مـرة في حـين لا تستطيع المرأة ذلك . . الأرضَ قديمة . السحلية تقف على جذع شجـرة : هـذا فـأل سيء . هـل تتمكن المــرأة من أن تحب مرتين ؟ . هذا فأل سيء . يقنعك عواد بأن الأشياء الصلبة اكثر طراوة من الأشياء الطرية نفسها ولكنه يخاف ثقوب القوارض في سـاقية مهجـورة فيبحث عن كذبـة مؤقتة تخلصـه من مسؤوليـة مؤقتـة ، ويجد الكـذبة بسهـولة ثم يـدخل المضيف فيقـولون : اصبحت سميناً . ويخرج منـه فيقولـون ، يا لـك من نحيف !! وصمت حتىٰ أصاب النخر أسنانه ونبتت الطحالب في زوايا فمه

وفقد الرغبة في الأكل . . وفي مرة قادمة : كيف يكون الرد ؟ .

لستَ شجاعاً . . يقول : اوه بماذا تفكر ؟ ويفرد أصابعه أمام وجهه ـ الطفل جائع لقد نفدت علبة الحليب .

أرضعيه من ثديك . انه ناشف يا حبيبي ـ هكذا من بين الحشد بعد أن يجلس ساعة علىٰ صخرة منفردة يفكر في صورة البيت الذي سيبنيه في المستقبل قائماً علىٰ دعامات رفيعة في أوراق المشاريع ، ولكنها صورة قابلة للتحوير ما عدا الشرفة المطلة على البراري حيث يشرب القهوة بالحليب ويتحدث عن امكانية القيام بجولة خلف التلال ـ لكي يهيء قلبه للخفقات بعد أن يشير إليها فيتبعه كعب حذائها الابري ويدخلان في زقاق فيشير : هذا بيتنا يا حبيبتي . انه جميل يا حبيبي . وتدور ضاحكة وتطوح بحقيبة اليد . انظري صورة اللبوة الجريحة ، وفي الجدار المقابل لوحة لعواد ترمز إلىٰ خمول الأجساد في ظهيرة عراقية قائظة . رائع . وسينحدر إلىٰ السوق لجلب البقول والخضار فيجد أن البنايات تنمو بينها ينشف الحليب . . ويزداد الضحك فترتمي علىٰ المقعد طافرة الدموع ـ ويجلس في الحشد علىٰ صغرة طويلة مدببة إلى جانب شيخ ذكّره بشهور الصمت الطويلة التي قضاها معلقاً علىٰ الرف ، يحدّق في عشبة اختارها بصره من بين أعشاب كثيرة يابسة . كانت عيناه تلتمعان بلا سأم تقريباً . يفرد سبحته مبتدئاً

twitter @baghdad_library

بخرزة الشاهد ، ويعزل الخزر الصغير زوجاً زوجاً ثم تنتهي فيقلبها إلىٰ الشاهد مرة أخرىٰ .

يشعر شاهين بانتقال الشيخوخة عبر المقعد الصلب ، وأراد أن يقفز ليثبت نشاطه ، لكنه كان موحلاً كرقعة لا تخرج عن حدود المكان .

صاح صائح : افسحوا الطريق لحلّاب . . جاء حلّاب ، افسحوا الطريق . . ابتعدوا . وحاول أن ينهض ليرىٰ الذي سمع عنه، والذي طالما تأمل بيته الجصي المحاط بحدائق الآس والاعشاب الصناعية فوق اعلىٰ تل . كان الحشد ينفضّ عن مكان ليتجمع في مكان آخر .

أراد النهوض ففشل .

يرىٰ أن الحشد قديم وقد حدث مثله في العام الماضي والذي قبل الماضي وسيحدث أيضاً في العام القادم .

تتهدم جدران وتقام محلها جدران أخرىٰ . يموت أشخاص فيأتي أشخاص بدلهم . أراد النهوض ففشل . حكاية الغجرية التي تحولت إلىٰ قط كانت مجرد خرافة . وشجيرة الشوك التي اثمرت برتقالاً على قبر رجل صالح ، خرافة ايضاً . يقول : لا أصدق تقريباً . إن الحقيقة القائمة هي هذا الحشد ؛ فم عند

فم ، تـلامس خفي لأطراف الأصـابـع ، جسـد يلمس ليـونـه جسـد ، أضـلاع تـدخـل في أضــلاع ، امتعـاض من بعض الانفاس ، استنشاق ، حب . . . عـدي تحت كذبـة الملابس ، كلمات مصنوعـة منذ زمن بعيـد ، بشر ، أناس ، آخــرون ، رجال ونساء . . .

أما الحقيقة الأخرىٰ : قدم أبيه التي خاط شقوقها بالابرة العادية . أراد أن ينهض ففشـل . انه بعيـد تقريبـاً . بعيد ولا يعـرف السر . محض حركـات وأصوات وروائـح تبـدو ثـابتـة ومحطمة كالقسم الأخير للبـوة الجريحـة . حطام كـرسي . نجدة تصدر عن أسفل القصبة الهوائية ، عن قعر العصور المسلحة . لكن الـذي يتحرك فقط ، هـذا الحيوان الصغـير النـابض بـين الأضلاع ، تلك الدقات الرتيبة التي توشك علىٰ الانتهاء بعد كل دقة قادمـة . يقول : كيف يكـون همي . . ؟ . مجرد سؤال . . فأين عواد ؟ . . نظرة جادة ؛ رجال لا يموتون وجدران لا تنهار تقريباً . يقول له الشيخ : انه يبحث عنك . فأراد النهوض عبر فيضانات النهرونقصانه في أواخر الصيوف . . . ففشل . يقـول انه سينهض في يوم ما . باتجاه خيمة الغجرية التي تحولت إلىٰ قط ثم تلفت بفعـل المطر والشمــوس الحـارة المســروقـة من خط الاستـواء . لقد انحـدرت بالأمس ، هـذه الغجريـة بـالـذات وليست عزيزة ولا عالية ، عن قرية شمالية مع مجرىٰ النهر لكي

twitter @baghdad_library

تتحـول إلىٰ قط ، هنا بـالأخص ، في نهاية رحلتهـا السعيـدة . كانت تجدد نفسها بالحلم . نعم ، بالحلم يتجدد كـل شيء . . كانت مسرورة باثاثها الرث لاسيما بالمرآة وجمرات الموقد والقمـر الـذي يطل من الشق . أعني : خـروق الجـواسيس والـوسـادة المتسخة ، والرجل الجديد دائماً . .

أقول لكم : كان العالم طرياً في البدء ، ولكنه هوىٰ علىٰ رأس مثقب ، بـالأخص ؛ فوق فتحـات الأسلحة . . . يقـول الشيـخ : انه يبحث عنـك ، حـلّاب يبحث عنـك . وأراد أن ينهض ففشل .

رآهـا مهملة في الصفوف الأخيـرة ، وهي هـاجـر ، فـلا يعـرف كيف يقـول : أمي . كـانت تشيـخ اكـثر عنـد حلول المناسبات وتحتجـز في قلبها دمـوعاً مؤجلة ، وتبتسم لـه ، تلّوح لـه ، تحييه قـائلة : ولدي . وتعني ؛ ابنهـا شاهـين . تبتسم ، تبتسم حتىٰ درجة الضحك بطريقة نفخ الأنف . . وينقل بصره نحو العراء لانه لا يحتمل صدق تلك الابتسامة ، ولا حنان تلك الاشارة ، ولا الذوبان العاطفي . يرىٰ الأحجار في أقصىٰ النهاية علىٰ حافة المهوىٰ مرة اخرىٰ ، يريد إسقاط الأحجار لكي يـراها تنقسم لىٰ غجر يتين ، إحداهما تحول نفسها إلىٰ قط بعدما كانت تحفظ نمـطاً واحداً من الغنـاء ، تلك الأغاني التي تتحـدث عن معنىٰ الحياكة ، في الأصل ؛ اغنية واحدة .

تأتي رائحةشواء فيرفع بصره نحو العمود الذي يقول : أنا حلّاب أما سمعت عني ؟ . . لماذا لا يجيب هل هو أخرس ؟ . يقول شعبان : ليس أخرسَ ، ولكنه أبلُه . يقول العمود : عندما تنتهي جولتنا . . خذه إلىٰ البيت ياشعبان . فتندفع هاجر : لن تأخذه إلىٰ اي مكان يا شعبان . يقول العمود بحدة : لا تسمعها . . اسمعني أنا ، يقول شاهين : أين عواد ؟ . وينزل السفح راكضاً . . .

كان عواد منطرحاً علىٰ الشاطىء مسلّماً سمعه لحفيف الماء وتكسر الامواج المغل في الرقة ، متأملاً بياض الأفق الممتد حتىٰ ابرة الجبل ، حيث يزحف الصفصاف حاكاً بأغصانه نهايات الصخور ، كاسراً الهواء المحمل بذرات واخزة . يرسم صورة علىٰ الرمل ، خطوط بعمق أصابع الكف ، او بعمق اللوعة نفسها ، يخاطبها ، تلك التي تستشعر مناجم الذهب في البواطن . يحفر الأسم أحياناً : عزيزة . ثم ينكس الرأس فوق قميصه المخلوع ، ويتذكر عندما يدخل اصبعه في ثقب قرب الجيب قميصها المثقوب كموضة ؟ تغلبه بلا صراع ولا شفقة . هذه النظرة الحزينة بالذات ، الرجاء العادي لانثىٰ الرجل . تغلبه ـ القميص . تغلبه ـ نافذتها الخضراء تغلبه ـ الخيط القطني الدائم . . . الحديث ـ حديثهما الذي صار رتيباً .

الحياة علىٰ الشاطىء صامتة ، خاصة ما عدا هديل

twitter @baghdad_library

الفاختة الذي يعبر الماء ، وجهاد النوارس لاصطياد الأسماك الصغيرة .

يتلفت فيرىٰ الخطوط التي هي عزيزة ويغرق في نقيق ايام عاشها راكضاً علىٰ أطراف فسح الرمل ، بعد التعب ، يلقي جسده ويشعر بأنه مشابه لشوكة نبتت صدفة .

نوقظه نشوة الدفء الأرضي فيصعد نحو البعوض منادياً : عزيزة . يهتز الصدىٰ فوق تكسر الأمواج ، يهتز الجبل : عزيزة زة زة زة . . عزيزة زة زة زة زة زة . . . ويسقط علىٰ أطرافه مخاطباً خطوط الوجه بصيغة التذكر . أساريرها تفتت خيوط نسيج القصاص . الوجه المدبب الحزين . تلك الابتسامة الملصقة بالحس المحدد للخط الخارجي .

خط الرأس الرملي . سيولة الجفن واعتبارات شباكها الأخضر والقميص المثقوب ، والشعر المجدول كرفة خروف يذبح عند حدود التحية الكامنة في العينين النادرتين ، والمسافة بين الانف والشفة .

يلتصق اكثر ـ ذروة الحب والاحتضار . الخد يضيء بشيء من البلاهة والفتور ، ماء العجين .

يرسل كفه ليسحب المومياء من الرأس . . ويبدأ بقبلة رملية طويلة ، قبلة واخزة وخانقة . . تقترب لحظة حاسمة

فينتـزع نفسه من الفـراغ المخصص لـه في الهـواء الـذي خلف ظهره ، ويتفتت إلىٰ حبات رمل غامراً خطها الخارجي ، تـاركاً شـاغـر الجسـد : : هنـا كـان عـواد . . . . في النهر . .

عندما عادت في الساعة العاشـرة كوقت محتمـل لرجـوعه التقتة علىٰ الكتف فسـألهـا عن عـوّاد ، وسألتـه عن عواد . ثم تذكر قصاصة دعوة العاطفة . ولكي يجنب نفسه أزمة المواجهـة حتىٰ يألف الجو مثلما يدخل الظلام منذ عشرين سنة ثم يألفه بعد دقيقة بحيث يمكن رؤية اشباح الأشياء تقريباً بعدما كانت سوداء كالظلام نفسه .

وهي ؛ عزيزة ، امرأة دائمة الخضرة ، منكسة الرأس فلا يستطيع النظر إليها مباشرة لكي يعلم إن كانت تنظر إليه مباشرة أو تحسب حساباً للرد .

تستدير ماشية أمامه وهي منكسة الرأس أحيـاناً ، فينـظر إلىٰ كتفيها النازلـين . تميل بـرأسها محـاولة تنـظيم المشي كأنها لم تقرأ : « اعتقد بأنني أحبك أحياناً . . » .

وتحت وطأة الإحساس بضياع الجهود وسخافة التوقعات ، ظهـرت له الحـالة بـأهمية القتـل ؛ طويلة في حسـاباتـالهواجس وتخديش الذنب ، لكنها فاجأته ، وهي تفاجيء أحيناً ، بنفضة

twitter @baghdad_library

رأس ، وظهـر وجهها قـرب وجهه مبـاشرة لكي تقـول : أراك مؤدباً . فيجيبها دون أن يحس بالمكر : أشعر بالذنب . فتقول : أبداً . . لا داعي .

اعتقـد بانـه أبصر إشاراتهـا التي استعـانت بهـا لتقـريب الفكـرة ، ثم واصلت الانتباه إلىٰ تنـظيم خطواتهـا كأنها نسيت وجوده خلفها ، رغم أنـه يعرف بـأنها تحس به كـما تحس بنقش غريب علىٰ ظهر قميصها إذ ترتديه لأول مرة . ومع أن حوارهـا القصير كان شبيهاً بالاشفاق الذي يعطيها مظهر التعقـل ، فقد منحه قلقاً واطمئناناً في آن واحد .

ولكنهـا انكرت القصـاصـة ورضيت في نفس الـوقت أن ينفرد بها في الممر بخجل أصبح سمة ملاصقة له معها .

واعتقـدت بأنـه سيحدثهـا عن قدراتـه في الغطس وفهم الآخـرين ، حيث يكفي ذلـك لتخـريب المشـروع انطلاقـاً من تصوره حول فهمها ، بأنها تختلـف عن الاخريات تقريباً .

مجازفة الإحـراج ، معززة بعتمـة الممر وهي مـوجودة إلىٰ جـواره ، يكـاد أن يلمسهـا كملكـة من ملكـات الجن ، بقـدر إحساسه أن شيئاً ما يموت فيه عند حضور الآخرين .

يلتقط حصاة صغيرة ويضعها في حذائه فتقول : لماذا ؟ .

يجيب : لا أدري ، ربما أرتاح . ويقول : هل تذهب إلىٰ الجدول ؟ . فيجيبها : نعم أذهب إلىٰ الجدول .

لا يدري كيف وجدها هناك تقطب حاجبيها قرب الجدول وتضحك فيشعر أن اسمه : تعب .

وتكلمه بسعادة محيرة فيتمنىٰ أن تكون عضواً أليماً فيقتصه ليرىٰ بياض العظام . لكنها ؛ عزيزة ، محض حكاية قديمة من حكايات دوائر النعمان ، احساس بنهاية الرف والانتصاب الدافىء تحت الغطاء . . .

توقعت أن يحدثها عن شعوره بالتفاهة وأفضلية الموت ، وحسبته يفكر جاداً بوضع حدّ لتنفسه ، لذلك عصرت رأسها لكي تفلح في اسقائه قناعة الرضىٰ والقبول بالحد الأدنىٰ ، وتناضل لتحويل عناصر التعب إلىٰ بريق حتىٰ بدا لها بأنه مقتنع ولكنه غير فاهم ، فازداد حماسها حدّ الضحك من طيران القبرة اللولبي ، وهي علىٰ وشك أن تغير فكرته السوداء عن حالة الجو من حيث الحرارة والرطوبة والامطار والضغط الجوي والكثافة السكانية حتىٰ الزوايا الخاصة المظللة بشجيرات الدفلىٰ ، لتبثه آهاتها وتنساه .

وصار على يقين تقريبي بانها تدهن جفنيها بلون كرزي وأن بعض ثيابها مشتراه من محلات الأطفال . . نزولاً إلىٰ حذاء

twitter @baghdad_library

الـريـاضـة ؛ يخب علىٰ اسفلت القنـطرة المرقعـة بصفـائـح دهن الراعي .

كان بامكانه رؤية الماء عبر بعض الثقوب غـير أنه فضّـل النظر مباشرة نحو حافة الجدول ؛ ثمـة طيور بيضاء تلقط الرز المنحدر مع سواقي الاستحمام وقـد تخططت الحـافة بميـاه رغوة الصابون . أعطاه الطين المغطىٰ بالطحالب شعوراً غامضاً بأنـه قد يكون مـرتفعاً أحيـاناً ، وأن القنـطرة قد تسقط فـوق ثقوب أحجار ملقاة من قبل المارة كأفواه مستنجدة في الطين بجوار علب البيرة . . ثم يجلس بعد العبور علىٰ إطار سيارة .

تنـاديه : شـاهين ، انـظر في عينيّ . ويتطلع بسـرعة ثم تنزلق عيناه إلىٰ الأرض ويدفن وجهه صائحا بمرارة : لا أقدر . . لا أقدر . فتسأله ببرود المنتصر : لماذا لا . . ؟ وهي تعلم أن فـي عينيها ضوءً أخافه . فيقوم بهدوء ويتسلل علىٰ القنطرة صاعداً ، ويسمع صوتها يناديه : ساهين ارجع . . شاهين . . .

ويذهب ليطوف غرف المنزل بحركة مغزلية حذرة ، رافعاً بصـره ببطء شديـد مع صعـود السلم فيبصر ظـلالاً لكـائنـات تنزل ؛ أرواح تمائم الشقوق . خـطوة إلىٰ الأمام، خـطوتان إلىٰ الخلف . . مخافة ان يجد الذي يبحث عنه . صورة عين ضبابية غير مفهومة . وتقول : « انظر في عينيّ . ويصيح بين الجدران :

لا أقدر لا أقدر . . لا أقدر . فتجيبه الجدران مهتزة : لا أقدر در در . . .

أقدر دردردر . . .

مع أنه كان ينتظر شيئاً نادراً لا حدَ له ، ففاجأه من حيث لا يتوقع أن يأتي قبل سنة ، فجاء . أتىٰ . حضر ، وهو الذي يخاف التجارب التي لا تأتي من المغامرة . يقول أنه جاء مرعباً لا يشبه الصورة المرسومة عنه في الرأس . ولمس اللذة المرعبة للعتيق بلا مسطرة ، كذلك اللذة المرعبة لـذهبيّ العين ؛ حارة قاحلة كحطام القمح والروائح النفاذة المنتقاة من أنواع فطر الفخار . وهي ، هـذه المذابح الصفراء التي نادراً ما تصل إلى درجة القتل ، تنقل خلال السطوح رعدة إلىٰ يديه لحظة اللمس ، بحيث يفقد وسائل التعبير باستثناء القفز والصراخ : لا أقدر در در در . . . .

ويرىٰ عينيها الـذهبيتين بعين فتحت في مصفعته . لو يواجهها . يقول : لو أواجهها مثلاً . في صحراء خالية من الأثاث فتقتله أو يقتلها . فرق كبير بين أن يموت وبين أن تميته . إذن لا فرق تقريباً لانها ستكون عزلاء ويكون أعزلَ عدا سلاح العض . وينسىٰ الأخطاء والرغبة وغبار البسط العتيقة وجيوب الجدران وعلب النقود ، في وضع مجرد أمام عينيها اللتين تتجهان

twitter @baghdad_library

إلىٰ عينيه ، مستدعياً تمارين الصمت وقوة البشر الذين نسيهم في الموقع والحظ ، ولكنه سيكتشف فيما بعد بأنهم يرفعون قدميه لكي يمشي ، ليس الحظ بالضبط ، بل السطوة وليس القوة المصنفة ضمن جدول الإحتمال .

يلتفت بسرعة إلىٰ الخلف ليراها بعين فتحت في مصفعته ولكنه يرىٰ شخصاً آخر يشبهه ، ويقف بصدد إحتضانه ليتحد به ويخدشه . يذكر مرة كرهه .

أذكر مرة كرهته . وهو يستشف ثوب امرأة وقفت في الباب فرأىٰ استدارة فخذيها . كانت تطلب عوناً من أبيه ضد حلّاب . أما الآن فسوف تنبثق له من كرات الصوف وسيحتار في اي وضع يكون ؟ لأن الاختيار يقسم الروح ، فإن خيّر بين شيئين فسيختارهما معاً .

ويقوم المرء بأسوأ الاعمال أحياناً : أن يفتح باباً فيجد الأربعاء . ويُفتح الباب فيتغير الفضاء ، ويصعد لصق الحائط علىٰ رؤوس أصابعه .

طلعت العجائز من الوديان ، لحظة لمس التين النائم ، ملبية دعوة هاجر بمناسبة خروج ابنها إلىٰ الناس لأول مرة ، كما طلعت من قبل لرؤية الصبي العجيب ، بشعره الذهبي الممشط وهو يبتسم ساعة مولده لدائرة الوجوه المجعدة ويجزّ خصل

الشيب ، وقد صحن بصوت وا . « اسمه محمـود !! أليس كذلك ؟ » وهكذا كان . . .

بعدما صار البيت نهباً لحركة دائبة ، أجبرت هـاجر علىٰ نزع الحداد تحت تأثير الخجل واللوم بحجة أن البيت لم يعد خالياً من صوت الرجل ، فقد حل شاهين محل أبيه وسيقوم باتباع الأثر الضخم ابتداء من العتبة فالوادي فبراري الأرانب ، وهو يحمل البندقية ذاتها التي وجدت مدفونة بعد فقدان محمود بثلاثة أيام ، وكانت معلمة بقطرات دم أسود لم يُعرف ما إذا كـان دمه أم دم أرنب ؟

وحين خرجت من غرفة نومها صعب التعرف عليها لأنها بدت امرأة اخرىٰ في عيون المـدعوات ، بعـدما دلكت وجههـا ببلورات الشبّ لغرض إزالة التجاعيد ، ولبست ملفـع الحريـر الأحمـر وغـطاء الـرأس المنمنم ، وقسمت نفسهـا بحـزام فضي عريض لاثبات فعالية الخصر ، فهتفن بصوت واحد : ياه !! لم يبق إلاَّ العـريس . ولكنها تلمست قـلادة سن الـذئب بخجـل لتذكرهن بها .

تسـاءلت العيون عن صـاحب الشرف بهـذه الـدعـوة ، فصعدت هاجر مصطحبة امرأة اخرىٰ ، كان اسمها زهور عـلىٰ الأغلب ، أو أي اسم آخـر من فصيلة اعشـاب الحـدائق ،

twitter @baghdad_library

فوجدتاه يقفز باتجاه السقف المنخفض في محاولة لـطبع كفـه علىٰ السخام .

فصاحت به : توقف . فلم يعرفها ، واستمر في التجريب حتىٰ أقعدته بالقوة قائلة إنها هاجر ، وهو ابنهـا لأن للأبن أمـاً واحدة . ولكن قد يكون للأم عدة أولاد أحيانـاً . وتقول تلك الحمراء : انتهىٰ الفشل . . من هذا اليوم أنت رجـل . وتقول انها ستعود بعد دقيقة فلا يتحركن من مكانـه . وتسحب زهوراً نحو الأسفل ثم نحو الأعلى بعد قليل ، تحملان المشط وماء الورد وجلباباً نظيفاً اضافة إلىٰ البنـدقية وحـزام الخرطـوش . فأخـذتا بتمشيطه وهو يصـرخ : لا أقدر لا أقـدر. كانت أسنـان المشط تنكسر تبـاعاً في قـطيفة رأسـه . بعد ذلـك ، أنهضتاه ونصفتـاه بحزام الخرطوش وحملتاه البنـدقية فـأسقطهـا . وصاحت بـه : ارفعها . وصاحت به : تماسك . وصاحت به : عيب . فانقطع نقيق الأسفل ، نقيق الأشياء الحلوة ، الدبس والشاي والنيكوتين والنميمة . ويصعد صـوت احدىٰ السفليـات علىٰ السلم : مـا الذي يجري ؟ هل لدُغ أحد ؟. فترد هاجر : كلا ، لا شيء . ويعود النقيق . كلهن يتحدثن معـاً فلا تسمـع واحدة مـا تقول الأخرىٰ . هذا النقيق بالذات . .

يحس وهو يرفع البندقية بطعم الشـاي بلا سكـر ، طعم

المؤامرة لغرض سرقة الاسم . اسمه هو . شاهين ابن البقرة الحلوب . سبعة وعشرون عاماً من المؤامرات لأجل هذه اللحظة الذكية ويسقط. طعم الجحيم النقيقي في اسفل الهاوية والساعة الأخيرة من العيش والذهول والرعب والمؤامرة مرة اخرىٰ ، حيث المذابح الصفراء التي نادراً ما تصل إلىٰ درجة القتل ـ مذابح الأخوة البشر .

ويقول انه يشتاق كثيراً إلىٰ شباك الضحك وبرميل الابتسام ووشيش السكون والامتداد والفراغ والعري ، ثم الركض الحرّ بلا توقف ، والسقوط الحرّ بدون اصطدام . وهو شاهين ابن هذه الأسماء بلا قيود ، يشعر أنه يبتعد عن نفسه فلا يعرف إلى أين سيأخذونه ؟ وماذا سيفعلون به ؟. ويريد أن يهرب فيجد الباب محاصراً بزهور ، والنقيق ينتظر . . فأخذ يضحك يضحك . . .

فشاركته هاجر وشاركتها زهور وشاركهم النقيق ، فاهتز المنزل بعد ذبول بضحكة عظيمة أسكتت أصوات البيئة من زقزقة ونهيق وخوار وعواء ومواء ونجدة وتوسل وأمر وطلب ومناداة وضحك . . . وتصعد فتحات الضحك علىٰ السلم ، ويبدأ التصفيق والغناء : « بنيّة ويا بنية يا ويلي هنا ، لبْس كتان وأردانه خفيفة يا ويلي هّنا ، أنا المهيوب سمّوني خفيفة يا ويلي

twitter @baghdad_library

هنا . . » تصفيق . ولا أدري ما معنى التصفيق ؟ . صوت سقوط كف علىٰ كف . وينزله محمولاً علىٰ الأذرع الصلبة، متكئاً علىٰ الأثداء الذاوية ، فيعلم أن لا جدوى من الرفس ، لأنهم سقوه بالقوة ـ في مرة سابقة ـ حليب انثىٰ الحمار لأجل الشفاء من السعال الديكي . واحتاج لرائحة السوس . آه . . السوس ! . احتاج إلىٰ النوم تقريباً ، ولكنهم أجلسوه منفرج الساقين تحت عمائم سوداء وكلمات مبهمة وصيحات فزع ومناخر كثقوب الفئران المليئة بالدغل . ما شاء الله ما شاء الله . فقال : هخ . وأفرجوا ساقيه أكثر .

بهجة. واقفون . ألوان . روائح محضرة من أندر الأعشاب . كانت الزغاريد تخرج من أنابيب البنادق ، أما النساء فيطلقن من أفواههن الرصاص .

ويتقوس حتىٰ تلامس جبهته الأرض ثم يهتز بعذاب نادر . يبكي لأول مرة منذ عشرين عاماً . . . أوقفته النساء . سكون عظيم بعد الضحكة العظيمة . وحللن اشتباكه المعقد كاشتباك الفخ ، فاقترحت زهور بأن يتبع آثار أبيه إلىٰ البرية ليتذوّقن لحم الأرانب بهذه المناسبة العزيزة ، لكن هاجر أرتعدت وأرادت أن تفتح فمها ففوجئت بكف . . وهكذا قبلت بصعوبة تحت وطأة مشقة العار فلم تتمكن الكف من حجز دمعتها .

بدأ التصفيق مجدداً فخطا مدفوعاً بأجساد وقرصات وانتقاص بقصد التشجيع . وتقول احداهن : ما شاء الله إنه يمشي . ويصحن جميعاً : شاهين يمشي ، فرخ البط عوّام . عوّام . ولكنه يتدحرج تقريباً . يشعر أنه في النوم يلوذ ببعض الأستار ، يلوذ ببعض الحشرات لكي لا يُرىٰ . يغمض عينيه لكي لا يراه احد . وأن نصفه الأسفل ينهار بسبب ثقل الحزام ، غير أنه يمشي تقريباً وقد التصقت العيون التالفة في ظهره . . وأخيراً ، سمع صيحة أعجاب حين أكله الوادي . . .

بمحاذاة خط الحصىٰ المعلَّم بقطرات دماء الطرائد التي تحولت الىٰ عصارة عطنة بعد مرورها بالأمعاء ، وذكريات خدوش ذيول الحيوان المصروعة ، إضافة إلىٰ الحفر المخططة كإشارة إلىٰ مرور الإبرة التي تلم الشقوق وتنتهي بحفر تصغر بالتدريج حتىٰ الخنصر ، وجلسات نفش الريش أوقات الاستراحة ، حيث ترمىٰ الخراطيش الفارغة بعد نظرة ترحيب . تلك آثار الفقيد التي سجلت مقدار ارتفاعه عن الكرة الأرضية حيث أتيح له أن يرىٰ الضوء حتىٰ خط الأفق . كما سجلت ثقله الذي كسر القشرة وغاص لمعرفة سر الأنبات والوصلول إلىٰ عقد جذور الشوك واكتشاف درنات الأصناف الصالحة للأكل عدا المعروفة من قبل الناس ؛ كالكعّوب والحيلوان والضّبح وخصية البغل وخصية الجدي والسعدان والفريون والجنيبرة وزهور

twitter @baghdad_library

النوّار ، مع الحذر الشديد من بعض الأصناف السامة ؛ كالهوبر وقضيب الأرض وحبـوب الهلوسـة والعــرهـون وبعض أنــواع البصيل . . . الخ .

وذكريات أصناف اخرىٰ ذهبت مع الربيع باستثناء العنيدة في الصبـر علىٰ العـطش كالعـوسج واللزّيق الـذي يجـزّ صـوف النعاج .

ظهرت انتصابـات محمود في الجهـات الست لحجر النـرد المحيط بالتائه كعلامات الزجاج قبل التنظيف .

أعني مـا من شيء يهـتز . لم يكن أي شيء يتحـرك تحت السماء . أعني؛ هذه البـرية بـلا رجفة ولا أنّه تشير إلىٰ خـطوط الضـواري ومصادر المـواد الخـام لـلأرانب عبـر منـاطق هبـوب عواصف البعوض ، أعني ، البقّ .

فلا ينتهي الوادي من جهة البرية قبل الغـروب لأنه يمـد أذرعه بين ممرات الشوك متحسساً جهاد الـطبيعة العتيق لحمـاية القدر الأكبر من ابنائها وذلك بوضع بعضهم كمصدات للرصاص دفـاعاً عن المخـالب ، واتاحـة الفرصـة للحائمـات من الرخم والزاعقات لاعلان بشرىٰ الوليمة .

كان صفراً تقريباً إذا ما قيس بتعدد الأشياء وكثرتها ، ولم يكن أي شيء يتحرك تحت السماء . ويعرف أنه محض صفر أمام

خلود الوان الأحجار، فيشغل نفسه بالتنفس ويعاني من ألم الحزام وانبوبة الاطلاق ، مفكراً بضياع جميع الجهود . أعني ؛ جهود الحذر من الخديعة الثانية .

يعود إلىٰ تلك العصا أحياناً . ثلاث أو أربع حوادث فقط . هجوم الذئب بأربعة أرجل مخلبية ، واحياناً بثلاثة بعد أن جرحت الرابعة . كان يقرض أضفاره في حفرة لا لكي يلتذ بأهمية التاريخ الشخصي بل ليتأكد أن اسمه : شاهين ، وأنه يحب عواداً تحت السدرة لأنه صديقه ـ وقلما يلتقي صديقان بلا اسلحة ملفوفة . كان يلعق الدبس بسبابته ويسمع النداء المحذر : « شاهين ، ابتعد ، إحذر ، تيقظ ، انتبه ، اختبىء ». الآن، هذه اللحظة بالذات يبحث عن الصورة القديمة ؛ لقطة تبدو فيها الطيور هاربة نحو صحاري آسيا لتموت بلا رعب مستغنية عن الماء ، وهي طيور مائية ، لأنها لم تكن آتية من جزر القمر بل من تلك المرأة المسماة : « هيروشيما » ، آنذاك ، عبر نشرات الأخبار ، حيث يضعون الباقات تحت قدميها كل عام وهي تحدثهم من وراء ضريحها المحطم وتخبرهم بأسمائهم لحظة الاهتزاز أمام الزاوية . وهو يقول بأنه سيعرف شيئاً حتماً، سيحب شيئاً ، لأن مبدأ الملاحظة لن يكذب عليه وهو يراقب نفسه تطول وتغير عاداتها وتجد في الحياة أسماء جديدة .

twitter @baghdad_library

يتبادلان حروف أسميهما ، هو وهي : شاهين هيروشيما . لأنه كان يحلم بتلك المرأة الفاتنة من اليابان لحظة هجوم الذئب بأربعة أرجل مخلبية ، وأحياناً بثلاثة بعد أن جرحت الرابعة . تلك الليلة . سأقول : تلك الليلة ، ولا أعني أنه يتذكر . ليس لأنه عديم الذاكرة ، بل لأن لديه ذكريات وأحلاماً جديدة باستمرار . بالضبط : لأنه يحلم أكثر مما يتذكر ، فلا وقت للماضي . . تلك الليلة : كان الأب يسكب في قلبه بطيئاً مبدأ الرجولة معتقداً بأن توالي الصدمات يفتح ممراً باتجاه الخبرة والقوة ، وهي هذه المناعة الشبيهة بخدوش تطعيم الجدري .

كان قد أصطحبه في تشرين ضائع بعدما استعار سيارة الجيب العائدة لصديق ، قديمة شغولة في براري الأرانب البرية . شهدتهما يصعدان ، يرفعان سيقانهما عن الأرض . أقول : شهدتهما ، لأن الكتاب يشهدون علىٰ جميع مآتم الأرض ويتحدثون عنها ، لأنهم أكثر المخلوقات بطالة . .

كانت مرفقة بشرط الحصول علىٰ نصف الصيد . « فلو اصطدتم أرنباً واحداً فلي نصفه » يقول صاحب السيارة . « ولكننا أكثر ذكاء من جميع مخلوقات الله ـ يا بني » يقول الأب . وكان فيها ذلك الجهاز الذي ينقل الأخبار عن المرأة اليابانية ،

حتىٰ في أشد لحظات المتعة . رغم أنها تحاول ، تلك العجلة العجوز ، أن تغطي الأنباء بهدير محركها ، وتطلق كشافها في غبار الأراضي المسطحة ، فتتحرك ظلال الأشواك بين الأخاديد .

ثمة غيوم صغيرة بعيدة . . بعيدة جداً .

ظلمة رصاصية . برد . برد . حيث تعشعش الأرانب ذات الشفاه المشققة والأنوف التي تشم بقول المزارع البعيدة ، إضافة إلىٰ طيور الشقراق المستسلمة لحلم البيض والتناسل وهي مطموسة الرقاب وقد أبصر ريشها الزيتي الملون في الضوء ، ريشاً أزرق وأخضر وأحمر وأصفر . . . وتمر فوقها العجلة . . .

ما من شيء يهتز . لم يكن أي شيء ينتصب تحت السماء . هذه البرية بلا رجفة ولا أنّة ولا هدير ذي صدىٰ يصلح كموسيقىٰ لمن يطيب له الغناء في الفلوات مثلما كان يفعل محمود . وهو يشعر دائماً بضرورة الطرق علىٰ رأس ابنه بقصد المداعبة أو التربية ، فيسأله الأبن : « هل تحب الأرانب الغناء »؟ فيجيبه : « ماذا قلت ؟ لم أسمع ». « هل تحب الأرانب الغناء ؟». (ها . . غير وارد هذا الشرط في مهنة الصيد ، ولكننا نغني عندما نطمئن » . « أنا لا استطيع أن اغني » . « لأنك خائف ». « لا » « وأنا لا استطيع ان

twitter @baghdad_library

اغني ». « تكـذب ». « لا » . وينـظر عبـر زجـاج النــافـذة الخلفية ـ في الحقيقة ، لم يكن لها زجاج ـ فيبصر أضواء فوانيس القرية بعيدة بعيدة. . بالكاد ترىٰ . . .

الأرض واسعـة ومتعالية عن الضوء تمـد أطرافهـا بغرور كسول ، معطرة من خلال الغبار عبـر شقوق الأبـواب ، تتكور لكي تلاعب السيارة وتدور باتجاهات مختلفة محايدة . تلك الوهاد بـلا متانـة ولا هشوشـة بمثابـة أحد الجبـال . وكان خـاشعـاً ، سعيداً ، دانياً من الضحك العلني مسافـة شعرة . . وأحيـاناً لا يتمكن من كتم ضحكته . .

شعـر بشوق إلىٰ الاغـماء ، مـع أنـه نـادراً مـا يصـل إلىٰ الاغـماء ، فوجـد نفسه في كف الـوادي وتسـاءل في أي أصبـع سيذهب ؟ إنه يحتاج إلىٰ هذه اللحظة بعد التعب ، لحظة الأغماء تقريباً . لأن الحصول علىٰ الصيـد يتطلب اجهـاد العين بمـراقبة الأشواك التي تركض .

وبعد ساعة ، وربما أكثر ، سيسرقه التعب حتىٰ يوشك أن يقول : يسرني أن اسقط فوق سرير . لكن الأمل بتغيير أحواله ينبثق قبل الغفوة وقد عجّل من اقتراب النوم ، ثم يستيقظ فيجد كل شيء كما تـركه ؛ الـدجاج في الحـوش ، النمل والعصـافير تبحث كـالمعتاد عن الحب السـاقط سهواً من ثقب كيس . غـير

أنهما ـ عندما أعود إليهما معاً ـ لم ينقطعا عن التوقع بحدوث شيء شبيه بالكارثة. شوكة . شوكة . شوكة . جرف . قبّرة . شوكة . قبرتان . . . والأحساس يتغير بانبثاق تل يحجب الضوء أو حفرة تتطلب ضغط القدم ، فيغريان بعضهما بصيغة التهنئة . كانت ضرورية تقريباً، تلك اللمسة ، لحظة المصافحة ثم الأنهيار على المقعد ، إذا كان هناك مقعد ننهار عليه ، وهو الوحيد من بين مقاعد كثيرة غير موجودة أصلاً . . . وهي ضرورية بالنسبة لشخص معتاد على برد البراري ، لأنه يعترف أحياناً بعدم قدرته على فهم شيء . إلا أنه يحب ، هكذا ، كل شيء كما هو لحظة اهتزاز التين ، وأخبار الآنسة : هيروشيما عبر مذياع العجلة .

أبصر العيون الفسفورية للذئاب ، دامعة آملة تحت الحفر بتفتيت أضلاع جسد بشري . ويقفز أرنب في الضوء . بينما يبحث عن أرنب في الضوء . فرق كبير بين ضوء الليل وضوء النهار . وصاح الأب : « هاه!! » وصاح الابن: « أرجو أن لا يهرب ». وصاح الأب : « لن يهرب ما دام في الضوء » . وركل الموقّف ونزل بعدما ترك الضوء يسقط على ظهر الأرنب الذي شم نفسه وتكور حتى صار أصغر من الفأر . أحس بخوف الأرنب فتمنى أن يخطىء التصويب ، لكنه لا يخطىء إذا ما وجه الأنبوب بين الأذنين الطويلتين . وسمع الابن شيئاً يسقط من باب السيارة ، ورآه يهش الأرنب فيقفز محاولاً الخروج من الضوء

twitter @baghdad_library

و . . . تلك الرنّة الجافة ، تدل علىٰ الموت أو الفرح : طاخ . وصداها : طاخ . . .

بمحاذاة خطّ الحصىٰ المعلم بدماء الطرائد وذكريات خدوش ذيول الحيوانات المصروعة ، إضافة إلىٰ الحفر المخططة بإشارات مرور الأبرة . نحرها بسكين صغير ثم ترك الدم يسيل علىٰ أنف السيارة لأجل التبرك . وضحك آنذاك عندما اجتمعت العائلة يوم الجمعة ، وغنىٰ آنذاك بعد انطلاق العجلة الهرمة من جديد وانحدارها في وادٍ . كانت هيروشيما معهما رغم الضوضاء ويبرز أرتفاع صغير فلم يتمكن من تفاديه فيضطر لصعوده ثم . . « آه . . هل أنت بخير يا بني »؟ « بخير يا أبي » . لا أظننا نستطيع إخراج السيارة من هذه الحفرة » .

وبمحاذاة خطّ الحصىٰ المعلم بدماء الطرائد توقف لكي يتألم من ثقل الحزام وهو بحاجة ماسة إلىٰ الأغماء . يستدير نحو القرية فيبصر بشراً ملونين بألوان الحصاد والنار والباذنجان ، طائرين مع انحدار التل بارتفاع أصبع ، وهم يرقصون بين الصفصاف في احد الأيام العاصفة إلىٰ جانب غسيل البياض والحيوانات الحرة .

وفي الرابعة عصراً ، ساعدتهم ظلال أكفهم علىٰ رؤية شخص بحجم الأصبع ، مقسوماً بخط أسود ، إذ تنحني التلال

البعيدة ابتداء من كتفيه علىٰ شكل نخلة ترابية. تقول هـاجر : إنه يسقط . وتقول زهور : إنه في وضع الكمين . . عـودوا إلىٰ البيت. . نجحنا . . حقيقة ؛ إنـه يسقط بعدمـا تلمس الأبزيم هـاجر التي تعـرفه عنـدمـا يتلمس الأبـزيم وينهـار مـع انـزلاق الحزام .

يـرفع بصـره فيرىٰ جلستهـا الملتـاعـة ؛ وضـع الابتهـال والنجدة وقد سقط آخرها مثـل كرسي محـطم . فكهـا الهـلالي . الجلد الملتصق بالجوف . مخالبها التي تقدست كخطوط في رقيم طيني لكي تخلَّد لحـظة الاحتضار قبـل أن تسلم نفسها لـذبـاب التفسخ ، وهو يسمع نجدتها قادمة من أقصىٰ العصور حتىٰ ساعة القيامة . صرخة صادرة عن أسفل القصبة الهوائيـة . وكان قـد ضرب المقود بحركة تنم عن خسارة ، وظل جالساً لبرهة يحـدق بوضع مائل إلى الظلام ، في الظلام . نظره مغمماً ، إلىٰ الفراغ حيث مكان الجرف . فلو رفع يده لأضـاع السيارة . فصعـدت شتائمه ضد الانكليز صانعي العجلات الهـرمة ، تلك الشتـائم التي تقتلع الصبار وأشواك القنافذ . والمسـافة المقـطوعة في ليـل البراري الذي يمط نفسه لكي يستر الأشواك بغرابة غير جـديدة علىٰ صياد اعتـاد المفاجـآة طويلة حسب معـرفته بـأسرار سـطح الأرض . فقال الابن : « ماذا نفعل »؟ وقال : مـاذا أفعل ؟ . فأجابه الأب : « اعتقد بأننا سنعود مشياً . . » . والقرية بعيدة .

twitter @baghdad_library

« قد نخاف من الذئاب » . وقد لا نخاف من الذئاب . و« ربما نتيه ». وربما لا نتيه . وبحث تحت المقعد عن كيس الخرطوش فقال الابن : « لا تتعب نفسك . سمعت صوت سقوطه غير أنني انشغلت بالأرنب المذبوح ». . فهتف الأب : « لاه !! خسارة . . » . يقول وهو يحتاج الآن إلىٰ النوم وليس إلىٰ الأغماء ، ويسمع صدىٰ تلك الكلمة تملأ البرية وتمتد إلىٰ ما وراء الجبل : « خسارة . . خسارة . . ». خسا . . ثم غطس في الشخير . . . وهما يتبادلان الحروف الأولى من أسميهما : خ . خ . خ . خسارة . . .

كان قد الصق خده آنذاك بالحديد البارد مولياً وجهه صوب هواء تشرين ، مفكراً باعتقادات قديمة ، غابراً . . . غابراً جداً . لم يكن أيّ شيء يعنيه من هذا العالم لذلك يتعلم بطيئاً . فأراد أن يمنح أبنه بعض القسوة لأجل سلم الرجولة الوعر ، ولكي يعرف قبل الوقت ما لم يعرفه هو . وجهه في الظلام . بصره مغمماً . يكشف ذلك الوجه عن آبار عميقة حذرها ، وبشريكا بدون الصعود نحو عادة التدخين والشاي بعد الطعام . كان يعرف أنه كان محسوب علىٰ البشر ويؤثر بالذين يلتقونه صدفة فيصبحون حميمين . ولا بد أنه فكر أيضاً بما أعطاه من أهمية لهوىٰ الصيد لحظة الخلوة . فمنذ سنوات وهو يحب الصيد . الصيد وليس القتل أبداً . أقول : انه مجرد

انطباع وفق طريقة ؛ أملأ الفراغات التاليـة . . . ، لكي تصير هذه الرواية أكبر حجماً . لأنني لا أعرف محموداً معرفة دقيقة كما لا أعرف شاهيناً ولا عالية ولا هاجر ولا عواداً . . لا أعرف أي واحد منهم تقريباً . .

حين هبط المساء العالي فوق انـوف التلال ، ضبط عـواد حزم امتعته في إحدىٰ عربات القطار علىٰ بعد ثـلاثين ميـلاً عن القرية ، متوجهاً صوب العاصمـة، حيث تأتي من هنـاك رائحة الألوان وأخبار المعارض ونجاحات بعض المغمورين .

لقـد أصبح بعـد أيام الانكسـار وحيداً يهتـدي بـروائـح الأصباغ حتىٰ وضع خاص منبثق عن أمان سـابقة واحتمـالات غضب تحولت بالتدريج إلىٰ هواية باردة .

كان الانكسار الأخير يدفعه لمواجهة اللوحة بعد الوقـوف سـاعات طـويلة، يعد مكـاناً منـاسباً ، مثـل دجـاجـة تستعـد للبيض ، بين عشرات الأسماء الشهيرة ، لأن عزيزة لم تعد قادرة علىٰ عذاباته بها ، وهو تبرير ملائم لأجل البحث عن امرأة أخرىٰ مع الاعتراف بوجود الرفض تجاه كل جنس مغاير لجنسه . لكن الوقت كان ضيقاً دون أن يلجأ إلىٰ الإحراق . ينصت إلىٰ صفير القطار عندما يمزّق هواء المحطة . ويرىٰ تمايل الشجيرات النظيفة موسعاً مساحة الغبطة بينه وبين الأشياء حتىٰ صعوبة التمييز بين

twitter @baghdad_library

شرائط الحديد وساعة المبنىٰ القديم كإشارة إلىٰ كثافة الوقت المتغير من ضباب الصباح إلىٰ حرارة ما بعد الظهر ، وهو يعرف أن من أصعب الأمور أن يكوّن الانسان فكرة محددة عن الأشياء حين يعتبرها الآخرون زمناً مضىٰ بلا أهمية ، وقد اعتبره احد العوامل في سقوطه تجاه عزيزة حين رآها قبل أيام ، بعد عامين من القطيعة ، وقد أصبحت أكثر بهاء وندرة وشجاعة في النظر إلىٰ وجهه مباشرة ، فخمن أنها بعيدة عن استثمار رجل غريب .

وهكذا كانت غامضة بحجة زوال الرقيب رغم اعلانها . تغوص في أسرار تخص غيره لأن وقع الخسارة كان يخصه ، وقد حذف الأمر بسرعة امام الصديق شاهين كجزء من عوامل تعلمها لتعقيل نفسه عند مجيء لحظات الغضب . فكان يقول لنفسه : انظر إلىٰ عينيها . . انظر !!. ويقول : يجب أن أنظر في عينيها . ويقول : هاتان العينان ! . .

وبعد الهبوط إلىٰ واقعية الاحتمالات السابقة عندما حدثت أثر سنين التهيؤ للانتقال إلىٰ النسيان . عرف بعد نزوله . هو . صاحب اللعنة السوداء ، ويقولون انها نظارة سوداء . ومن خلال رؤية مسدسة . لعلها قالت له : « انهيت علاقتي بعواد لأنه مرتفع عني كثيراً وأشعر بأنني صغيرة ، وكيف تريدني أن أقول ؛ نعم أرغب أن أكون صغيرة . فلا أقدر أن أقدم له سوىٰ الفراش البارد ، حتىٰ انني لا أجيد صنع الطعام باستثناء سلق

البيض . . » وهي لا تقدر كما تعتقد ، ولكنه يرىٰ أنها قادرة ، ليس لأنها جميلة بـل لأنها تستطيـع أن تكون جميلة بـاستمرار . وتقـول : « وهو ذلـك العواد بحـزنـه الـذي لا يبـاح لأحـد ، وانفعالاته المتبدلة . . . لا أقدر . » . وعلم بعد هذا التصريح أن قرار السفر بالقطار جاء مناسباً بعد أن قرأ عبارة تقول : « لم تعد ، ولن تعود أبداً تلك المعبودة التي جاءت إليّ . حقاً ، لقد بكيت في هذه المرة اكثر م جميع أطفـال العالم . » وكـذلك بعـد ذهابه إلىٰ الـدكان ورؤيتهـا وهي تمر بصحبتـه ، ذلك الـذي لا يشعـر بوقفـة الرسـامين قـرب الدكـان ، ويقـول عبـر نـظارتـه السوداء : ما هذه الشخبطة ؟ ويقصد الرسم . وهناك رجل آخر يختبر ذكاء الآخرين قرب الدكان كأنما وضع نفسه قسراً في كيس لأنه يحمل كرشه ليل نهار حيثما يذهب ، ويقول : كيف تستطيع حمـل نهديها إلىٰ الأعـلىٰ بتلك الـطريقـة العـدائيـة ؟ . ويقصـد عزيزة .

رآهـا تحمل حقيبـة بيضاء بحيث تـلائم لون القميص . وتلك التي سماها شهامة بينه وبين نفسه لكي يدربها علىٰ نوع من الرياضة العاطفية ، علىٰ أساس أنه منقلب عن مفاهيم الآخرين ويفكر بطريقة مختلفة . رآها من مشغله تجتاز القنـطرة بنوع من الاعجاز والفرح وكـأنها ابتعدت عنـه بما يسمـح لها بـالضحك الحرّ ، وقد نسيت جميع الطرائف التي قررت أن تحكيها للنظارة

twitter @baghdad_library

السوداء في أول اللقاء كي لا تذهب في لجة الحديث عن متاعب البيت والطبخ والكنس وغسل الصحون ومسك سجلات ابيها فتضيع بين الأرقام والأزوان ثم تقول له : « ولكنني ضائعة .. ربما لن أتزوج » .

مرّ وقت كاف لتفتيت تلك الثقة تدريجياً ، ورغم ذلك وحتىٰ في بداياته ، لم يعتبر أهداء زهرة لها بديلاً مقنعاً عن القبلة . ورغم ذلك ايضاً ، لم يقبلها . . .

كانت الرغبة المطفأة تبدأ منه لحظة ملاقاتها وهي تهتز أمامه بشهوة تأتي من الخارج معاكسة للخوف ، تأتي من مكان بعيد تقريباً ، من غيمة عابرة ، أو من شيء صلب كالحاضر الذي ينطق فيه اسمها فيتحول إلىٰ ماض فجأة بعدما ينتهي من نطقة . بينما كان ضوء الجمر يدبّ علىٰ جسدها المدهون بعبق الأنثىٰ البشرية ، وهي تغوص في وبر القطيفة وتنظر إليه خائفة بطرف عينها ، نظرتها تقول اقترب ايها البعيد . ويمد يديه فلا تصلان . . .

انه لمن العسير أن يتخيل الآن أية حكمة اتبعها لأيصال العاطفة إلىٰ شكل المعادلة الحسابية ، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً سوىٰ الإنكار ، لأنه يضيع بذلك سحر الكلمات ومقدرتها علىٰ وضع المقابل في منطقة القتل . لقد كرس ساعات الرضا القليلة

بالانصراف لاعداد كلمات الهدنة كلما وجدتْ أن من الأفضل اعطائه فرصة جديدة للتخلي عن تأملاته ، باختراع معركة معينة ، وهو يرحب أحياناً بمثل هذه المعارك الغالية . وكانت وسيلتها الوحيدة في تطويعه ـ وهي تعرف مقدماً عدم جدوىٰ الوسائل معه ـ أن تجعله ينتظرها لساعات طويلة ، إذ تقول : « سآتيك بعد لحظة فانتظرني . » .

وكانت لحظاتها شبيهة بلحظات الله من حيث الامتداد ، كأنها تطمئن إلىٰ رسوخ عاطفته وتعلم بأنه لن يغضب وقد تركته علىٰ سطح بيت مهجور في مكان لصيق بمياه النهر ، ينصّف ظهره ظل قضيب الشباك ، ويلمس جحيم الشمس في يوم تموزي أحمر .

حدث ذلك بين عربتين حين جاءته الألوان مثل ومضات البرق . وهزته العربة في وضع الابتسام . وأغلق باب القطار في محاولة للنوم ، غير انه تذكر مسدسه وهو ينزل ماضياً بها إلىٰ القنطرة ، وهي تقيس اتساع ابتسامتها في زجاج نظارته الأسود . شعر بحاجة إلىٰ الأزقة ، وكلها معروفة من خلال نهاياتها . القرية ؛ مأوىٰ الوجع الكبير ، شكلها القديم الهادىء ، أشجارها المعادية . أشجار معينة في مكان معين . سواقٍ محفوفة بجذوع . وقد دحرج بعض الأصدقاء علبة بمثابة كرة قدم .

twitter @baghdad_library

ورآه يحمل المسدس تحت قميص بلون الطين ، وهو يعرف ، تقريباً ، عمر ذلك القميص . قيل أنه قال : « يجب أن أسدل القميص فوق السروال لكي لا يظهر هذا ، انه لأمر يستدعي التضحية بالاناقة . » . اما هذا ، فيعني المسدس .

ينظر ألىٰ وجهه في زجاج القطار : انك في وضع أفضل . من المتحدث ؟ . أنا عوّاد ، وأنت ؟ . رشفة واحدة لكي تحس بالعزاء . رشفة أخرىٰ . أخرىٰ . مرّة هذه البيرة فكيف يشربونها ؟ . أخبرني ما الذي تبدل هناك ؟ ما الذي تبدل فيكَ . . أنت .

هل تراك شخت ؟ تلك المرأة المتعبة ، البريئة ، الساقطة . . رشفة أخرىٰ . مرة هذه البيرة فكيف . . . أنني أقدر أحساسك بها الآن وأنت تقدم لي السجائر لكي تخفي تركيزي في عينيك . . . . .

بعد قليل سأفهم هذا الضوء ، لا تتعجل ، هل نجحتُ كما ترىٰ ؟ هل نجحتْ هيَ ؟ . . فإن نجح أحدنا لا بد أن يفشل الآخر . ومن الذي فشل ؟ . اسمع ؛ يجب أن تذهب وحدك . . وحدك ، ولكن لا تنس تحياتي لها .

أريد أن تعرف بأنني كنت معك . . وامتنعت عن الحضور لكي لا أجلب لها الأرباك . قل لها انني كنت أشرب البيرة . قل

لها أني رأيته يشرب البيرة . شوّه صورتي المقدسة . . . يا أخي ، خذ سيجارة من هنا ، لا فرق من هنا ، خذ . هل نتصارح ؟ . . . . . رشفة أخرىٰ يا للمرارة . اعترف لك بانها علمتني ما لا أستطيع تعلمه بمفردي ، ولكنني أستخسر ضياع تلك الجهود . . . لانها لم تجن شيئاً . أنا تغيرت وهي هاربة دائماً .

هذه المرأة ، بصراحة تامة ، إما أن تتزوج من رجل أبله أو تنتهي بفضيحه . . خسارة . قلت لي انها تشعر بالتعب والندم حول مسألة فقداني ، اعرف ذلك .

كانت تريد أن تعطيني قلبها مثلما تقدم تفاحة ناضجة . . . للأسف ، لا أريد هذا . أعني لا أريد أن تمنحني بسهولة . . آه ذلك الخيط . . لقد وضعت اللائمة عليها . قلت انها لا تفهم . لقد فاتني أن كل اشارة منها ، تلك الاشارات التي تمتاز بها ، والتي حببتها أكثر . . بحد ذاتها . .

هنا نصل في القلب مباشرة . . هنا وليس هناك في الزجاج . تكلم يا أخي ولا تنظر إليّ باتهام هكذا . . تكلم تكلم . . . .

لحظة العبور ، عندما وصل القطار إلىٰ محطة أخرىٰ ، وهي واحدة من محطات كثيرة في طريق العاصمة . المكان مقفل

twitter @baghdad_library

بالبشر . ثمة أجساد لائذة بظلال الأكشاك . كان باعة السجائر خلف صناديقهم : روثمان يا ولد . سومر يا ولد . بغداد يا ولد . وصيحات أخرىٰ : سندويج ، عصير . . . الخ .

فكر بأن الوقت يسمح له بالذهاب إلىٰ حديقة المحطة لأجل التقيؤ تحت الشجرة وغسل رأسه بالماء .

قعد علىٰ العشب وهو يرىٰ أعالي الأشجار السوداء ، واعياً خدره . لحظات من الذكرىٰ الهادئة . عشب المحطة اللدن ، سر غريب تفضحه الأعمدة وقشور الكرز : لم يكن صدرها يحمل حباً ، وانما سلاً رؤياً . واقترب وجهها المشفق . وجه عزيزة . يبتسم لهذا الوجه الخاص عندما يسمع صافرة القطار . . .

وفي نفس اللحظات التي ينام فيها البعض يستيقظ البعض الآخر . تلك السلسة من البشر . كل فرد ، هذه اللحظة بالذات يفعل ما يفعله فرد آخر في أية بقعة من الأرض ، ولذلك فإن هذه السلسة تخصها ؛ ينام عواد لكي يستيقظ شاهين فيجد حوله الظلمة ، ما من شيء ينتصب ، ما من شيء يهتز .

يسمع أصواتاً قريبة ؛ شمشمة ، تنفساً مرتفعاً . . .

يهبط في أحد أصابع الوادي لكي لا يضيّع طريق العودة .

كان العواء حوله يثقب السواد ملتاعاً معبراً عن الجوع . يسمع باب السيارة المقلوبـة ينصفق . باب تلك السيـارة الشغولـة في براري الأرانب البرية آنذاك ، فيطلع الأب من الحفرة متحـدياً العيـون الفسفوريـة ، إلا أن الابن لم يكن يملك تفسيراً لجنـون الكبار ، ولن يصل إلىٰ التفسير تقريباً .

قال الأب : « أرأيت . . . الذئب ؟ » . « الذئب ؟ ! لا لا . . » كان يبدو غير مبالٍ وهوو يقول : « منذ ساعـة يلاحق السيارة » . « وقد لا يكون الذئب نفسه فالبرية مليئة بالذئاب يا أبي » . « أنت لا تعرف هذا النـوع من الضواري . « . سمـع نفس العواء الذي سمعه قبل عشرين عاماً بين منـابت الأشواك التي بدت أثناء النهار خالية من أصغر الحشرات . يتساءل شاهين عن معنىٰ أن يكـون المرء خـائفاً آنـذاك ؟ يتساءل : كيف كنت أحس بالخوف ؟ ما هو الخوف ؟ .

يعني أنه تلمس قلبه ، وتعثر بالصخور ، وأراد أن يبكي ، وتمسك بقميص أبيه ، وأراد أن يصل البيت بقفزة واحدة . هذا هو الخوف القديم .

انه يجب أن يخاف الآن ، يتمنىٰ لو يرتجف مثلما فعل قبل عشرين عاماً . ينصت إلىٰ العواء فيفشل .

ويحمل البندقية بمثابة عصا ، ثم يسأل : هل يقدر الذئب

twitter @baghdad_library

أن يقاتل شخصين ؟ . فيجيئه الصوت من مكان معين : « بل يقاتل عشرة بنفس السهولة . » . ويسأل : أيستعين بذئاب أخرىٰ ؟ . فيقول الصوت : « قلما يفعل . . » . يقول : لماذا ؟ . . . من يدري . .

كان محمود يعرف خوف ابنه فيخفف : « تذكر بأن الذئب خائف مثلك » . « لماذا يهاجم اذن ؟ » . « الخوف سبب العدوان . » . وملأ الفراغ بحداء بدوي متعجباً لصفاء صوته كأنما سمعه لأول مرة . . ثم قطع غناءه قائلاً : « هل تسمع صوتاً ؟ » فقال الابن : « نعم ، اسمع صوتك . » . « أقصد صوتاً آخر . » .

يقول : لا أسمع . .

كان يتظاهر أحياناً بعدم السمع حتىٰ في تلك اللحظات الرهيبة . لحظات العبور في نزهة الجمعة . وكان يسمع العواء والحداء معاً كصوت واحد متناغم . ويسأل عن تلك الحيوانات الشرسة ، وهي ليست أشرس من الفراغ الذي يطمس كل شيء ، يلاشيه فلا يشعر بنفسه بدون تلمس . وهو ، هذه الظلمة تمحو مكابدات البشر . لحظة عبور العنيف وطيران الأسئلة . القوائم المخلبية آنذاك ، فيقول الأب أن الهجوم الأول لا يؤذي لأنه يستطلع وسائل دفاع الفريسة ، ولا يقصد التحذير

أبداً ، ولكنه يلتصق أكثر عندما تتضاءل احتكاكات المهاجم في سعة البرية . كان يقول له : « لا تخف يا بني . . يا ولدي » . وبذلك يخيفه أكثر لحظة الذهاب لجلب الماء من الخزان . والخزان بعيد قرب الباب ، بينما صارت المسافة بين أقدامهما والقرية أبعد من قطبي الأرض . تلك الأرض الكروية التي تؤاخي بين المتضادات . لكن الجميع يعرف أن الرجل الحقيقي هو الذي يحذف ساعات الخطر الحقيقية ويقترب من القرار بالغاء صيغ التعجب في تحجيم الذات . لم يكن ثمة وهن في تلك اللحظة . هناك فقط شيئان ؛ عمود الحياة وحفرة الموت فلا مفر من النزع بدون أن يخلع الحس البشري وينازله . مخلب بمخلب ، فك بفك . ويسأل عن تلك الحيوانات الشرسة ، فيسمع الجواب عبر الأعوام : « سيهجم من جديد . » ويسمع : « أطلب منك أن لا تفزع » . ويسمع : « لا تتحرك بعيداً عني ولكن لا تلتصق بي فتحّد حركتي . » ويسمع : « هات البندقية » ويسأل عن تلك الحيوانات الشرسة فتجيبه بهجوم مباغت ، ويغمض عينيه بانتظار الأمر الواقع . ويسمع : « عووو عوووو . . . وو » . .

ويسمعان معاً ذلك العواء فيصرخ الأب : « لم أقتله . » . ويجيء العواء من كل الجهات . فيقول الأب : « ان لم نمت الآن فسوف نعيش طويلاً . » . « وأنت ؟ » . « المهم أنت . . لست بخائف ، وأنت ؟ » .

twitter @baghdad_library

سارا مسافة قليلة في الاتجاه المفترض فسأل الأبن : « ولكن لماذا يعوي ؟ » فرد عليه الأب : « لماذا تبكي عندما أضربك ؟ » . وتلمس الأرض باحثاً عن حجر فلم يجد . وقف آنذاك تلك الوقفة المستسلمة الشجاعة ، وجهه إلىٰ السماء . ثم أخرج علبة الدخان وأمره أن يراقب المحيط ريثما يشعل سيجارة . كان يتأمل نار العود بأمان وينظر إلىٰ وجه ابنه الشبيه بالقناع ، ويقول أنه يحتاج إلىٰ نار كبيرة عندما اقترب صوت الأقدام قافزاً فوق الأشواك ، فدخل الأبن الصغير بين ساقي الأب الكبير ، ولم يقم بأية محاولة لابعاده . أخرج حزمة عيدان وحكها فانبجس الومض منعكساً في تلك العيون المعادية . ولاحت له آثار المخالب علىٰ الأرض عندما غيّر خط الهجوم خوفاً من الضوء . ستنتهي العيدان بعد ثلاث محاولات . الطريق طويل . « الا يوجد أحطاب هنا ؟ . . أي شيء يشتعل ؟ . . قش ، قماش . . » فدفعه برفق منتزعاً قميصه . واقترب فدفعه بقوة ثم طوىٰ القميص علىٰ شكل فتيل وأشعله . . وتبدد الظلام .

يقول أنه شهد هزيمة الظلام . ويقولون أنهم أبصروا اللهب في البرية . ويقول أنه نظر إلىٰ وجه ولده وابتسم ليحثه علىٰ الهرولة .

وبعد أن قطعا مسافة مناسبة ، قطعت النار نصف

الفتيل ، فسأل الأبن : « لن يهاجمنا مرة أخرىٰ . . أيه ؟ » وضحك الأب حتىٰ لسعته النار فرمىٰ الشعلة . . .

يقول أنه كان ينظر بأسف إلىٰ انتهاء النار . ثم ينظر إلىٰ أبيه كيف ينزع سرواله ويطويه علىٰ شكل فتيل ويقبس . قال الابن : « يوه . . . صرتَ عارياً » . وهز الأب رأسه مبتسماً .

لم يكن قد رأىٰ مرة ذلك العري . الجسد محاصر بالليل . الجسد القديم مرة بعد مرة . تلك النتوءات ، الساقان ـ ساقاه وراء الظهر !! (. . .) بين الساقين كعروة تهتز مضاءة في ألم العلب الملونة تحت العمامة والكلمات التركية والمخدة ، البهجة ، الواقفون . . . الصدر العريض المشعر ـ الدغل . غبطة مرهونة بتخديش المخالب المعادية . عار لا يتبدد عند الحافة لأن القفز ممنوع . وهي ، تلك الحفرة ، ظلمة زرقاء شاحبة . . . فيسمع أصواتاً انسانية ويهتف : وصلنا ! . ويتسلق كتف الوادي فتظهر النوافذ مضاءة . الأشجار السوداء تحك نفسها للتخلص من بعض أوراقها الميتة وهي تنحني لكي تمنع انقلاب التلال .

تمكن أن يرىٰ آثار أضلاف الماعز في بقع الضياء ، والبئر محاصراً بالشوك والصخور المحززة عند نهاية طحالب مجاري الصابون .

twitter @baghdad_library

رأىٰ أكياساً سوداء حين تسلق بوضع مائل ، فناداه أحد الأكياس : من هناك ؟ شاهين ؟ . وتدحرجت الأكياس فتحولت إلىٰ عجائز أحطن به وسألنه عن عدد الأرانب التي أصطادها .

اقترب أحد الظلال واحتضنه ثم سأله : اين البندقية . . والحزام ؟ ! . فقال منزعجاً : آه . . حقاً أين البندقية والحزام ؟ . وصعد النقيق مجدداً ثم تفرقت الأكياس في الوديان . . .

كان شعبان يمد ساقيه فوق العتبة لينتظر عودة شاهين الذي اجتازه بخطوة واسعة ، ماضياً نحو ظلمة السلم .

اما هاجر فقد تعثرت لحظة الأجتياز وكفرت . يوه . . من الذي وضع هذه الأخشاب هنا ؟ . فأجابتها الأخشاب : أنا شعبان . . عمي يقول جئني بشاهين . فتبين لها وجهه مشابهاً لكرة الصوف . قالت : لحظة يا شعبان . . انتظر . وتلاشت في الظلمة . .

عندما فرك المنتظر يديه فوجىء بشيء صلب قدره عصا من خلال رنة الخشب علىٰ رأسه . ترنّ وتؤلم . فتدحرج مع السفح حتىٰ حطام لعب الأطفال الواخزة في مضيق المجرىٰ . وسمعت عواءه ، صوتاً يختلف عن الغناء . وسمعت سؤالاً

متكســراً بسبب درجــات السلم : هــل تحملين قــلادة سـن الذئب ؟ . فتجيب : طبعاً ، لماذا ؟ . .

اما حلّاب فكـان ينتظر عـائـماً عبـر روائـح الأرضيـات المغسولة عصراً ، فيقذف الغطاء ويزيح الستائر عند رأس سريره المعد لثلاثة أشخاص ، ويعيـد التأكـد من دقة الاجـراءات منذ الجلوس الأخير للشمس علىٰ أغصان شجرة التـوت . يأمـل في لحظات قبل القيامة برؤية فرخ الصياد محتـاراً بين تعـدد الغرف وسعة الممرات ، لعلّ الرهبة تأخذه فيعود إلىٰ غطسته بعد النظرة القـريبة للبيت الـواقف علىٰ قـوائم جصية ، بمنـادياتـه الشبيهة بشواهد القبور ، حسب العرف ، انها تنـادي الضيف ، اذا ما استثنينا تفجر الضوء وتمدده في أقـاصي الدروب . يعـد الغرف فيخـطىء الحساب . يعـدها من جـديد : ثـلاث إلىٰ اليمين ، ثلاث في نهاية الممر ، اثنتان على السطح ، واحدة إلىٰ اليسار ، ماعدا المضيف والقبو والمرآب والـزرائب في أقصىٰ الفناء . . ثم أسيجة الآس وحشائش المدخل الصناعية .

لكـل زوجة ثـلاث غرف تنتهي جميعـاً بسعـة المـطبـخ . الملائكة تدخل حيث لا تجد صورة محرمة على الجدران فتـرتد ، وانما تنجذب لحدوة الحصان وحذاء الطفـل ورأس ذكر الغـزال محشواً بالتبن وملفوف القرنـين بورق الفضـة وقد أثقـل بقلائـد

twitter @baghdad_library

مختلفة من الودع والخرز النادر . أما المدخل فيضاء بسراج مستورد ، يوزع الدخان والنور بتساوٍ عجيب ، وترتمي إلىٰ جانبه حزمة عيدان تستخدم لتنظيف الأسنان بعد وجبات الثريد .

كانت الصراصر الحمراء تجتمع من كل صدع مستأنسة بضوء السراج . وهي تسليته الوحيدة في ليالي الأرق ، حيث يقتل وقته بنداءات تشجيع وتصفيق لصاحب الغلبة من أصناف الزواحف وأبي بريص ، ويمتنىٰ بصوت مرتفع يهز نوافذ البيوت القريبة من بيته ، أن يغلب أحد الزواحف فتهرب الباقية بعدما يصير سيد دائرة الضوء أمام زاحفة أصغر حجماً لأنها أنثىٰ معجبة بقوة بعلها ، هازة ذيلها الأبريّ كأصبع يشير : اقترب يا حبيبي . .

وهو ولوع بالسكاكين وأصناف الآلات الحادة ، كشفرات الحلاقة والمقصات ، لانها ذوات فضل كبير في رؤيته للنور ، بعد تلك الصرخة التي أسمعت التائهين . حيث قامت أحدىٰ العجائز بفتح قبتيه بواسطة سكين البصل المحمّىٰ ، فتحولتا إلىٰ مجرد جرحين قادرين علىٰ بعض الابصار . وقد أثرت تلك الرؤية الأولىٰ علىٰ فهمه للأشياء فيما بعد . وكتب عنه صحفي زار القرية ، افتتاحية ضخمة لأحدىٰ صحف الغرب .

يقولون أنه كان منزعجاً من الكلب الذي ينابح سيارته

كلما خرج للتبرز في البرية ، وقد روىٰ لهم تفاصيل المقلب ، بعد ركض الكلب حذاء السيارة ، إذ أمسك بذيلة ، وضغط قدمه علىٰ عتلة الوقود . . فأخذ المسكين يعوي ، حتىٰ اختفت القرية خلف سحابة الغبار ، عند ذاك ، تركه يعود ماشياً بعدما تجرحت بطنه ، وأقسم في قراره أن لا يراكض سيارة بعد اليوم « خاصة إذا كانت زرقاء مثل سيارتي . . » . ما من أحد يفهم هذا الرجل سوىٰ الصياد الفقيد ، وزوجته الكبيرة التي عاصرت تحولاته المختلفة ، وقد أخذها بعد تجربة مساومة ، لا بسبب قصة حب ، لأن أباها كان مديناً له بكيس قطن . فاحتملت رفساته طوال سنوات الأرق ، وهو يقوّس جثته باتجاه الأرض ويداعب لحيته الشبيهة بالضماد الأسود . وهي تمضي الليالي منثنية مع غضبه ، تحمص قهوته علىٰ الجمر ، وتحتمل قفزه وصراخه المشجع لأبي بريص ، وقنوطه في حال خسارة الزاحف أمام الصراصير الحمر بنتيجة : واحد ـ صفر . بعد أن يبصق ، فيسيل بصاقه قطراً نصفاً لدائرة الضوء . عندما دخل شعبان مكدماً ، تراجع في عتمة الممر ، فقص له ما حدث قائلاً : الجواب أمام عينيك يا عمي . فما كان منه إلا أن يرسل أشد الرجال لجلب فرخ الصياد بالقوة ، بعد أن حاصر أنوار البيت ببعض قطع الكارتون .

لم تجد محاولات هاجر في منعهم من الدخول لأنهم هددوها

twitter @baghdad_library

بكسر الباب .

سمع شاهين جلبة فنزل يسأل عن المصدر ، فحملوه علىٰ أذرعهم القوية باتجاه أعشاب المدخل الصناعية . فقال أحدهم : هـذا هو يـا عمي . ورد شاهـين : نعم ، هذا هـو يـا عمي . وسمع ضحكة فحيحية رفيعة وكلمـة : هاتـوه . ثم : لا ليس الآن ، قـولوا لـه بأنني غـير موجـود . يقـول شـاهـين : آه . . ملعون ! أليس هذا صوتك ؟ لماذا تجلس في الظلمة ، هل أنت خائف مني مثلاً ؟ . وأتته صفعة قوية مع : تأدب يا ولد . فرد : نعم تأدب يا ولـد . قال الصـوت : هاتـوه الآن . فأدخلوه إلىٰ عتمة الممر ، ظلت هاجر تحك رأسها بعصبيـة ، وتؤجل قـرار لبس الحـداد مجدداً ، دون أن تعـرف ماذا يتـوجب عليهـا فعله بـالضبط ؟ فتلمست عصـاهـا وزمت شفتيهـا في البـاب ، ثم تراجعت نحو السلم مـأخوذة بـأسئلة التردد : هـل أذهب ؟ أم أتركه ؟ . وفكرت بضرورة الحصول علىٰ الدليل الذي لا يؤجل قرار الانتقام ، وفق انتظام نتائج بعض الوقائع التي تؤكـد بأن اختفاء زوجها قبل عشرين عاماً ، كان فخاً مـدبراً ، لأنـه كان قادراً علىٰ صفع المتجاوز في حفلة الغجر ، أمام الجميع ، حيث أهتزت نورية . « يا أهل القرية ، رحم السامع منكم . . متعوا أبصاركم . . » . في باحة البيت الجصي امتزجت قرقعة القدور بقرقعة أصابع الغجري علىٰ الطلبة ، مرة ينحني ومرة ينـام حتىٰ

صارت أصابعه خمسين في كل كف . متبوعة بمواء ربابة الصفيح ، والصوت الخارج من عنق الغجرية المدهون . والخرفان الثلاثة تغلي بأمعائها ، محروسة خشية سقوط الأطفال نظراً لسعة القدر وسعة فتحة الثوب أحياناً ، لأن العيون تتسع معها عندما يلمع الفخذ ، وتصعد قلوب المشاهدين خارج صدورهم ثم تحط ثانية و« وصلة غنائية أذكري فيها اسم حلاب . . خمسة دنانير بين نهديك » ، وطلقات تحذير لحظة دخول المهاب ، الذي رفع حلاباً من جلبابه : « أعط المسكين حقه ». فيزعق : « ليس هذا وقت حساب يا أبا شاهين . . نريد أن نتونس يا أخي » . . ويضع البندقية علىٰ عنقه : « سأجعلك تتونس في الجحيم . . هيا » . فيسحب دنانيره من بين النهدين ويدفعها لصاحب الحق .

تقول : هل أذهب ؟ أم لا أذهب ؟

يصرخ شاهين : ادفعوا هذا السواد لأرىٰ مكان الخفّين . أنه يسمعهما يحكان الأرض ويدوران في فراغ الظلمة .

شعرت عزيزة بأنها مربوطة بوتد حيث كوخ التبن . وهي لا تستطيع الجزم ، بأن عواداً سيأتي ويعقف ظهره لحظة الاقتراب فيقذف نفسه الىٰ الداخل بسرعة ويمكث .

لا تدري إن كانت قد أعطته موعداً ، باشارة أو كلمة ،

twitter @baghdad_library

لأنها لا تذكر بالتحديد أية كلمة ؟ غير أن المكان أكيد ، كوخ التبن ، منعزل في الطرف . مكان ملائم لتبادل الاتهام والحب . فوسعت عينيها حتىٰ لحظة الألفة . ثم أضاءت الثقاب لترىٰ وطواطاً معلقاً بنبتة قنّب موصولة بين عمودين يرفعان السقف .

لم يأت، حين أنطفأ العود ، ولم يأت بعد انطفاء العود الآخر . ربما جاء قبل الوقت فلم يجدها . وأضاءت عوداً آخر ، فكان التبن يعلو ليلامس السقف أقصىٰ الكوخ ، ويهبط حتىٰ يكاد ان يتلاشىٰ عند الباب . أقترب شبح ، فاشتاقت إلىٰ حرائق الألوان. وميزت حفيف جلبابة ، وهي تسعل سعالاً كاذباً . اختضت عندما رمىٰ نفسه ، كأنما انقلب جوفها، فنادته : اسرع . . انتظر . وشم في جدائلها رائحة مزيج من السدر والروث والحناء . أنتظر . ذهبت إلىٰ مواعيد نفش قطن الوسائد حيث تغلق أنفها وتعطس . أغراها الدفء بالمكوث بلا أمل بعد نهار نظيف تلبد فيه غبار أرجل القطعان العائدة ، وغصت نوافذ القرية . وأنزلت الأكياس بمثابة ستائر ، فصاح شاهين من الأقصىٰ : ادفعوا هذا السواد . وأخرجت رأسها من باب الكوخ لتسمع نباحاً وأصوات إذاعات ، لأن الليل لم يعبر نصفه الأول . وجلسات القرويين تطاول محاولات البق بالانتحار قرب مصادر الضوء ، رغم نهار شاق قضوه . وهي تخشىٰ فوانيسهم

التي قد تداهمها فجأة ، بحثاً عن ... ة ضائعة .. وتتراجع إلىٰ الزاوية .

أشعلت هاجر عوداً ثالثاً ، فرأت انها تمسك منذ الغروب ، قلادة سن الذئب . بعدما دفعت اليه بعض الطعام . وكيف ينام الجائع ؟. ولكنه أبعد الصحن ، ثم ترك شعر رأسه وذقنه لعبث الهواء ، وأسلم ساعديه للبق خارج الشباك ، ينظر إلى صف التين ذاوياً عند سطح المنزل . كان يأمل بذهاب الأشعة خلف منزل حلّاب، متيقناً بأن القطعان ستشبع قبل الغروب فتعود عبر الدروب الضيقة ، وهو وقت يسمح بمعابثة خرز السبحة . كان حزيناً متورم القلب . ربما كان متعاطفاً مع الهراوة والبندقية والسكين ، وربما واقفاً في الباب بعد هجوم الذئب ، حيث تمر الليلة الأولىٰ بلا نتيجة مفيدة . فيبحث ببصره ، وهو محاط بزوايا الحائط ، عن وقفة رشيقة وجريح يعوي . نفخت اللهب لأنها لا تريد الضوء الآن .

« أريد أن آكلك يا ضفدعة » . فلم تفهم عزيزة . . . وانسحبت إلىٰ الوراء ، كأن يداً تجرها من ثقب ، وهي تذكر كيف توسدت بطنه في الظل خائفة ، لا تدري .

جاءت لأجل اللحظة ، فلتذهب الذكريات إلىٰ حيث . . . يقول : سأخرج يا عزيزة . تقول : أرجوك لا

twitter @baghdad_library

تتركني وحدي . ويقترب عندما يثقبه التوسل . يقترب بحدود امتداد الذراع حتىٰ يلامس خيط الرقبة . وتنظر باتجاهه فلا تبصره لأن الظلام علىٰ وجهه . وسحبت طرف الثوب لتخفي ساقها في الظلام. يقول: لماذا تضحكين . . ها ؟ وتقول : أوه . . لا أستطيع .

ويصيح شاهين : أدفعوا عني هذا السواد لأرىٰ . . . بينما ظلت هاجر تحك رأسها بعصبية . جاء قبل ظهر النهار التالي ونام حتىٰ العصر . . ثم استيقظ علىٰ صوت المذياع . ودار حول مخزن الحطب عشر مرات . واستنشق الدخان بعمق قبل أن يشرب طاسة اللبن . أعدت له الحمام وأدوات الحلاقة، غير أنه أنحدر مع الماء الزائد . ونقل الرعاة عنه ، آنذاك ، بأنه لا يرغب بملاطفة أحد كما كان يفعل ، ولا يرد تحيات النسوة عند البئر كما كان يفعل . لعله يعاني مشكلة تخص الضوء ، فلم ينقطع عن العطاس لأنه لم ينقطع عن مراقبة نزول الشمس . وقبل حلول الليل نظر إليها نظرة غريبة ثم خرج . . .

وصاح شاهين : ادفعوا عني هذا السواد لأرىٰ . فلم يجبه أحد غير احتكاك الخفين بالأرض . وسؤال بسيط : ١+ ١ كم يساوي ؟ ويصرخ : لن أجيب حتىٰ أرىٰ . . هه . وتنطلق الضحكة الفحيحة الرفيعة ، تهز أعمدة العتمة . أما الخفان

فيثيرانه باحتكاكهما في قاعة أو فضاء ، لا يدري .

هاجر مضطربة لتأخره ؛ أتـذهب ؟ أم تنتظر الـدليل ؟ . تذكر أنها كـانت تراقب تسلق الـدرب ، ففاجـأتها سـاق تدفـع الباب وتضحك عالياً . . ورأتـه يقف بطول قـامته التـام وسط غرفة الجلوس . ويلقي ثقـلاً عن كتفة ، فصـاحت : « هاه !! كلب ميت »! فازداد ضحكه حتىٰ السقوط ومعانقـة الجثة . ثم قـال بهـدوء : « انـه ذئب يـا بـطة ، بـل الـذئب . . انـظري اليه . . ». كان رشيقاً بملامح شرسة مدببة ، وعينين غائبتين . كـان مصابـاً تحت أذنه بـرشقة من حصىٰ الخـرطـوش . قـال : « خذي أنيابه وسوي منها قلادة . أريد الطعام والحمام وأدوات الحـلاقـة . . بسـرعـة ». وتقـول : هـذه هي القـلادة . راح يضحك . . .

وتضحك عزيزة فيسألها : لمَ تضحكين . . ها ؟

فتقول: أوه . . لا أستطيع . ثم تستطلع البيئة : لم يأت الىٰ الموعد . . الكلب .

يعود الأحساس بجذب اليد الخفية ، فتقرر دفـع ذراعها لابعاد تلك اليد . تتوسل : مهلاً . . امتلأ شعري تبناً .

وتموت الأصوات خارج الكوخ ، وتبقىٰ وحيدة علىٰ سطح الأرض ، واقفة وقوف حصـاة مقذوفـة في الفضاء ، عنـد نهاية

twitter @baghdad_library

الصعود وبداية الهبوط . . .

تعتقد بأنه سألها : أين بيتكم ؟ فأجابته ضاحكة :

بيتنـا ؟ الا تعرف ؟ هنـاك ، حيث تجد حمـاراً مـربـوطـاً بشجرة ، وإلىٰ يسارك لافتـة تقول ؛ بيت القـابلة أم وليد . . . وتتمطىٰ علىٰ التبن بعدما تألف وخزه ، ثم تسند رأسها علىٰ كتفه وترغب بالبكاء ، لأنها تحب البكاء أحياناً . وتشعر بالدم الدافىء يحرك الرغبة . . .

تسأله : متىٰ نتزوج ؟. فيجيب : الآن إذا شئت . وتنسى البكاء لتسأله من جديد : متىٰ نتزوج ؟. . انتظر ، سأقول لك أنا . . ايه . . . عندما تنتهي اللوحة . فيدفعها عنه صـارخاً : اية لوحة تعنين ؟. فتقول : ايه . . . يا عواد ، لا تجعل نفسك غبيـاً . . يا أخي . ويصـرخ : اللعنة يـا عزيـزة ويضربهـا حتىٰ تتحطم نظارته السوداء . . .

ويصيح شاهين : ادفعوا عني هذا السواد لأرىٰ. فلم يجبه أحد غير صوت احتكاك الخفـين . ثم سؤال بسيط : مريم ابنـة عمران . . . ما اسم والدها ؟ فيقول : لن أجيب حتىٰ أرىٰ . . هه .

يتـوقف الصوت فجـأة ، وتتوقف الأسئلة، أو تضمحـل تقريباً . يمد ذراعيه فلا تصلان . ليس ثمـة حائط أو عمـود أو

خزانة أو جسد أو بقرة . . لا شيء تقريباً . ظلمة . سواد . هوّة خانقة ، لذا فكر بأن تجربة اليومين الماضيين . . . أية تجربة ؟ فكر بأنه ميت . أين الباب ؟ هل من سقف لهذا السواد ؟ أسئلة ضائعة. يسأل من ؟ ومن يجيب . . . . ؟ . . . .

كان الصوت يضمحل ـ انتهاء الشاي . يضمحل ـ جفاف الغدران . يضمحل ـ العمر . . . أين عظام البشر ؟

يقول : هذا الظلام . ويرىٰ الظلام . الظلام . انطفاء الضحك ، وعد بلا إثارة ـ مجرد دعابة جافة تؤدي إلىٰ ثقوب مغلقة حيث مستنقع البرد والسكون . تأتي جميع الصور والذكريات والأحلام والمخاوف والمشاعر والأفكار في لحظة واحدة واحدة . وتذهب اللغة فيعتقد بأنه ميت ولذلك يصرخ هذه الصرخات لكي يسمع نفسه . ويتأكد بأنه ينطق ويسمع . فيقول : هذا الظلام الحق المخيف الجارح الأسر المفردات ـ تجاوزها . . . الصعوبة كانت القوة مرحلة المرض في المفردة الصغيرة يمكن ذلك ، عضو من الأعضاء يمكن الاستغناء عنها كالقلب المكروه كما هو مؤلم جدير بالقذف ـ ستبقى دائماً علىٰ السطح دائماً دائماً . . دا . . . . إلا إذا كانت الخوارق شيء كثيف هابط ممتزج بوجوه الثعالب والأصدقاء ويبقىٰ السر لحظة أخيرة من النزع حركة سكين الذبح في باب المذبح ، باب بابا ـ

twitter @baghdad_library

با . . . لأجل الألم يقترن بانغراز الأصابع في فروة الشعر لكنها تنشر ولا تخفف لأنها مباحة دائماً دائماً ـ دا . . . قلـ . . . وبـ . . . عسىٰ . . . لا . . . لو . . . فردا . . دا . . بـا . . دا تحيات العمق . . . داف . . . . . دابادا . . . دابادا .

تأتي صور أخرىٰ . صرخـة بلا حبـور . وتذهب خيـوط اللغة : هذا القيد شكل الـرداء حالـة البشر ـ الدمعـة اكتشاف حديث . وما هو الرداء ضد الرداء . . ادفعوا هذا السـواد ضد الجمـال نفسه والمـوت تحول الـوجه إلىٰ رداء . . . رداء . . . داء . . . دا . . .

ليس ثمة بقعة لممارسة العري العري والتجـرد من اللغة القيدخير دليل علىٰ مجيء الغد هو البراءة قطرة عذرية الرجل في ذهن رجل آخر صورة جميلة من صور التفـاني اليائس ـ احتضن البشر تحت الشجـرة . . . البشر . . . البشر . . البـ . . با . . . سيلان الممكن في الجامد كالحـديث الجارح عن الـرمل والهـواء والنميمـة عن الجبـل رفض الفكـرة لأجـل الآخــر الآخـرين ـ الآخر . . صرخة هي اسكات من ع حتىٰ أقـاصي ك دائرة . . دائرة . . داء . . دا . . . دابادا . . . دابادا .

ولكنـه نـادراً مـا يصـل إلىٰ الإغـماء . يمـد ذراعيـه فـلا تصـلان ، إذ ليس ثمة حـائط أو خزانـة أو عمـود أو زفـير . .

ويصرخ صرخة بلا حبور ولا صوت : دابادا .

بينما يضمحل حلّاب في موسم الفيضان . أطراف صدىٰ متكسر في أذنيه . يقطع تنفسه لكي ينزلق عن خط رسمته التي فتحت عينيه بسكين البصل المحمّىٰ ويقول : جدتي ساعديني حتىٰ أقهر شاهين .

وفي لجة الظلمة مذكان ينام فوق دكة الحطب أمام كوخها الضائع . . يحتاج إلىٰ غيبوبة لكي يتذكر أطراف نصائحها ، لأن الذكرىٰ معدومة في هزّة النسيان . غير أنه لن ينسىٰ وجوه الذين لوحت خناجرهم في العتمة لتصطاده ، ولا الكلمات المبهمة التي يطلقها من هم أكثر حكمة منه . . حيث تسلل قبيل الفجر الىٰ كوخها ، فتمارضت حين عرفت خطواته ، وأخذت تهذي ، وهو يقرأ وجهها المحروث : تحذير من يد ناعمة . فجفل وعاد مسرعاً ، وقد سحب بكتفه لبنة واهنة عن باب الكوخ. وأنسته الرعدة أن يدس تحت وسادتها حزمة الورق المقدس ، لذلك عزمت علىٰ عقابه ، فغمرها وحي الشيطان ، وأبصرته عبر السقف يركض فوق سطح الكوخ فأسقطته . . . بكىٰ واعتذر .

ويبقى شاهين وحيداً، لا يدري ، مستديراً ، مخروطياً ، أشكال أخرىٰ من المجسمات يصيرها كالعجين والغرين ، ومن بعيد جداً ، صعدت سيارة عبر التواء أرضي ، فقرأ علىٰ هدي

twitter @baghdad_library

أضوائها ، لافتة في الممر : « أعقد رأس الخيط لكي لا تفوتك غرزة » .

صرخت الحريم : إلى متىٰ سنظل في الظلمة ؟ .

وحدث شجار حول ملعقة ، فتحرك الخفّان باضطراب ، ثم صوت أجش : أصمتن يا . . قحاب . فقال شاهين : كلهم يريدون الضوء ، فلماذا الظلمة ؟ . أزدادت حركة الخفيف وصرخ الصوت الأجش : أصمت يا قحب . لم ينقطع الشجار حول الملعقة ، لأن حرمته الكبيرة ـ اسمها زكية من خلال اللغط ـ تسيطر علىٰ الموقف لأنها تحمل مفهوماً خاصاً عن حلّاب ، فقد عاصرت تحولاته المختلفة ، إذ أخذها بعد تجربة مساومة ، لا بسبب قصة حب ، لأن أباها كان مديناً لحلاب بكيس قطن ، فاحتملت رفساته طوال سنين الأرق وهو يقوس جثته باتجاه الأرض ويداعب لحيته الشبيهة بضماد أسود . وقد حكت لجاراتها عنه الكثير الكثير ، مثلاً : حلّاب يكتئب من نفسه ، ومن البشر أيضاً . يحب أن يمزق ملابسه ، هكذا ، بدون حادثة ضرورية . يفكر وحده ، ويتمنىٰ أن يتلف أعصابه ، فتتيه أفكاره . لا يفكر بشيء معين لأن العزلة تعجبه كالقهوة . بعد حادثة صغيرة ، أي كلام يثيره فينهمك في العمل بلا رغبة تخص الحديث أو الطعام . يتألم لرؤية الفقراء . وإذا

حكم في أمر ينقلب الىٰ الحق والبكاء قبل تناول علاجه . يمسك رأسه بسبب الألم ويتعذر عليه الاستمرار ، ويرتخي لسانه طبعاً . دخل ثلاجة المستشفى وأخرج قريباً له بعد حادثة طريق ، أخرجه خشبة وعيناه الىٰ الخارج وبطنه ورقية في الساعة الواحدة ظهراً ، أول يوم من أيام العيد . . ثم بقي ثلاثة أيام بلا طعام منعزلاً عند حافات بركة الضفادع . . لم يدخل أحد إلىٰ الثلاجة ، تراجعوا ، لم يدخل أحد . . كان هناك بعض الرجال والنساء والأطباء فوضعه في نعش طبعاً ، واعتبر الموت شيئاً عادياً عندما رأى الميت بتلك الصورة ، عيناه الىٰ الخارج وبطنه ورقية ، لأنه لا يخاف الموت .

إذا طلب حاجة يعني يريدها فوراً ، وإذا لم ينفذ طلبه يخرج عن نطاقه ويتيه ، ثم ينظر إلى يده فيراها بعيدة عنه ويطيل النظر بأصابعه ـ كل أصبع بطول رقبة أفعىٰ . مع أنه يجد قدميه بعيدتين فيرفعهما عن الأرض فلا ترتفعان . ويطبق أسنانه، هكذا، بلا أية قدرة علىٰ الحكي . يتناول العلاج ـ وبعد العلاج ، يتغير نظره إلىٰ الأشياء ، فإن تكلم شخص معه بأي أسلوب لن يكون انتباهه مركزاً فيما يقول : لأنه يمقت الضوضاء والمجاملة وحساء العدس والنوم . . جيد إن نام ساعة ، مهما كان مفعول الأقراص . قال لزكية مرة : « أخلاق الناس بنظري . مرة مشيت مع صديق ، واحد في المائة يعطي الصداقة حقها . .

twitter @baghdad_library

مصالح ». . وتقول لجاراتها عبر سنوات الأرق : عاطفته محدودة تجاه النساء ، فلا ينظر إلىٰ الحرمة في الطريق لأنها ضعيفة . يعجبه الظلام . . . الظلمة هدوء . وبعض ردود الأفعال حين ينظر إلىٰ جسده يصغر ويصغر حتىٰ حجم الأصبع عندها يحب سعادة عائلته، هذا هو طموحه . وإن أثار صديقاً أو غريباً ندم . كانت لديه` انفعالات . . الآن إزدادت . يحب إيذاء نفسه علىٰ أن لا يجرح الآخرين . لذلك يسقط غائباً عن الوعي بعد أن يحطم ما بين يديه . ولكنه يعتقد أن الناس أكثر خطأ منه ، وأحياناً يجعل المسيء يصطدم بالحقيقة . ولا يعير أهمية لرتبة شخص إذا انفعل . مرة تاه عن البيت فاستدل بمواء القطط . . . الخ ومرة أخرىٰ جاء النقار : هذه ملعقتي يافاسدة . . انتظري حتىٰ نُضاء ونرىٰ . سأضربك بالحذاء ، بل سأنتزع خاتمك الذي اشتراه المحروس أيام رحلة المدينة . . يا عيني .

ويصرخ شاهين : يا عيني يا عيني . . يتكلمون عن العين في الظلمة. يقول الصوت الأجش : تصرف يا شعبان . فسكت الجميع بعد أن تسلل بعض الضوء من الممرات القصيّة ، واستطاع أن يرى القبتين المجروحتين ، كعيني احدىٰ الحشرات النادرة . والقوام محاصر كجذع احدى الأشجار المنسية في فضاء ممزق السواد . فضاء يشير إلى حافة الأرض ، حيث الامتداد

اللانهائي بلا نجـوم ولا كواكـب سيـارة . بلا فـائدة من انتـظار شهاب يسقط . وبدا أكثر بساطة وتسامحـاً . علامـات جسديـة ذابلة . حركات تدل علىٰ صعقات تدل علىٰ ارتخاء الـرقبة تـدل عـلى الوجـه المبعثر تـدل على الاحتمـال تدل عـلى لحظات قبـل القيامة .

كان يتحاشىٰ الاجابة خشيـة الصفع ـ رجـل في الباب ، حيث مكانه الدائم ، مسؤول عن الصرير ومناداة الأسماء . وهو أحمر رغم صعوبة الأبصار .

يقول الأجش : أنت ابن رجل عـظيم . . مرحـوم . ما هذه الغطسات ؟ أنت واحد منا ، نريـد مساعـدتك ، أجب ، كم أصبعاً ترىٰ ؟

وماذا تعرف عن عـلامات المـرور ؟ يقول : لا أرىٰ ، لا أعرف . يقول الأجش : انظر إلىٰ يدي ، كم ؟ . . أجب هيـا أجب . . فيقـول : لا أعرف . يقـول الصوت الأجش : أنت مخبول . . أرفعوا قطع الكارتون . حركة . ضوء . صراخ : هـ هـ يـ يـ . . . يهتف شاهين : ضوء !! .

كانت الجدران قريبة ومصدعة ومليئة بالمسـامير التي كسر بعضها الصدأ .

twitter @baghdad_library

قال حلّاب : بامكانك الذهاب الآن . . ولكن تذكر ، ها، يجب ان تكون هنا منذ الرابعة صباحاً . .

فأجابه : إذا كان لابد ان اجيء ، فلماذا أذهب ؟ .

يقول : بل تذهب . يقول : لن أذهب هه . يصرخ به : يجب أن تذهب .

تندفع جلبة في الممر ، وصوت : ماذا فعلتم به . . أين ولدي ؟ .

يقول حلّاب : لماذا تصرخين يا هاجر ؟ كنت اعلمه الحساب لأجد له مهنة مناسبة .

اقتربت من جرحيه : تف . ثم سحبت الولد . .

خلع الليل نصفه الأول ، واكتملت احلام المبكرين في النوم . بعدما ادعىٰ حلّاب بأنه قدم للمخبول اختيارات الخسارة التي منحته الرقة وسط اللجة ، لأجل نظافة القرية ، مساقاً بدافع خفي . . لا يميل شاهين إلىٰ اعطائه صفة الغيب ، لأنه مفهوم بقدر اهتمامه به ، رغم امكانية تجنبه في هذه الأيام الشبيعة بالزبيب لأنها شبيهة بكل جهد ضائع .

يعتقد أنه توصل إلىٰ حافة الفهم الذي يحوّل كل غامض مقدّس إلىٰ شيء ممكن اللمس والرؤية . ولطالما هرب لأنه لا يجرؤ علىٰ تجنّب المؤذي ، عبر عوامل الكذب الضرورية في

تلطيف اليوميات التي لا تنفصل عن الأهتزاز أمام الزاوية، حتىٰ ابتسامة الجلوس اثناء رشف الشاي . لقد حلّ الـوقت الذي لا يستطيع ان يمنع نفسه من الضحك العلني . . .

رآهم مجدداً ، مثل كل يوم ، يضحكون في صلاة دامعة ، وقد مزقتهم ساعات النصف الأول ، وساقتهم الىٰ قطع الضحك بالتثاؤب ، حيث يفتح الواحد اقصىٰ الفتح : هاه . . تعبيراً عن التفريغ التام لهبوب الزوابع عندما تجرب قوتها في السقوف ؛ السماء القريبة ، داعية الأمن القريب . لكي يغذي نار الحنين إلىٰ ضرورة الجسد الآخر تحت اللحاف . إن كل ما هو كفيل بإزالته، كفيل بمحو ترتيبات الضرورة بعد جلسات الشاي واختيار الحبل الأحمر من حيث ملائمته لفصل السنة ، لأن اهميته أصبحت بالنسبة للضاحكين كأهمية حصاة في زمبابوي - عبر نشرة أخبار مجاعة السود . لعبة الموازنة التي تخلىٰ عنها في تناظر مساند الكراسي ، ونوم الأشخاص ؛ قدم عند رأس ، رأس عند قدم . لم يكن أي واحد منهم ليتساءل : هل يحق لنا الضحك ؟ منطلقاً من اعتبار عدم سعادة النافذة المقابلة .

لم يتمكن من الاجابة ، لأن الأمر مرهون ببعض عمليات الأحصاء التي عجز عنها أمام حلاب : « ١ +١ . . كم يساوي ؟». لكن الصراخ يرتفع كشيء الىٰ الأعلىٰ، لا كصوت يزداد .

twitter @baghdad_library

ويصير بعيداً . . بعيداً . ويضحك في داخله ، ثم يفتح عينيه فلا يفاجأ بضوء النافذة ، ورفعة الأثاث ، والسجاد المزّين بطواويس وأعراف هداهد ، وذكرىٰ المعذب صابر بعد ليلة المطر . ولكنه يفاجأ بقوة الضحك تقريباً ، لدىٰ المرأة التي لم تكن قادرة علىٰ الإحتمال ، فأسندت رأسها فوق « صابر » ناطحة ، وهي تهتز بحركة تدل علىٰ الذبح وتقطّع الأمعاء . . ثم تنهار ، ويبقىٰ صدىٰ ضحكتها صاعداً من محل السقوط ، باتجاه مكان الخفقة الأخيرة لقميصها المهتز ذي البقع الحمراء .

ينخفض صوتهم تدريجياً بعدما غلبهم النعاس . يتحول الكلام إلىٰ همس ، فيقوم أحد الرجال ويقعد لصق المرأة الباقية ، وهي مستمرة في الاهتزاز ، لا بسبب الضحك بل لأنها ترقّص ساقيها تحت الـ . . . إذا كان ثمة منضدة أصلاً ؟ .

تهمل رأسها إلىٰ الوراء فتسمح له بأكل عنقها ، وتموء ، وتدفعه بحركة تدل علىٰ الاحتضان . أما الآخرون فقد غطّوا عيونهم بأكف مثقوبة ، وأسدلوا فتحات الضحك تقريباً . ينحنون قليلاً باتجاه نور أحمر راقص .

يلتفت الرجل الذي اكل عنق المرأة ، فيرفعون أكفهم ، ويبدأون بنوبة ضحك تزهق النعاس وتطلع المرأة بعدما رشوها بالدموع الطافرة ، فتثمر كرتين بيضاوين ، بازاحة القميص ،

وأغصاناً من الشعر المبعثر ، لتشاركهم وهي تتمايل في ريح أول القهقهة . . . .

يحاول شاهين أن يقفز نحوهم ، لكن الهاوية . . . . .

يـأخـذه الضحـك ، يغلبـه ، فيضيـع بـين نشيـد ست فتحات ، منتبهاً إلىٰ فتحته الصغيرة في زجاج الشباك ، إذ ينقـر الحافة بـأصابعـه فيرتـد نحو الـزاوية ، ليحـاول الاهتزاز . . . ويفشـل شاعـراً بـالحقيقيين والمـرأة ذات الأغصـان ، الـطيبـة المـريحـة المثمـرة عبـر طعنــة القميص ، رغـم بـرد الخــريف ، والاستعدادات الأخيرة لسبات الضفادع ، مروراً بفسحة حلّاب وهو يخدش الغجرية بخبزة جافة . أطراف مأدبة . الـذكريـات والأغاني . الباذنجان علىٰ الجريدة حيث الموضوع الخاص بمجاعة السود . براعم أصـلاب الرجـال الخارجـة نحو الأسن . أيـام شبيهة بالزبيب لأنها شبيهة بكل جهد ضائع . .

يتمـطىٰ النحيف ، وتغلبـه الحـاجـة إلىٰ وشيش مستنقـع الغطس ، لحظات استبدال القميص الذي امّحت نقوشه بنفس القميص الذي امّحت نقوشه . وأتته الفـرص كثيرة ، لإعـلان نتائج التجربة ، غير أنه كان يخاف سلامة النطق ، فتضيع بعض التجـربة ، غـير أنه كـان يخاف سـلامة النـطق ، فتضيع بعض الحروف ، ثم الكلمات جميعاً ، ثم الصوت ، باستثناء صـرخة

twitter @baghdad_library

يتقنّها ، لا تعني شيئاً أو أحداً . صرخة بلا صوت ولا حبور ، صادرة عن أسفل القصبة الهوائيـة ، عن أسفل الشعـور المدمـر بغلبة فيضانات الهند ، من خلال نشرات الأخبـار . عن أسفل الأسماء والأفعال والصفات وروائح الآخـرين . أسفل أي شيء آخر . .

ولكنها محض صرخة في الفراغ : دا ـ با ـ دا . . .

لـذلك كـان الضحك بعـد المحاولـة . الضحك دائـماً . الضحك الضحك الضحك . . إلىٰ ما لا نهاية . . .

وهـو يحس ، هذا الـذي اسمـه شـاهـين لأي سبب من الأسباب ، بألم الأشجـار عندمـا تنزع أوراقهـا الميتة ، بصـراخ النهـار حيث يبتدأ وعـذابه حينـما ينتهي ، بنمش الذبـاب علىٰ جـدران البيت الجصي . ويحس بثقل قبـة السلحفاة ، وعـذاب الحلزون بسبب القوقعة . يحس ، وهو شاهين ، بمرارة الزفير ، وألم طرفي المسمار ؛ المطرقة من طرف ، وصعوبـة الاختراق من الطرف الآخر . وبكل شيء تقريباً . لذلك فهو ميت الحس في نظر كل شيء تقريباً .

ووصفـوه للصحفي الـذي كتب عن حـلاب افتتـاحيـة ضخمة لاحدىٰ صحف الغرب ، فأطلق كلمة غير مفهومة : » unexitsim « . فقالوا عبر المترجم : « اكتب عنه يا مسـتر . »

فرد منزعجاً :

« OH .. we have many of this Kind in Europe .» .

ويظل يجرب بلا إعلان ، مأسوراً بعزف الحنجرة في حالتي المنفرد والجماعي ، لأن للبعض صوت الرباب ، ولتجار القطن صوت الآلات النحاسية . وها هي النابتة أمامه ، تثمر بعدما رشوها بالدموع الطافرة ، كرتين بيضاوين خلال تفتق القميص ، وأغصاناً من الشعر المبعثر ، لتشاركهم مهتزة بهواء أول القهقهة .

وينحنون نحو الأسفل بحركة ضاحكة رافعين بعض الأشياء من مكان إلىٰ مكان قريب . وفجأة ، بدون إعلام أو علامة ، ينطفىء الضوء ، فتتحول الغرفة المرتفعة إلىٰ شبح عش اللقلق محاطة بفراغ الظلمة الممزق ، بفعل الدفقة الأولىٰ لحنين القمر إلىٰ مناجيه ، لحظة ابتداء يقظة بعض الزهاد كالعم مسعود لكسب أجر الصلاة المبكرة ، بعد أبواق الديكة . .

ولكن الصدىٰ الانساني ، عذاب الأشتياق إلىٰ الأثر ، لمسة زغب الوجوه عند العناق . المناجاة . المناجاة الطيبة ، الرقة الغالبة ، الفضاضة المقبولة . فم بفم . عين بعين . امتداد الأشياء كخطوط في الهواء باتجاه النصف الأسفل المحطم للبوة الجريحة . . فأين هذا ؟ .

twitter @baghdad_library

سمعهم ينزلون إلىٰ الجوف ـ اي جوف كان ، مهما كان ـ ضمن شبح عش اللقلق . فالمهم أنهم ينزلون حسب صدق الوقع . وقع الأحذية علىٰ السلم . السلم المؤدي إلىٰ مركز كرة الأرض . الأرض التي تشرب مسراتهم . مسراتهم الباقية كخفقة انقطاع النفس لطائر ساقط عن ارتفاع . .

يحس بأنه حزين . ليس حزيناً بالضبط ، وانما يريد أن يبكي ، وهو يراقب صوت الفجر المتسلل بين الأحطاب وقصب السقوف والانطلاقة الاولىٰ لعصافير العراق . .

يأتي صوت العم مسعود منغماً بسبب التواء الأرض : الله أكبر أكبر . . الصلاة خير من النوم . . الله أكبر . .

يحاول رؤية الخط الأسود لطيور سماء النافذة ، لحظة دخول رائحة المزارع . . وبعد دقة حاسمة من دقات الساعة . يداه مفتوحتان في الظل للأمساك بشيء ما . فيرتد ؛ فنشفته ، رفوف القواقع . ملابسه التي لم يستعملها منذ عشرين عاماً وقد صارت صغيرة لا تكسو جزء الساق . ومنذ ذلك التاريخ تصعد هاجر إليه : الا تفطر ؟ .

فينزل حيث اللبن الرائب وبخار الشاي ، ويسمع نشرات الأخبار الأولىٰ : « زلازل . فيضانات . أخبار مجاعة السود . محادثات نزع السلاح النووي . عمليات الفدائيين العرب .

جلسات مجلس الأمن . أرهاب عالمي . مخدرات . فضائح سياسية . تجسس . جرائم . خطف . حروب . انقلابات . انحلال . أسلحة جديدة . . . الخ » .

وتنظر ليه باستنكار شديد ، وقد نصفت حدادها المعاد بوصلة من حبل الغسيل . فيشعر بالهاوية ممتدة من جذور السدرة حتىٰ حافة السماء ، رغم ندىٰ أوتاد الفولاذ ، والأشياء التي لا يحتاجها المرء ، مع ذلك يعتز بها . يفرك اذن المذياع : « رجع أيلول . . . » وتذهب هاجر بالأغنية حيث الغطاء المخصص لها علىٰ الرف ، وتبادلها بمدية فضية منمشمة بالصدأ : اعرف بأنني عاجزة عن اقناعك بعدم الذهاب إليه . . فاحملها لا لتقتله بل لتتشجع . فيدفعها قائلاً : هذه الأشياء ، يحب هذه الأشياء . تقول : أعلم ، يحبها لأنه يخافها . . فاحملها . . اتوسل إليك . يقول : تتوسل إليك لماذا لا تحملها . . انها تتوسل . ويسقط المدية في جيبه ويخرج .

كانت الشمس قد تحررت من التلال عبر طريقها المألوف إلىٰ منتصف القبة النحاسية . فأنزل عينيه حتىٰ استقر بصره في نهاية قطيفة الطحالب حيث صخور البئر المحززة بالحبال . .

يعتقد أن ثمة امرأة تشير اليه : اقترب . هي التي تشير فيتلفت ليتأكد إن كان هناك شخص آخر تقصده ، فلم يجد غير

twitter @baghdad_library

شاهين . ويجيئه نداء منها : ألست . . . أنت اقترب هنا . يقول لها : أنا شاهين . تقول : نعم أنت ، اقترب . ويهرول بسبب الانحدار لا بسبب الفضول ، فلا يعرف كيف يقول لها ، صباح الخير؟ . تقول المرأة : عزيـزة تقول بـأنها تنتظرك عنـد السدرة فاذهب إليها . .

يقول : ها ؟ عزيزة تنتظرك عند السـدرة . لماذا تنتـظرني عزيزة عند السدرة ؟ . . . سأذهب إليها .

عندما دفع حلّاب غطاءه وأزاح ستائر السرير المعد لثلاثة أشخاص ، أبصر الشمس جالسة علىٰ أغصان شجرة التـوت ، والعصافير تستحم بالضـوء . لم يقل ؛ صبـاح الخير لـزكية التي استيقظت قبله بساعتين . فبصق علىٰ الحـائط بعدمـا حملت إليه أنسام الصباح رائحة قمامات الحفر ، لأنـه نام عـلىٰ أمل أن لا يستيقظ قبل قرن .

كـانت شفته العليـا متورمـة أثر قـرصة حشـرة . وكانت القطط تغازل أذنـاب بعضها في الممـرات ، عندمـا نزل العتبـة فوجدهم يسلقون البيض منذ الرابعة . فأبصره مخـدراً يجرّ وزن النعاس ، وهم يطرقون علىٰ السياج بملاعق النحاس ، فلم يتبين اللحن لأن الصوت قبيح بفعـل رائحة البيض النيء ـ وشعبـان يشرب البيض النيء لكي يصفو صوته في الغنـاء ، وفق المفهوم

المتناقل - وصرخ بهم : أوقفوا هذا الدقّ . . ألم يأتِ المعتوه بعد ؟ . فهزّوا رؤوسهم بحركة واحدة علامة النفي .

غاب في الممر لحظة ، ثم خرج بالعباءة والمسدس ، واقتاد صديقه إلىٰ البركة ولم يقل له ؛ صباح الخير ، بل قال : ففاح الخيف . لأن شفته العليا متورمة بسبب قرصة حشرة . وظل صامتاً بعدها حتىٰ البركة . وهناك ، كسر غصناً ، ثم بصق علىٰ عيدان شجيرة العنب . وراح يتدلىٰ بغصن شجرة اخرىٰ ويقول : لا زلنا علىٰ أمل ، أسمعني أقدم لحن لديك . . آه ، انني أرتاح لتلك الأيام . وسقط خفة في الماء .

يبدو شاهين محايداً في وقفته تحت السدرة ، محايداً تجاه كل مواضيع الحياة الممكنة ، بالنسبة للمارين به نحو مزارعهم ، باستثناء لعبة الانتظار التي يأمل أن تنتهي عندما يجد فيها بعض العزاء ، علىٰ اعتبار أن الأمر سيثبت طرفاً منه بمثابة مشجب لكي لا ينزلق الطرف الآخر إلىٰ النسيان . .

وجاءت بقميص برتقالي لأنه أبصر خطوتها البرتقالية علىٰ طرف التل هادئة منكسرة . ففكر ؛ هي التي ضربت له موعداً ، مؤكداً لنفسه لكي لا يسقط في الحرج ، يوم نزهة الكلاب علىٰ التلال القريبة .

رأىٰ ابتسامتها الخائنة ، فعرف مقدماً بأنها لا تريد قول

twitter @baghdad_library

شيء معين ، وربما لا تعي سبب المجيء . ولكن الـذي حدث كان نوعاً من التحالف علىٰ تجديد الصراع . فكـان الأجدر بـه الأنصراف إلىٰ حلاّب في الرابعة صباحاً .

يقترب وجهها المدبب حتىٰ يصير اكثر وضوحاً في الظل ، فيتمكن من رؤية بعض الكدمات ؛ زرقاء محـاصرة بـالبياض . يشـير إليها : مـا هذا ؟ . تقـول : لا شيء . . انها كدمـات . فيقول : أرىٰ أنها كدمات . . ولكن ما هذا ؟ . تقول : قلت لا شيء . . آه . . سقطت من السلم .

يقول : لا شيء ، سقطتِ من السلم . . انزلي علىٰ مهل درجة درجة يا بنيتي . . درجة درجة . وتضحك فيرتاح . وتقول لـــه : أنـا التي طلبت منـــك المجيء . . وجئت . . لأقـــول ، لأقول . . . لا أريد أن أقـول شيئاً ، يـرفع صـوته قليـلاً : بل تريدين . . اعرف أنك تريدين . فتنـزل رأسها إلىٰ الأسفـل ، مفككـة لأنها غير مشـدودة بالخيط القـطني الغليظ ، فبـدت لـه صغيرة قياساً إلىٰ الأحجار . صغيرة وضائعة . صغيرة وفاقدة . فـاقدة شيئـاً عزيـزاً ومهماً . مهم لأنـه حساس . حسـاس لانها قـالت : عواد . وكلمـات اخرىٰ مبهمـة . مبهمة لأنـه سـافـر بالقطار إلىٰ العاصمة . العاصمة بيت الشهرة . والشهرة خسارة للجميـع . والجميع يخسـرون بذهـابه . . وذهـابه مفـاجيء لها

كوقعة من السلم . والسلم درجة درجة . . علىٰ مهل .

يقول : ماذا يعني ؟ هو الذي سافر إلىٰ العاصمة لأنه يريد أن يسافر إلىٰ العاصمة . . اما أنتِ . . ماذا ؟ . تقول منتبهة : ماذا ؟ . فيقول : لا أدري . وتبكي . . .

يخرج سيجارة من بقايا عواد ، ويتأمل تصالب جذور السدرة، ثم السماء الشديدة الزرقة ، بدت له بأنها غير مندهشة أزاء بروده . لكنه يعرف أن حركة ما علىٰ وشك الحدوث ، حيث يلتفت فجأة ليضع أصبعه أمام مجرىٰ الدمعة . فجرته من طرف الرداء حتىٰ لامس نهدها الصغير أبرة ساعده الأيمن ، فارتجف خائفاً بدرجة يصعب احتمالها حتىٰ أطراف الصراخ . ولكنه فضل التدخين بحركة تعطي الرجل صفة ممتازة عن المرأة . بكثير من الغرور ، بذلك التخريب الخاص لعادية العاطفة ، نافخاً الدخان بعد السعال نحو الفضاء ، صعداً وذوباناً في الفضاء . ضحكت : يا الهي . . أنت رجل عجيب . فألغت هذه العبارة الكثير من طرق الدوران حول الحقيقة . وانفرجت عيناها عن ضوء وضع أمامه ، باختصار شديد ، وقائع ولادة أطفال العالم ، في الخط المستقيم لمستقبل البشرية ، مباشرة دون أي تمهيد منطقي . .

تأمل عزيزة ـ لم يتأملها ـ لكنها فرضت عليه صفاء

twitter @baghdad_library

الوجود ، وألغت بكل بساطة ، وبحركة واحدة من رأسها ذي الشعر المبلل ، تفاصيل الخوف والحب والاستعماروالنميمة ومجاعات السود عبرنشرات الأخبار ، ومرارة التسلق . تلك المليئة بالبكاء . نادرة . تتكون وتقفز فوق اليوميات وتمثل أمامه مبينة أنها تميل ألىٰ حيث يشير ، وتفجر فيه ينابيع الضحك الحارة . أليست جميلة كزهرة سامّة ؟ . تلك القائلة : « أخاف اللذة » عندما سألها عواد آنذاك ، أن يلتصقا حتىٰ وقت متأخر من عمر الأرض ، وبين عظامهما المتشابكة علىٰ التل تنبت شوكة طرية حيث تبتل العاطفة يرذاذ مطر الفجر ، وتطرح الأغصان جميع أوراقها الميتة في خطوط السيول وتتبرعم معلنة عن ابتداء فصل جديد سماه ، فصل القوة : أ . ب . جـ . تعلم مبادىء تصفيف الشعر من خلال الشطرنج ، ومعرفة مواقيت وجوب البكاء من طريقة ارتداء الجورب . لكن الأمور التي ظلت تعذب عواداً بمثابة لغز لدىٰ الأصحاب والأعداء معاً ، وظل يبعد فكرة : انهم يتحدثون عنه حيث كان يحسهم في الأشارات أو المواجهات الصريحة المغلقة بالمجاملة . فكانوا يدفعونها إلىٰ الجدل بقصد تدريبها علىٰ نكرانه ، وذلك بالاغراء في وجبة نادرة لأجل زيادة الوزن ، مستغلين نحولها واصفرارها الذان يحبهما عواد .

وهي تعرف أن المقارنة بوضعه أمر فوق الأحتمال ، لأنها كانت تحييه عبر زجاج المشغل وسط الجماعات الضائعة ، حتىٰ

تزداد غيرته فيصبها ألواناً حارة علىٰ الخشب . وكـان هذا الأمـر سبباً كافياً في تأخـر نضوج ألـوانه ، فلم تقـدر تلك الهمهمات اللونيـة رغم كل الأرتفـاعات المبـررة من قبله ، والتي اعتبرتهـا غروراً ، إذا ما قيست الأموربمؤشر دحر شخصيتهـا . . . فتعبر عن تلك الحالة بالضحك المرتفع الغارق ، بصحبة الآخـرين . ولكن علم الآخرين لم يتجاوز التأكيد ، بأنه حـين يكتب واجباً مـدرسيـاً عن ديـدان الانكلستـومـا فـانـــه يـذكـرهـا كعلة في الهامش . . .

لا يعرف شاهين هذه التفاصيل التي افتضح بعضها بتبادل النظر . وهو شاهين ، يحس بألم المسمار ؛ المطرقة من طـرف ، وصعـوبة الاختـراق من طرف آخـر . . . حتىٰ مصاف الـرجفة والخجل من النظر إلىٰ الطبيعة .

وتقـول : جئت كما تـرىٰ . . فلا تعتقـد بأنني أحبـك ، أتفهم . . . لا أحبك . ثم مضت ببراءة حجر ساقط . وشعر ، بوحي من نشرات الأخبار ، بمنظر الأرض بعد الحرب النووية ؛ سكون نحاسيّ ممتد في فراغ لا حدّ له . .

السماء وحدها، لم يكن أي شيء قد تحرك . . الفضاء بكل اتسـاعه . مـا من شيء يثير الضجـة . مـا من شيء ينتصب أو يهتز . لا شيء . . لا شيء . .

twitter @baghdad_library

خاف شاهين ، وهو لا يخاف تقريباً . وصرخ بكل ما يملك من هواء مخزون عندما كانت تتسلق كتف الوادي : عزيزة . . فتوقفت دون أن تلتفت . وقال بهدوء : هل قلتِ لي مرة أن اسمكِ . . عزيزة ؟ . .

ذكرت زكية لجاراتها بأنه لم ينم طوال الليل وظل يقوس جثته ويداعب لحيته الضمادية ، وهي تنثني مع غضبه وتحمص قهوته علىٰ الجمر ، وتعرفه من خلال تبدل شكل جرحيه فقد عاصرت معظم تحولاته .

بينما يطلب من شعبان أن يسمعه أقدم لحن ، سقط خفه في وحل البركة . فاعتقد شعبان بأن زكية تهتم كثيراً بتهويل الحوادث . فيعقد يديه علىٰ صدره حتىٰ يبدو للغريب بأنه مقبل علىٰ نوم ، ولا رغبة له في سماع خبر يخص الآخرين . ولكنه يسأل في السر عن حادثة شجار زوجين آخر الليل .

أخذ يحزر كمية « الخردة » في جيب المتدلي من خلال صوتها المهتز باهتزازه . يكشف مع نفسه مسؤولية حلّاب في قضية أختفاء محمود ، لأنها بقيت محاطة بالسرية التامة . وقد فسر له الرجال المهتمون بشجر الأنساب بأن محموداً لا يمت اليه بصلة قربىٰ ، باستثناء وقفاته الشهيرة في طلب أرجاع الحق

لأصحـــابـه ، وإلا كيف يقــدم علىٰ إخفـــاء شخص آخـر لا يعرفه ؟ .

لقـد روي الكثير لشعبـان عن فتنة ذلـك المسـاء ـ مسـاء اختفاء الصياد ـ إذ شكر أصحاب القطعان رعاتهم عندما تلمسوا بطون النعاج فوجدوها منتفخة شبعـاً . وكانت النهـارات ذهبية خالية من إزعاج البعوض . . وحيثـما يمتد البصر ، ثمـة هشيم يكفي الـدواب طوال مـوسم القيظ القـادم ، فينتـظر الناس في موسم كهذا ، ذيـوع أغانٍ جـديدة . إذ سـألوا بعجب : كيف استطاعت التي اعتقدنـا بأنها بلهـاء من حياكـة أغنية حلوة ؟ . ومهـما كـان اسم هــذه الفتـاة ؛ خــديجة ، أو فــاطمـة ، أو سعـدية . . . . بينما كانت هـواجس حلاب غـامضة ، وقـدماه تنفضان بذور الخباز الجاف وهو يخطو ملتذاً بانسحاق الهشيم .

كانت البيادر تهب نفسها للهب مجهول ، وتُخرّب مضخات المـاء ، وتُبعج السـواقي التي ترفـع الماء فـوق المنخفض . بلبلة وأحداث أُلصقت بالرجل الضـائع خلف أرنب مبقـع . بعدمـا كان الناس يرونه في أحلامهم منصفاً بحـزام الخرطـوش لثلاث سنين تاليـة ، وقد بلله مـطر التيه وعفـرته كـدمات البحث عن البيت . . حتىٰ أنه شرب الشاي في منزل أرملة منسية عند طرف القرية ، وشرح لها حسن نواياه وحقيقة براءته وأشتكىٰ لها ظلم الناس .

twitter @baghdad_library

كانوا يستيقظون علىٰ صوت الديكة فيجدون الخراب ؛ نوابض مضخات الماء منثورة مسودة بالاحتراق ، أما بكرات التشغيل فكانت ضائعة في الحقول ، حيث الأحواض المهدمة ، واختلاط زيت المحركات بماء الآبار ، وقد ماتت جميع ضفادع التسلية في لحظات الراحة . .

تعبت رقبة شعبان من متابعة اهتزازه ، فخمن أنه ، ربما ، يعاني من فتق تحت السرة ، وأن الطريقة اكيدة العلاج ، ولكن الفتق لا يبين في صورته المعكوسة علىٰ الماء كلقطة تحتيه بسبب الكدر الذي أحدثه سقوط الخف .

أطلق صوته ليجذب حلّاباً إلىٰ السكون والانصات : « أقضي الليل أعد النجم بالجوز ، عالذي نهوده بيض لب القطن بالجوز . » وفرح المتدلي بهذه المبادرة ، فقفز بعد هزة عنيفة إلىٰ اليابسة . وسأل شعبان : أتعتقد بأنه أبله حقاً ؟ . . أكيد أكيد . وأكد له صديقه مشيراً ألىٰ صدق تخميناته السابقة عبر وقائع كثيرة تخص تخمين وزن بعض الأكياس ، وغلبة نوع محدد من الزحافات في دائرت ضوء السراج المستورد ، ثم تحقق التوقع الشهير بأن الشتاء القادم سيكون بارداً قليل المطر .

وفرح لأن صاحبه يعرف مزاياه ويبارك صدق أحكامه ، حتىٰ صار علىٰ يقين تام بأن ابن الصياد مجرد أبله لاضطر منه . .

أشير إلىٰ مجيء شاهين عندما بدأ هواء ما بعد الظهر بالهبوب محملاً بشذىٰ أشواك السفوح ، ماراً فوق حطام مزارع القطن وقناني الدواء التي زرع الصبيان بصلاً في فوهاتها . وتحركت خيوط العناكب قرب الأعشاش .

فكان المجهول القادم يبشر حلّاباً بالقوة التي القت الفخ أمام أصابعه وحرمت عليه ساعات المتعة بوفرة المحصول ، وأعطته سنوات الأرق مأخوذاً بشهوة الفيضان والبرق وموسم تزاوج الضفادع ، حين ينام فاتحاً جرحيه وماداً رأسه عبر فجوة الباب إلىٰ الطريق ، حيث أسراب العجائز تحبس في الصدور السليلة نبأ عن رجل مات بسم الفئران ، فيجعله مثل هذا الحدث يكتئب فيهوي برأسه علىٰ الوسادة منتظراً حدثاً آخر ، صارفاً الساعات الطويلة في حبّ أشيائه ؛ الطابوقة التي تمنع الباب من الانزلاق ، المسمار بمثابة مشجب ، السرير الذي صارت نوابضه مرتخية . . .

أنتظر شاهين ، وهو صغير بالنسبة إلىٰ الجدران ، ينتظره ويدور حول الأكياس المشنوقة . يدور فتتحول عيناه إلىٰ حصاتين ثقيلتين بسبب النعاس فلا يرىٰ البيت الجصيّ مثلما كان يراه سابقاً . مجرد أعمدة ودهاليز منمشة بفضلات الذباب ، وسلال ودراجات هوائية محطمة . حطام دراجات وكوىٰ لأجل متعة

twitter @baghdad_library

الأبقار النافقة في الروث . وتلال من الروث تغمر بعض الأشجار ودكات الحطب . ودكات حطب سودها حداد النساء وأمطار المواسم الماضية . رجال ونساء في حركة دائبة ، حركة رواح ومجيء نحو الفتحات ومنها . أصوات وشتائم وتساؤلات وإشارات تقصده أحياناً . فكلما مرّ شخص توقف أمام وجهه متعرفاً ومشفقاً . . . ثم مضىٰ يؤرجح ذراعيه في حركة الغصن المكسور .

يقف مستعملاً جرحيه . حلاب أمامه . قسمات عبر الغبار والملمس الرؤي لأنفه . شارب مبعثر فوق قرصة الحشرة ، بسبب قرصة الحشرة . جلباب مهمل بقدر ما هو فاخر .

يؤكد بأنه يرىٰ لأول مرة رجلاً بهذا الذكاء . ينظر هذا الرجل إليه ، مثلهم ، أحياناً ينظرون إليه ولا يقصدوه يبتسم هذا الرجل ، بهدوء ومكر . . بقوة . . يضحك ضحكة الممر المعتم الفحيحية المليئة بالمعاني الباطلة . وتظهر عيناه ، تقريباً ، ، كألتماع علبة تبغ ، ويقول : أفسدنا نومك . . أستاذ . ويبصق أمامه فيتأمل درهم البصاق المصبوغ بلون القهوة والنيكوتين والكلمات البذيئة ، بلا أي أثر لقبلة حقيقة . يسأله : هل من خدمة ؟ ماذا في وجهي ؟ . . لطخة حمراء ؟ ! . ويضحك تلك الضحكة ثم يشر إلىٰ شعبان ، يطوّق رقبته ، ويسحبه ليسر في

اذنه كلمة (. . . .) أضحكتهما ... حد الرفس .

يطلع الرجال الآخرون من كوىٰ الأبقار ، ويجتمعون مثنىٰ وثلاث ، يتكلمون في همس المراهنات وينظرون أليه تقريباً . يشير إلىٰ أحدهم . وهو يشير دائماً فيلبون . يجيء راكضاً ليسمع تلك الكلمة (. . . .) ثم يعود راكضاً نحو الزريبة . . . ويطلع بعد قليل حاملاً صفيحة ، ويركز تلك الصفيحة فوق أحد مرتفعات الروث .

يحملونه علىٰ أذرع قوية ، فيعلم أن لا جدوىٰ من الرفس ، لأنهم سقوه بالقوة ، في مرة سابقة ، حليب انثىٰ الحمار لأجل الشفاء من السعال الديكي .

واحتاج لرائحة السوس . آه . . السوس . لكنهم أجلسوه منفرج الساقين علىٰ الصفيحة ، تحت صدور كثيفة الشعر ، ورائحة آباط وروث وكلمات مبهمة وصيحات فزع ، ومناخر كثقوب الفئران المليئة بالدغل ، فقال : هخ هخ . فأخرجوا ساقية أكثر . . .

بهجة . واقفون . ضحك مختلف عن ضحك الشباك . . . ثم سكون ما بعد الضحك . وحلّوا أشتباكه المعقد كأشتباك الفخ ، وقالوا : إبدأ يا شعبان . وسمع مبرداً يحك

twitter @baghdad_library

سكيناً قرب أذنه ، فحاول أن يكتشف ، لكنهم ثبتوا رأسه إلىٰ أمام . .

يحس بالحد المرهف القاطع ، بالحاجة الماسة إلىٰ الرقبة ، وضرورة الجلد لأجل عملية التنفس فقط . لأجل الشهيق بالذات . ويحاول أن يسحب عينيه إلىٰ مكان آخر قرب الأذن فيفشل .

لحظة رهيبة كدبيب ، كأي شيء قابل للكسر . وهو شاهين ، لا يخاف ولكنه يأسف . يقترب خط مؤلم من حزوز الرقبة ، فيقول : إن . . هاجر . . . أمي . يضحكون .

ويقول : اذبحوا نعجة بدلاً عن شاهين . ويزداد ضحكهم المختلف عن ضحك الشباك . فيقول شعبان : لا تخف يا ولدي لا تخف . . سنحلق رأسك فقط . ويريه المقص الخاص بجز الصوف ، لأن شعره كان طويلاً وملبداً . بحيث لا يجدي معه المقص العادي . . . زق . . زيط . . زق . . .

بعد أن أتموا العمل ببضع دقائق وسط صيحات الغبطة ، أنزلوه عن الروث ، وقدموا له قطعة حلوىٰ .

أبتدأ الكرم حين انتزع حلاب مسدسه وجلس بين وسائد الصوف . .

كانت هاجر تنصت إلىٰ ضوضاء الضيـوف وصوت ربـاية شعبان ، حيث يتحول الصوت أحياناً إلىٰ قرقعـة ، فتخمن بأن الربابة مصنوعة من صفيحة دهن الراعي ذات الحجم المتوسط . قالت لنفسها : هه . . لماذا يصيحون ؟ ! . ومدت أذنيهـا نحو مصدر الصوت ملتقطة بعض الكلمات والصرخات التي لم تميـز منها شيئاً ذا معنىٰ ، وهي حائرة بين أن تذهب ، أم تتركه لأجل الدليل . . ؟ . .

فتحوا باب غرفة متميزة ، فخرج صحن صغير ذو شعر ، ثم استطال الصحن فتحول إلىٰ مقلاة . . ثم ، مقلاة بقبضتـين متحـركتـين وعـلامتـين مضيئتـين في النصف الأعـلىٰ . . ثم رأس . . . رأس حمـار وليست مقـلاة . حمـار نـادر بلون أزرق ضارب إلىٰ صفرة الكبريت ، مدهون بزيت الخروع ، وقد زاده جمالاً منظر العصـافير عـلىٰ ظهره . فقـدموه إلىٰ شـاهين لأجـل التعارف .

يقـول حلاب : نقـدم لك الاستـاذ شاهـين . ويقول : نتشرف . بدلاً عن حماره . ويقول : اقدم لك قندس ، هل من اعتراض ؟ . . اعتراض علىٰ اسم الحمار مثلاً . . والآن هيا يا شعبان . يقول . شاهين : هيا إلىٰ ماذا . . يا شعبان . فلم يجبه أحد .

twitter @baghdad_library

هزّ قندس عنقه فخشخشت قلادته المنظومة من خرز وأحجار تستخدمها النساء لزيادة المحبة . ولكنه يعاني من ضيق التنفس لأنه مصاب بالربو ، فلا يسليه غير المشي ومناظر الطبيعة .

وأُمر شاهين أن يمشي إلىٰ جوار قندس لأنه يـرفض المشي خلف أحد .

كان الحمار منشرحاً بحيث أنه لو امتلك جيوباً لوضع فيها يــديــه الأمــاميــتــين ، أو سـلسـلة مـفــاتـيـح لخـشـخش بها . . !! . وشعبان يمشي خلف الاثنين ، ويطلق صوته المدهون بالبيض النيء ، ويأمر بسلك الطريق الأطول .

ولأول مرة يحس شاهين بالمشكلة ، لأنه لم يعرف غيرها في حياته ، عـدا مشكلة كميّـة الـذين ينـزلان في صحن الحسـاء فيصفعه أبوه ويحرمه الطعام ، وقد اهتدىٰ آنذاك إلىٰ حل معين ، فخلع كميّه من خياطيهما الكتفيين ، فكـان العقاب أشـد . . . ولكن مشكلة الحمار قندس ؟ !! . . . .

فتح الحارس بوابة البستـان المسيّج بـالأسلاك والنبـاتات الشوكية . واعتقد بأنه رأىٰ انحناءه الحارس بعدما سمع القفـل ينزل في مكانه المخصص .

ثمة غرف للدجاج بجوار أحواض صافية محفوفـة بزهـور

ممكنة التفتح في الخريف ، وريقات طافية علىٰ الماء بلون الفضة والنحاس والذهب والكبريت وأزرار المعاطف ومقابض السكاكين . قطرات نشرتها الضفادع ، حيث يمكن رؤية القاع الممشط بطحالب السباير وجيرا . . ثم يرفع المرء بصره ، بعد أن يتخذ مقعداً حجرياً ويدلي ساقيه في صفاء الحوض وبرودته ، إلىٰ حطام أشجار التين وغبارها المنثور فوق عيدان العنب ، حيث تركت الفواكه الفاسدة بقعاً مداسة علىٰ الممر .

كان الدغل الكثيف الجاف المخشخش لحظة الاجتياز ، يشرح للناظر مقدار التنوع فيما تقدم السماء من بذور مكرسة في بقعة واحدة تبين تخصص الفصول ، فكان العوسج والفصفصة والقتات والعنصل والكولان والعلّيق والقرطمان والنفلة والهندباء والشربين وأذن الفأر والكمّون والنعنع وعيدان الشقائق والدفران والرشاد وذيل السبع والهرطمان والحلفاة والدرداء واذن الجدي والبقدونس والشيح والذفرة والروند والشمرة والعبوثران و . . . الخ . وكلها تنبت بلا تدخل من أحد .

وذهب شعبان بعدما شرح له عن بهجة الحمار بأوراق التين التي تحمي الثمار الكروية الخضراء ، وتمدد فوق الساقية لتجمع الفضة . ولكن كل شيء يذهب بحلول الخريف ، ولذلك فإن قندس حزين ولا يستطيع أحد أن يفهمه غيرك . . فاحترس منه .

twitter @baghdad_library

عزف الحارس في الناي فأزعج الحمار . والحمار لا يأكل العشب ، بل يقطف الأوراق الصفراء اللدنة ، ثم ينظر إلىٰ أخيه بعينين مليئتين بالحنان ، عبر أهداب مصفوفة كأسنان المشط . نظرة تكشف العمق . نظرة سابحة في فراغ ، وهي ، هذه النظرة بالذات ؛ أخف من بذور الرشاد بين لحظتي النوم واليقظة . ربما أخف من النافورة ، بل أخف منها بالتأكيد ، بحيث تنقل المفهوم إلىٰ الآخرين فيفشل الآخرون باستلام المفهوم ، لأنها تدب عبر كثافة خاصة حتىٰ المعنىٰ المفصّل للوئام والدقة الحرجة كألم الخجل . .

يرىٰ أن تلك الصفنات تبحث فوق آثار خطىٰ الآدميّ وصورته والتعيينات الدقيقة في توابل الهند ومسدس أوروبا ، بين أشياء تعلمها في السر كالأهتزاز المعذب أمام شق الزاوية .

النظرات الساذجة الطيبة ، تنوي أن تريحه ، أن تقول بدلاً عنه فيشعر بالحميمية الرائعة ؛ العين في العين ، كلحظة عميقة ليفهم أحدهما الآخر دون حاجة إلىٰ لغة .

ينظر في عينيه الثمينتين ولا يخفي شفافيتهما وإلفتهما ، فيقرص خده ليتأكد . ويحاول الابتعاد عنهما مخافة العدوىٰ ، ومخافة أن يشرخ الشفاف فلا يعود يرىٰ عبره ما وراءه ، ذلك الذي يتوفر بعد جهود البحث المضني في الدكاكين ووجوه الناس

المكفهرة والباسمة ، وارتفاع صدور النساء . السر . بالضبط ، عن تألول أو خال ضائع بين النهدين ، أو في نتوءات حصران البردي المجلوبة من الأهوار ، أو في قنينة دواء . . . حتىٰ الحلم الرئيسي للبعض لأجل الاقلاع عن عادة التدخين والسكر السري . . .

وهو شاهين ، يحس بألم المسمار ؛ المطرقة من طرف وصعوبة الاختراق من الطرف الآخر . فهو مجرد دمية مدعومة بأضلاع عظمية ، بنظرهم ، هم ، الذين تمنوا أن يغرسوا مداهم في انتفاخة البلاستيكي ، ليكشفوا عن الشيء الذي طالما عذبه وطواه . . وماذا سيجدون غير الهواء المثّقب برائحة المطاط ؟ .

بدت له ابتسامة قندس علىٰ شكل رغبات مفروضة ، ولكنها ذات معنىٰ ، بحيث لا يجرؤ أن يقول له : لك أربعة أرجل ، فهو بذلك يستفزه ، فيدفع مؤخرته ثم يرفسه لأنه يريد أن ينظر في عينيه باستمرار ، كارهاً سيماء التفكير والاهتمام . فإن حرك يده حركة معينة ، ضرب الحمار الأرض منبهاً . وإن نظر إلىٰ الأفق من بين الأشجار ، كشر عن قواطعه منبهاً .

يتلمس جلده برقة ، ويستعرض لونه المدهون بزيت الخروع ، مقرباً أبطيه لكي يشم رائحة البساط العتيق . ويحبه

twitter @baghdad_library

ابتداء من أخمص القدم ، ويزن ثقله بنظرة فاحصة إلىٰ انطواء الحوافر ، ويقدّر أبعاده المنتظمة . بينما كان حلّاب يهتز بين وسائد الصوف ، ثم يخرج مظللاً عينيه بكفه لينظر باتجاه البستان ، ولا يصدق بأنه تمكن من إحكام الخطة التي أرقته طوال الليلة القلقة ، حيث داوم في زيارة بركة الضفادع وكيل الأغصان بخيوط رفيعة ليحاول استعادة اختراع هاتف العلب ، لغرض الاتصال بالحارس لكي يزوده بأخبار تحركات شاهين . وسمع الناس نقيقاً يخرج من علب المعجون التي ثقب أسافلها بمسمار ، وشاهدوه جالساً علىٰ صخرة مختارة يدس أنفه ويدرس صلاحية العلب . .

وظلت هاجر تسأل الرائحين والقادمين : هل رأيتم شاهين ؟ هل رأيتم ولدي ؟ . فيميلون عنها معتقدين أن عدوىٰ جنون العائلة قد تسرب إليها ، فصارت تركض من تل إلىٰ آخر وتفتش الوديان والبيوت التي يحتمل حلوله فيها لاسيما بيت مسعود . وقد هاجمت حلاباً اكثر من ثلاث مرات فردها الضيوف وأغلقوا الباب دونها . كان شاهين يواصل شم رائحة البساط العتيق تحت أبطي قندس الذي لم تعجبه الطريقة فاستشاط غضباً ، ومزق ملابس الراعي بالرفس .

فكر بضرورة الغطس ، حيث شباك الضحك والمرأة

الطيبة التي أثمرت كرتين بيضاوين وأغصاناً من الشعر ، لكنه تذكر الهاوية ، ومجاعات السود ، ومحادثات نزع السلاح النووي ، عبر نشارت الأخبار ، والليل الذي يمد أطرافه في فراغ الأيام ، لأن الدنيا الجميلة شيء ثقيل لا يطاق إذا ما حبست العصافير غناءها وحدثت فيضانات في الهند . . كان الحارس يسند ظهره ويشير ويضحك ، ويقول : أوقفه أيها المجنون ، لأنه سيقتلك . . أوقفه أوقفه . وركض بمحاذاة السياج فأبصر فتحة نجاة ، لكنها كانت بعيدة ، لذلك رأىٰ أن أفضل ما يفعل هو التسلق . . وهكذا فأن الفكرة حسنة ، حين قدم له قبضة أوراق طرية فتشممها وهدأ . .

شعر بثقل جيبه فتلمسه حيث وجد المدية المنمشة بالصدأ ، تأمل المدية . لماذا المدية ؟ . ألقاها فانغرزت واقفة في ليونة الأرض .

رأىٰ المديات البعيدة لامتداد الدغل في البستان ، كوخ الدجاج من الأعلىٰ ، الأحواض كصحون نظيفة ، والممرات المؤدية إلىٰ غرفة الحارس عند الباب ، أذ يخرج العزف ملتوياً حول عوامل الغموض التي تجعل الارتفاع أمراً رائعاً . أية لذة ؟ أي انصاف ؟ تلك التي تقود إلىٰ نكران الآخرين ، بآمال كبيرة تعطيه الحق في التقليل من أثر الكوارث عبر نشرات الأخبار .

twitter @baghdad_library

ورأىٰ بأنه مرتفع ، بمستوىٰ القرية ، حيث نظام الفطور المعاد منذ عشرين سنة ، رغم ارتفاع البيت الجصي واشراقه علىٰ السطوح المجاورة . .

ويعلق الحارس أنفاسه في كل فراغ حتىٰ يكنس أتعاب النهار ويعطىٰ نفسه الشجاعة الكافية لمواصلة العزف بشكل أدق ، نغمة أثر نغمة ، لكي يلمس انفصال الروح كانتفاض لذيذ مدمر يهز مديات البستان ويطرق الجذوع الدانية من السياج .

ورأىٰ الحذر الضيق في مساحات الأرض المفتوحة الرخوة الخالية الصانعة السراب ، من أنه ليس حصاراً تقريباً . وتذكر عندما أشرف بيتهم عند نهاية المنعطف بأنه ترك الباب مفتوحاً . وأن لونه البنيّ يلوح في محور مرتفع ويدني فيرد البصر إلىٰ المبصر .

ناداه شخص من وراء السياج : ان هاجر تبحث عنك . وهاجر التي تبحث ، وهي تصفع ، وتلعن ، وتعد الشاي ، وتبتسم لحظة الأزمة . فقفز ملتقطاً مديته .

والمدية في يده . هاجر في الرأس . الحمار المدهون بزيت الخروع علىٰ بعد ذراع و . . طعنة . طعنة . طعنة .

ويهجم الألم لحظة رؤية الدم يغطي النمش . . .

يهرب عبر فتحة السياج لأن الحارس منشغل بتصعيد هواء الموسيقىٰ . .

وهناك ، قرب النهر ، سرق نظرة إلىٰ كفه : دم . دم وألم . . دم . فأخذ يركض بمحاذاة الشاطىء . يركض وينهق . يركض وينهق . وهناك ايضاً ، عند الأغصان المغموسة في الموج وجد قارب العم عارف ، وأراد أن يذهب منفرداً ، لكنه لا يعرف تقريباً . .

سمع صوت انسحاق أحطاب فتابعه . . حتى برز له الصوت من وسط الدغل : من ؟ شاهين ؟ هل كنت تنهق ؟ . . وما هذا الدم ؟ . فأجاب : من أنت ؟ أنا شاهين ، وهذا دم الحمار الذي قتلته . . انهق لأنني قتله . ويضحك عارف مستغرباً ، وضحكته قصيرة لأنه يستغرب ، ويقول : الا تعرف عارف ؟ . ويقول : اي حمار تعني ؟ . يقول شاهين : اعني الحمار ، قندس ألا تعرفه يا عارف ؟ . فيقول : آه . . تقصد حمار حلّاب ، كيف ؟ . . .

ويتجه إليه ، فيقول شاهين : بماذا يكون القتل ؟ أليس بالمدية ؟ . ويعقد عارف يديه لأنه لا يعرف ماذا يفعل ، ويقول : إهدأ إهدأ ، يجب أن تهدأ . وجهك أصفر . . . ولكن

twitter @baghdad_library

لماذا ؟ . فيجيب : لأن هاجر تبحث عني .

وطلب منه أن يجلس قليلاً لأجل الراحة ، بينما أنصرف ليجري بعض الترتيبات داخل القارب ، فسوىٰ المجذافين وجمع شبكة الصيد في المؤخرة ، وقال : أصعد . بعد أن فك العقدة . قال : سأصعد ، ولكن إلىٰ أين ؟ . فقال : إلىٰ الجبل ، ستبقىٰ هناك حتىٰ ندبر لك الأمان . فركب ، وتناول يده المدماة ، لكنه تأرجح عندما نقل قدمه إلىٰ الجوف ، مغمضاً عينيه وموتراً ظهره في البدء ، فأمره بالأرتخاء .

النهر أملس مغطىٰ بعيدان الطفو ، علىٰ جانبي القارب . الجانبان المعرضان لنقر الأسماك ، وهي أسماك الفضة علىٰ الجانبين . تهاجم الخشب بعد أن ابتعد وتد المرسىٰ بمسافة خطوتي عملاق . والجانبان يندفعان فوق أذناب الأسماك الكبيرة التي تصفع السطح ثم تغرق . ينسابان في نشاط حركة الأمواج ؛ تيار صنعته حدبة صخور نحو حدبة صخور أخرىٰ . وتنغلق الرؤية في ظل الجبل أمام مهوىٰ الشمس علىٰ أوراق الأشجار الدائمة الخضرة ، فلم يبق سوىٰ التيار المجعد في الأفق بمستوىٰ طاقية عارف . بينما يصعد الماء عبر ثقب سري فيدخل الكيس الذي فيه شيء .

ليس ثمَّ خطر يقترب بدنو البوز الخشبي من صخرة النمل

كان المجذفّ يتحكم بالاتجاه بحيث يستطيع ادخال القارب في ثقب الصخرة ثم إخراجه من الطرف الآخر بلا عواقب . لذلك ابتعدا بسهولة عن خط الخطر بعد أن رأىٰ الدبيب عن قرب شديد . .

قال له : اقفز . وأدار الخشب عائداً باتجاه الوتد في الضفة البعيدة التي كانت قريبة . . . . .

ناداه من منتصف النهر : تشجّع واعتمد عليّ . ثم ناداه مرة أخرىٰ : سآتيك بالطعام والأخبار . . أما إذا عطشت فالنهر هدية مني . وجاءت ضحكته طافية فوق الأمواج ، عنيفة ومبللة ومنثورة في ذواء الخريف ، ولكنها مجتمعة لهزّ الجبل . . . .

يمتد بصره في ممر رملي بين الأشجار حين يجد نفسه وحيداً أمام الكثرة الساحرة ؛ ارتفاعات رملية مخططة بعدما انحسر عنها ماء الفيضان ، وهي شبيهة بخطوط حلاقته المزيفة ، وقد ترك النهر المنسحب بعض البرك التي اسودت لكثر ما يسبح فيها الدود والضفادع والأصداف المقسومة ، وأشياء متنوعة مما اصطادته شجيرات الطرفة في موسم الفيضان من مرميات المدن الشمالية ، ظلت عالقة بعد انحسار النهر . حاجيات اكياس المجانين ؛ ملاعق مطاطية ، علب مطاطية ، مصاصات

twitter @baghdad_library

أطفال ، دمىً ، أحذية أسفنجية ، قناني دواء وكحول وعصير ، زهور تزيين الشعر ، ملاعق ، أواني ، صناديق أسرار العجائز الراحلات ، ماسكات ، منافض دعاية ، وألواح دعاية ؛ (تحذير حكومي ـ التدخين مضر بالصحة ننصحك بالابتعاد عنه . مارلبورو أفخر التبوغ . ساحبات عنتر . جبنة البقرة الضاحكة ، لذيذة ، مغذية . معلبات مرق الدجاج علامة الأسد . مصنوعات كورية علامة برج ايفل . دجاج البرازيل ، مذبوح علىٰ الطريقة الاسلامية . ساعة ستزن . ساعة اولما . تويوتا رمز الدقة والقوة . أسبرين يزيل الآلام . بيبسي كولا . المطعم العربي يدار بالكومبيوتر . تريم جينز . أولد بار ، الوسكي المعروف المعتق . ألبان كانون . . . ألخ) . وحاجيات منزلية قابلة للطفو ، وعلب صفيح حولتها الأرانب إلى بيوت لها . أشياء كثيرة لا يعرفها . مقذوفات المدن . . .

هناك ، تلك الإنحدارات التي تتفيأ تحت أشجار الغَرَب . ظلال كثيفة دبقة تعبق برائحة القير والنعناع وتمتلأ بأنواع بيوض هجرتها الفراخ ، وقد رسم الدود في الرمل الرطب خطوطاً كعروق ساعدي عارف النافرة .

يضطر ، لكي يصل الجبل ، إلى عبور أحد فروع النهر الضحلة ، إذ ينحني ويشكل جزيرة جرداء مكسوة بالحصىٰ ، حصاة

ترصّ حصاة حصاة ترص حصاة حصاة ترص حصاة . . . بحيث تترك مجالاً للغويبة بأن تحرض نباتاتها المتسلقة علىٰ تناول الجرف الجبلي فتكوّن أردية تدخلها الزنانير .

راح يصرخ تحت الجروف ، ولكن صوته يضيع في ضوضاء الهديل والزقزقة والصفير والتغريد والعواء ، وأصوات أخرىٰ صعبة التمييز لمخلوقات أبصر منها الكثير وبقي الكثير . حشرات بعيون مستطيلة . دواب ضائعة في شقوق السيول ، كاليربوع وأم أربع وأربعين والرتيلاء والأسروع والصلّ والعقرب والجعل والشعراء وسراج الليل والعظاءات المختلفة في الشكل والحجم والجدجد والزيزان واليعسوب والغرير والقنفذ والنمس وأنواع الفئران والثعالب والسنجاب . . . ألخ .

يذهب الخوف ويذهب الجوع قرب بركة من برك الأسماك المحصورة بعد انسحاب النهر ، حيث بنىٰ للديدان البيضاء كوخاً من الرمل ، وحفرت ركبتاه حفرتين ، وعمّق خطاً بمثابة ساقية لإزالة حصار الأسماك لأن شوك الجروف يتنفس بحرية تحت الخريف ، فلماذا لا تتنفس الأسماك التي أطلعها من الماء ؟ .

وتمدد فوق الكرة الأرضية شاعراً بزيت الأجنحة ، بالغطس حتى أحجار القاع . لجة النهر . الفيضان . اللبوة

twitter @baghdad_library

الجريحة . الباذنجان على الجريـدة حيث الموضـوع المكتوب عن مجـاعة السـود . الطيـور الأصوات الـطيور الأصـوات الـطيـور الأصوات ، الهديل الدائم الداء الدا . . . دا ـ با ـ دا . . .

ويضيع صوته . يضيع لأنه لم يجرب لذة أفضل من الماء ، ذلـك أن هاجـر ولـدتـه في قيظ جهنمي ؛ النـاقص إبن سبعـة شهـور . كحلم قرب الثـدي الطبيعي ، يتـذوق برودة الحليب ويـركـز فيهـا ، في شفتيهـا اللتـين علمتـاه اللفـظة الجـامعـة : دابادا . . .

ويلجـأ إلى الغيبوبـة عندمـا يفشل بـإصـابـة ذيـول البط تقـريبـاً . ويتصـرف وفق طـريقــة تجنب الخـطأ لأجــل تجنب العقاب ، عندما كانت الأشجار أكبر من الأشجـار المعاصـرة ، والنهر أعرض ، والأرض في تجربة الدوران حتماً .

لقـد امتصت الصخور حمـرة الخجل ، واستمـر النهـر في رياضة التهديد والتقلص ، حتىٰ بعد أن أسكن الأسماك ثقـوباً فماتت . ورأىٰ تكاثف الديدان ضده عندما قتل واحدة . وهذا أيضاً من نتائـج الإحساس بـطراوة الطين وألم الحلزون ورائحـة الوجوه الكابية والناس في خط شبيه بأثر المشط . كذلك العيون الماسية لحيوانات الشقوق ، تلك التي تنتظر طلوع الليل ، وهي كبيرة بحجم الجذوع التـالفة ، حقـودة ومسالمـة ـ وآملة الأنياب

بتفتيت جسد بشري . .

ومنذ أول مطر علىٰ أرض الله ـ والناس . منذ ذلك تقريباً ، والطبيعة تعمل بجهد لترتيب بيت لشاهين ، في شق سيل هائل . بيت ذو رفوف مرمرية ، لكي يضع نفسه فيه ، تحت السقف الشبيه بأوراق كتاب ضخم . وقد فرح لأن هذا المكان بعيد عن متناول مخالب الضواري ، إضافة إلىٰ أنه يمد سلماً مع انحدار السفح حتىٰ المكان . ومن المكان ـ البيت حتىٰ شاطيء النهر . كما يتيح له الإشراف علىٰ الماء الملتوي كأفعىٰ ترقطها الجزر ، وتخبيء الغويبة ذيلها . كذلك القرية المخنوقة . بمساحة شاسعة من البراري الجرداء .

ويجلس في بيته الجبلي ولكنه لم يستطع الإستقرار ، لأنه لم يعرف المكان ، فيتكيء واقفاً ، ناظراً إلىٰ أمام وليس إلىٰ شيء معين .

وبدأ الألم ينقر راحة يده ، فيضعها بين فخذيه ويطبق . فتداعب وجهه أعشاب الصخرة المجاورة التي اتخذت لوناً أبيض منذ طوفان نوح . بينما أخذت صخرة الجهة المعاكسة شكل الثور لتدفع بصره عنها باحترام . ويفكر ، لهذا الخندق شكل فم ضاحك ، فم عظيم . للجبال أفواه وأطراف وقلوب كبيرة نابضة ، وهي تشرح حنان الإحتواء .

twitter @baghdad_library

ويفتح الوادي المنقوش بأشجار الصفصاف نفسه منذراً بمجيء المساء . وقد تحولت أنواع الصخور البركانية القاسية المعشر ، والأخرىٰ الرسوبية المسالمة ، والقوقعية التي تأخذ أشكالاً لوجوه حيوانات ورجال يعرفهم . ففي عهد مبكر حاول الوصول إلىٰ الجبل ، إذ كان النهر يكشف بطنه طائعاً رغباته ، بصحبة عواد في حلم جمع القواقع ، لأجل وضعها علىٰ الرف ، ومعدن الكبريت المنسرب من ثقوب كعيون القطط .

تطوف عيناه عبر الصمت الجالس علىٰ حافة النهر ، وقد نسي لغط المخلوقات . أخاديد مجاري السيول . ولقطرة الماء ثقب بمثابة عش . وفي الجرف ملاجيء لطيور يعرف أشكالها دون أن يتعب نفسه بالبحث عن أسمائها . رفوف صخرية مخططة بفضلات .

وهناك فوق قمة عالية ، يجلس البوم في وضع التأمل . وكلما أحس شاهين بأنه المخلوق الآدميّ الوحيد بين مخلوقات مختلفة ، أطلق صرخة عاوية ، لكي ترتد إليه كصرخات كثيرة . . . وهكذا يشعر أنه صار شواهيناً كثيرة ، فيطمئن . ويصل إلىٰ نقطة هي نهاية بدء . محطة إستراحة . ثم يضع الجبل خلفه مستنداً . لحظة العودة إلىٰ شباك الضحك .

والآن : تبدو القرية أمامه كعلبة ثقاب ، فيعجب كيف

كان يعيش هناك ، ويتعذب ويضحك أحياناً ! ! . . .

هناك ، حيث يشير برأس سبابته ؛ حلاب ، شعبان ، هاجر ، عالية ، عزيزة ، زهرة ، مسعود ، صاحب النظارة السوداء ، عجائز الوديان ، إحتفال القبور ، مشغل عواد ، زهور ، المرأة ذات القميص المهتز ، المرأة الأخرىٰ الأقل فتنة من الأولىٰ ، والآخرون ، صاحب المقص ـ كل أبطال هذه الرواية ـ كلهم يتبادلون عبارات الأسف حول جثة قندس ، حيث الدم والذباب وبكتيريا التفسخ . . .

غاض الضوء بين الوديان وتسرب في جروح الجبل ، وساهمت الآفاق ، تمتص بلذة شرهة . . فيترسب الظل ويملأ المنحدرات متسلقاً السفوح نحو القمم حتىٰ طيران البوم .

يتمدد فوق نتوءات تثقب ظهره ، ويحس بسلام عميق ، يحس بالصلاة . . .

يرفس حجراً فيتدحرج إلىٰ الوادي ، وينصت إلىٰ ألمه عندما يصطدم فيبعثر استعدادات نوم الحجل .

إنقلبت أزقة القرية ، فجأة ، إلىٰ نقيق ورصاص يغوص في جدران الطين والأحطاب ، وقد انتشر الخبر كالسم . وركضت سيقان نحو مصادر الصوت ، حيث كان حلاب يمد

twitter @baghdad_library

صرخاته بين الممرات ، وفوق أكوام الروث ، ويرسل رجاله إلى زوايا القرية بحثاً عن الهارب . وقد أثارتهم الأنسام الداخلة عبر ثقوب المنازل ، إذ يبدو كل عمـود ، وخرقـة ، وعلبة لامعـة ، شيئـاً يستخـرج من النفس غـريـزة الإكتشـاف . إضـافــة إلىٰ الأغصان الساقطة في ظلال اليوكالبتوس ، والتي تدفع المارة إلىٰ فتح الأفواه والمشي علىٰ أطراف الأصـابع ، فيحـدث أن تذهب السيقان إلىٰ الجانبين مخالفة نظام المشي الطبيعي ، حتىٰ تتلامس الأجساد ناظرة إلىٰ نقطة معينة ، معتمة .

حذر . حذر الـزوايا ، ومـداخل الأحـطاب التي أعدهـا الدجاج للبيض ، حيث سمعـوا تكسر الحزم بصـوت خبيث ، فكانت الكلاب تهاجم بدافع الخوف ، والقـطط تتمسح بحجة الإلفة . وتصير حاسة اللمس أشطر الحواس ، والسمع أعلىٰ من الكلام . حوارات قصيرة خافتة ، لأنهم يخشون المفاجأة . غـير أن كل واحد منهم ينتفض مصعوقاً إذا ما فوجيء بغصن يدغدغ وجهه من فوق حائط ، أو دخول حشرة بين الرداء والجلد. وتمتد الأكف خلسة لتتصافح : أدافع عنك حتى الموت . . . إتفقنا .

تسلـل المساء الحزين إلىٰ بقعة هاجر ، التي لا تعرف ماذا تفعـل ، فكانت تقـوم لتكنس جثث العصافـير السـاقـطة عـلىٰ العتبة .

وعـزف الرعـاة ، بقيادة الحـارس ، ألحانـاً تأبينيـة فـوق المرتفعات .

ومضى الصبية مرتطمين بجـدران الأزقة ، حـاملين رماح القصب لإستفزاز فتيات الأبواب اللواتي أتيح لهن الخروج بحجة الضجـة . ونـظروا عبـر فتحـات الحيـطان إلىٰ أعمـدة الغبـار المضيئة ، يتسابقـون في الصفير وفق طـريقة طبق اللسـان تحت الأصابع .

وقـامت الفتيـات بمحـاولـة تعلم الـزغـردة تحت ستـار الضوضاء . أخرجت هاجر بقايا القطيفـة ، فأوقـدت منها نـاراً كبيرة ، وهي تستمع إلىٰ عواء الذئاب .

وظـل حلاب يصـرخ ، ويتلمس الأشياء : هـذه شجرة التوت هذا سياج الآس . هذه ربابة شعبان . .

ويفتح باب القبو ، فتصير الشجـرة خلف ظهره ، حيث يسمـع أغصـانها تقـطّع الهـواء . كـان صـدره جـامـداً كغـطاء صندوق . يتقدم في وحلٍ ، يفتح الباب : عررررر .

. آه . . صـوت الباب ، نعم هـذا صوت البـاب . يتقدم في وحل نحو الأكياس ، حيث فضح مصبـاحه تفـاصيل المكـان . رطوبة ، كما يتوقع القاريء ، رائحة بيض فاسـد كشيء خاص يكشف عن قِـدم المكان وعمقـه . وثمـة شقـوق نحتهـا المـطر

twitter @baghdad_library

الأخير . وفي السقف جذوع متقاطعة تحمل أرضية البيت . بق وذباب حيث غبار عتيق . سلال . أكياس قرضها الفـأر . بدن دراجة محطمة .

ينـظر في القبو نـظرة مثيرة للشتم ، عنـدما ينـزل خـطوة أخرىٰ ، وفجأة ؛ تلك السلة التي تظهر ، صـراخ طفل مـولود قبل الأوان . . .

وبحركة سريعة ، يعرف خارطة النفاذ ؛ باب لصق السماء السـوداء . حذر حـدّ سماع القلب . يتـراجع إلىٰ العتبـة . . . ويمكث حتىٰ يتعبه التوقع . قال للباب : يجب أن أخرجٍ . ولمس قلبه عندما واجه شجرة التوت . . ثم تنفس بلعو ناظراً إلىٰ البيت المهمل لصق الأفق . وأبصر جسداً على العتبة . ليس جسداً ، وإنما كيس قطن .

كانت الأغصان منحنية بثقل العصافير النائمة ، التي تجفل كلما مرّ بها عمود الغبار المضيء ، فيجفل معها .

مرة أخرىٰ ، وجد نفسه مـلامساً لبـاب القبو ، يـدفع : عرررر . . . آه إنه الباب . . صوت البـاب . وهناك ، يـوسع لجسده مكاناً بين الأكياس . . . ويطفيء ضوء المصباح .

يستيقظ شاهين بعد غفوة قصيـرة ، ويفتح عينيـه بأقصىٰ

اتساع متعرفاً علىٰ المكان . . فيجد الظلام ، ويتذكر بيته الجبلي ، فيركن إلىٰ طمأنينة مثقوبة تحت وطأة المفاجيء الذي اخترق الغفوة مشيراً إلىٰ عشرات البطون المتموجة في فناء جامع . . والجامع في صحراء . . والصحراء في صحراء أكبر . دفوف . . ويدخل الموت برعشة الزاوية . أنصال . قضبان واخزة . بصاق مقدس . ملح مبارك . شرائط قماش أخضر . له عين ثالثة يرىٰ خفايا الصدور ، وحدس يكشف النوايا فلا حاجة إلىٰ الخوف وحمل الأسرار ، بل يجب الإعتراف بجميع الذنوب قبل أن يكشف عنها . كن طيباً وبسيطاً وخائفاً . كن خائفاً وتصدع . أغمض عينيك وأعقد يديك علىٰ صدرك . . . الله حي . . الله حي . ستأتيك الصور . الله حي . .

قالوا إصعد إلىٰ ثلاثة ، فالأول جميل وهاديء ومبتسم ، ولكنه مخيف يمد أصبعاً من أصابعه النحيفة نحو حيوان يزحف فيتحول إلىٰ إنسان . يبدو شفافاً عبر ردائه الواسع . أما الثاني فيحمل عصا مشيراً إلىٰ جهة ما من الوادي الأخضر الفسيح ، لأنه صامت وقصير وقوي . إصعد . أشار بعصاه إليك ، وقطب جبينه مشجعاً ، فرميت قدمك علىٰ حجر السلم حيث جهة الإشارة . إصعد نحو الثالث ، الذي يحتضن غيمة زرقاء في الأعلىٰ . رجل مهاب ، مغلق بضوء مغمم نظيف . فارتجفت وسقط وجهك علىٰ الدرجة المقبلة ، لكن العصا لمستك بقصد

twitter @baghdad_library

الحث . . غير أن الرهبة أثقلتك . الرهبة الجامعة ، الرقة الغالبة . . كل شيء حتماً ، يا للحلم ! !

يفتح عينيه أكثر ، فيرىٰ الظلام المحيط . ويدخله الهواء البارد فيخرج ساخناً بمستوىٰ عواء الضواري . لأن جسده طريّ لا يحتمل الأنياب ، بسبب قشعريرة دبيب مجهول علىٰ الجلد . . . فيخيل له أن أحداً ما ينطق إسمه ، منادياً هامساً محذراً : شاهين . . .

يفتح فمه جامعاً بالسمع أبعاد الظلام ، لكن صوت وشيش النهر وهو يلحس أقدام الجبل ، يرتفع فيأخذ معه النداء ، كما يرتفع صوت مسعود آنذاك : « لم تكذب . لم تسرق . لم تزن . أنت رجل نظيف . . » .

ينزل مجتازاً فرع النهر فتهزه برودة الماء ، ويسمع من جديد : شاهين . . . نداء يشبه الأنين ، لكن عواء الضواري يطمس النداء ، مشيراً إلى أنها لم تجد بعد وجبة عشاء مناسبة . صوت قريب : شاهين . خرير ينبوع ـ كلا ـ صوت أنثىٰ ـ كلا ـ حوافر قندس ـ كلا ـ إنسحاق عظام . مطمطة . حيوان يأكل حيواناً . . . هرير . أنياب تمزق لحماً ـ كلا ـ . . غير ممكن ، ضوء ؛ عينان فسفوريتان ، فم مدبب ، آثار دماء تتسلق الصخور . . . يعوي عالياً ثم يهرب من شدة الضوء .

ويسقط ، غير أنه نادراً ما يصل إلىٰ الإغماء . النداء قريب : شاهين . نداء وضوء . شاهين أين أنت ؟ يعرف هذا الصوت : من هناك ؟ . فيجيبه الصوت : أنا عارف . . لا تخفْ ، كنت أناديك منذ ساعة ، ألم تسمعني ؟ .

ويرفعه عن الرمل الرطب ، ويحتضنه . فيشم رائحة القاربيّ . . . الإنسان . زغب الوجه يلامس الوجه . يبكي ، فيقول له : إهدأ يا أخي . . فالحمار بخير . ويسأله عبر النشيج : أي حمار تقصد ؟ فيجيب عارف : قندس . يقول : من قندس ؟ . يقول عارف : أهيسه ! قندس الذي . . . ويقاطعه : أعرف بأنني لم أقتله لأنني اكتشفت فيما بعد . . . اكتشفت ماذا ؟ يقول عارف . فيرد عليه : استعملت المدية بشكل معكوس ، لأن كفي ظل يؤلمني . . والدم هو دمي أنا ، لا دم الحمار .

ويضحك صاحب القارب فتطفو ضحكته فوق الأمواج ، عنيفة ومنثورة في ذواء ظلمة الخريف . . .

لامس خشب القارب أعشاب النهر . جوف في مساحة ضائعة ، مدفوعاً بقوة رقة الأمواج . أمواج المساء العالي الحر البليد . مساء الأسماك الكبيرة التي تأكل الأسماك الصغيرة . . . إلىٰ متىٰ ؟ .

twitter @baghdad_library

أسئلة في هاوية الأخوة البشر ، الجاهلين الـطيبين ، حتىٰ سواحل القـرش الأمريكي ، حيث يسلقـون البيض في صحراء نيفـادا ، عبر نشـرات الأخبار ، ولا يعـرفون شيئـاً عن صخرة النمل وأكواب الفخار في منحدر التل الأسود . بينما يدفع عارف الماء ليندفع في الماء ، بأذرعه الخشبية المبتلة الجافة المبتلة الجافـة المبتلة الجافة المب . . . وقع المساء العالي ، يجرحه ثم يداويه ، مضيئـاً رؤس الأمواج المنتـظمة المتتـابعة المتسـاوية المنحنيـة علىٰ بعضها ، المتآخية النظيفة لأنها تطرد العذوق والعيدان والغرائب إلىٰ اليابسة المتسخة دائماً . فالأمواج تغسل الأمواج . . غـير أن اليابسة مثقّبة بالمراحيض . . . إلىٰ متىٰ ؟ .

عارف شبح أكيد ، لأن رائحته أكيدة ، وتنفسه مرتفع ، فهو يجرح المساء ثم يداويه بالمساء . يجرح الماء ثم يداويه بالماء . إذ سرعان ما تندمـل العناصر المتحـدة ، باستثنـاء جرح المـدية المقلوبة ، فسوف يُنكأ بالمصافحة . . ويذهب كل جهد بلا فائدة كالليمون الذاوي في السلال بسبب مجـاعة السـود لأن الأسماك الكبيرة تأكل الأسماك الصغيـرة تحت الجوف المـدفوع بقـوة رقّة الأمواج . وعارف يغني بقوة كما يغني الجميع بقوة عندما يدفعون الماء بأذرع الخشب المبتلة الجافة المبتلة الجافة المبتلة . . . آهـات تعني الأنثىٰ المنتظرة ، بين وسـائد ريش الحمـام ، طرقـة الباب المتفق عليها في المساء ، حين تُقدم لها الهدايا الكثيرة كالأسماك

والجزر ، والمناديل المعطرة ، فتدفعها وتأخذ رائحة الشعر وأغنية الذكر الغليظة ، بقصد الآهـات .. فالجميـع يجرحـون كجرح المدية المقلوبة ، الذي يُنكأ بالمصافحة . هل أنت جائع ؟ يقول الـظل المغني وهـو ينحني ويستقيم ، ثم يعـود إلىٰ الإنحنـاء ، ويقـطع الأغنيـة ليكـرر : هـل أنت جـائـع ... يـا أخي ؟ . ويضيء أغصـان المرسىٰ الغـاطسة في الأمـواج ، حيث يـلامس خشب القارب رؤوس الأعشاب ويهتز بسبب الإصطدام . يرمي الأذرع الخشبية ويقول : أنزل علىٰ مهل ... لكي لا تسقط . ويعطيه درنات السعدان و : تحياتي لهاجر ... اتجه إلىٰ أضـواء القرية واعذرني ..

يجتاز حطام مـزارع القطن ، شـطر أضواء القـرية ، كـما أوصاه عارف . يتخـدش نصفه الأسفـل . لم يكن متعباً وانمـا يريد أن يسقط ، حين تناول الليـل نصفه الأخـير وهدأ البحث عنه . لا بسبب القناعة بل بسبب اليأس . فقد فتشوا كل مكان فلم يعثروا علىٰ أي أثـر له . بينـما ظلت هاجـر تدور في أرجـاء البيت حاضنة رأسها تستعد للخسـارة النهائيـة ، وليس الهزيمـة النهائية . فلن تصعد بعد اليوم لكي تدعوه الىٰ الفطور ، لأنها لا تستـطيع مجـابهة مكـانه الفـارغ ، حيث المنشفة ، والسـريـر ، وملابس الطفـولة ، والسـاعة التي ستـواصل الـرنين معلنـة من خلال حركة دائرية عن تتابع الوقت ومهزلة أيام الأسبوع المتكررة

twitter @baghdad_library

منذ أقدم العصور . . . يمر تحت الجرف الصخري مأكولاً من قبل الوادي ، فيرىٰ شبح مشغل الرجل الذي سافر إلىٰ العاصمة لأجل الشهرة . . ثم الأعمدة التي تسند غيم الحرائق . ما هذه الأعمدة التي تسند غيم الحرائق ؟

ليس هناك تل بالمعنىٰ الجغرافي ، فالشواهد موجهة صوب الغبار كفقاعات كف متورم ، إلىٰ جنوب البيوت. كف بين فخذين ترافقهما الأضواء ، ليحدد البصر مكان الجدة السمينة آكلة البيض الفاسد ، والصور الغامضة التي تملأ الجوف أحياناً ، حتىٰ الشعور بضرورة التقيؤ .

كانت تأتي كظلال رفيعة ، نعش أثر نعش ، مربوطة بمسامير ناتئة . رجال يحملون رجلاً ممدداً . . كان رجلاً ، أما الآن ؛ فمجرد رجل ينزل لأنهم ينزلونه الى العظام التي تحولت إلىٰ مزامير للريح بسبب ثقوب الحشرات . درجات فظيعة من أنغام انهار الجنة النابعة من أي مكان غير محدد ، تختفي هنيهة حيث منحدر عواء الضواري ثم تذوب في المقبرة ـ عمر الفقاعة ، تنفجر حين يجب أن تكبر . ويؤدي الزيزان واجبه تحت أحطاب التين . لكن صورة الرجل الأول تتكرر كدفقة حارة مالحة من دفقات نفّاط الزيت ، مستقلة في الكيف ، فيضطر أن يموت ، وهو رجل مهم . . . هكذا ، أثر قرصة

حشرة ، ويضطر الناس إلىٰ جرّ نعشه بنير الثيران ، بعدما دثروه بأزهار البامياء وأوراق البقدونس ، لذا فإن أخشاب النعش قد حفرت خطاً أعمق من حدور السيل بعد امطار آذار ، وضُربت حول قبره أسياخ حديدية لغرض حمايته من تدخل حيوان الغرير ، لأن الرجل مضمون . . .

رجل جميل ، الى جانب رجال في هيئة السخرية . ينظرون وجوه بعضهم بعضاً ، ولا يرون وجه احد منهم بالتحديد ، بسبب نومهم هناك علىٰ المرتفع ، فسحة الأعياد والحلوىٰ .

ليس ثمَّ أحد بالتحديد يجلس مكان أحد . ما من شيء يلمع لأن كل شيء منطفىء بنفس سهولة الصراخ الممتد بامتداد ظلال الحزانىٰ الذين لا يرون شيئاً معيناً ، يصغون الىٰ دبيب الظل أياماً وشهوراً مقهورين ببرود أمام حطام مزارع القطن، بلا خوف أو حذر أو أمل . . ولا أي أمل بمجيء الموت مرة اخرىٰ . . ولا حتىٰ أمل ببقائهم أياماً وشهوراً مقهورين .

ثمة نساء، ذكريات نساء تقريباً. نساء ميتات يحتضنّ أطفالاً موتىٰ ، تحت المطر وعواصف الغبار ومياه البطيخ المسروق كل يوم ، بفضل الشموس الحارة المسروقة ايضاً من خط الاستواء .

twitter @baghdad_library

فقط، تجدهم بلا أية متانة معروفة ، يهزون شعراتهم الباقية الخالدة ؛ رأس عند قدم وقدم عند رأس . . . حتىٰ الجهة الأخرىٰ مصدر طلوع القمر والبعوض ، بسلامياتهم الناقصة يحكّون النسيج اليابانى الخشن ، حين تبدل السماء ألوانها بالتعاقب ، الفيروزي ، الذهبي ، الفضي، الكبريتي، النحاسي، الاسفلتي . . . ما من فصول ولا ذكريات ولا أرقام ولا أصوات اذاعات ، لأن الله مرتفع فوق مياه النهر وبرق السحاب، يسمع سقوط أوراق الخريف ورقة . . ورقة ، بعدما يأمر أوراق الخريف بالسقوط ورقة أثر ورقة ، في كل مكان تقريباً، حتىٰ القطب وجحيم خط الأستواء ، وأسرار البراكين الخامدة أو الثائرة أحياناً .

وفي المساء ، لحظة الإنصراف الىٰ الشؤون، ينسىٰ الممددون واجبهم فيذهبون إلىٰ ذاكرات العجائز ، علىٰ الأغلب ، يذهبون إلىٰ الذاكرات المحشوة بالنسيان . وقد أعدّوا عبر تعب طويل ومرير تفاصيل مروّعة لأجل اللحظة الاحتفالية، حيث تسير ظلالهم ممتصة زوائد القعر ـ الهاوية المرتفعة كفقاعات كف متورم . زرقة . زرقة شفافة . زرقة شاحبة ، وهي حمّى وطفولة معكوسة تبدأ بعد سقوط سن العقل في طرف الأدغال المحاصرة بعواصف البعوض آخر الليل . ربما بعيد منتصف ليل الأرق . بل قبل الإنتصاف تقريباً .

إثنان أو ثلاثة من عائلة واحدة ، يحافظون علىٰ روابط القربىٰ عبر إهتزاز التراب ، بلا إشارة ، يعودون ويذهبون قلقين لأنهم في نفس المكان ، لا يجدون الشجاعة الكافية لبدء التعارف باشارة انسانية ـ إشارة معينة لإستمرار خمودهم . هل هي إشارة إنسانية ؟ انهم غير متأكدين . . . هذا هو المهم . لا شيء ، لا شيء ، وقع مستمر طوال المساءات التي تموت وتحل محلها مساءات اخرى . لا شيء . شهداء العشق ماتوا لأجل قبلة ، شفة علىٰ شفة ، بل شفة في شفة . تلمسوا الفراغ فأخطأوا في العدّ، لأنهم إثنان ، بشران ، آدميان : أربعة أيدي ، أربعة أرجل ، أربعة عيون ـ والآن ثقوب ، أربع قصبات تنتهي بالأمشاط ، وفق مفهوم علم (الأحياء) . أطفال حصبة العصور القديمة طيور للجنة لأنهم أطاعوا أباءهم ، فغسلوا أيديهم قبل الأكل وبعده . . . ثم الشيخوخة المتشابهة ، ما أن يبلغ احدهم الراحة حتىٰ يرتاح نهائياً .

إثنان أو ثلاثة ، يحافظون علىٰ روابط القربىٰ ، ويعملون باستمرار لتمتين تلك الروابط ، فتظل قوية لأنهم لا يفعلون أي شيء لأجلها مخافة أن لا تبقىٰ متينة . . . باجتياز دهور النوم ، وقد محيت أغلب التعابير التي تجعل الواحد مذموماً حتىٰ لا يفهم الآخر بأنه لا يريد الانتظام في الصف ، حسب فصيلة الدم الجاف ، لأنهم بلا دم أصلاً ، باستثناء ما تبقىٰ من السلاميات

twitter @baghdad_library

التي تحك النسيج الياباني الخشن . بلا شفقة أو تعزية أو غرام أو انفعال أو عذاب ، وبلا أية إشارة إنسانية ، لكي لا يفهم أحدهم بأن الآخر ميت ، فلا يتحدثون في ذلك أبداً ، غير أن أسماءهم تزور من وقت لآخر ذاكرات العجائز المحشوة بالنسيان . . . فيرفع بصره إليهم ، فتجيء النعوش كظلال زرقاء رفيعة نعش أثر نعش ، مربوطة برؤوس المسامير الناتئة . اللحظة يقترب من الاغماء فيتدحرج في حضرة سيل سويت قبل قرن علىٰ الأرجح . فيصير الصحن المضيء ، الدائرة المضيئة ؛ القمر يلامس حافة التل مقسوماً بأشباح نساء عاريات . شبه عاريات تقريباً . عاريات تماماً . يتعرين أحياناً . يخلعن للقمر ويعوين . قال : جنيات . . اذهب يا خوف . إذهب يا خوف إذهب . ويزحف صاعداً بين القبور فتحل الأحجار محله . ينادي بخفوت : ايتها الجنيات . . اذهب يا خوف . فيسمع كلاماً يعرفه ، ويقترب من عريهن أكثر . ينهضن بالفؤوس ثم يهوين بالفؤوس لتهشيم منتصف القمر . لعله يعتقد بأنه يعرفهن ؛ صوت عالية ، صوت زهور ، صوت عزيزة ، صوت هاجر . أصوات جميع النساء المعروفات . لابد انه جاء إلىٰ هنا . لابد انهن جئن الىٰ هنا ليحفرن إحدىٰ الفقاعات . ينادي : أيتها الجنيات . . . يا عاريات . فلا يصل النداء بسبب الإنهماك في الحفر . يصعد دخان أزرق بعد الإنجاز فيشوه القمر . دخان

السحر والطقوس . هذا الدخان بالنبات يعمي الرجال عن محبة النساء ، يفرق الرجال عن النساء ، يزيد محبة الزوج لزوجته فيخضع . محبة الشرق . هنا ، غالية ، لا تأتي بالإخلاص أحياناً ، بل تأتي بالخوف . يصعد القمر ايضاً ولكن صعوده أقل . يسمع أصواتهن فلا يدري إن كانت معروفة لديه ؟

ينادي : من أنتن ؟. فيصرخن ويرجمنه بأحجار الحفر . . يتدحرج حتىٰ حفرة السيل نحو شبح آخر ، ذلك الذي يحقن الرضا تحت جلده فتتساوىٰ التجاعيد بالخد . أحم أحم . . أحم. يتجه الأحم إلىٰ المقبرة .

يلمس في الهاوية الزقاق جمرة حسده حيث مهوىٰ القطة التي حصرت بين نعلين ، يحسد نفسه ؛ كنت شجاعاً . لا . بل يشعر بخوف أقل لأن نقراً . . . . ما يفعل القلب أحياناً . النَفَس بعد زوال المقبرة في الزقاق ـ ظلمة الأم ، كيف تأتي الصور ويذهب الجوع ؟. المساحة أقل بناعم الهواء . ظل فوق ظل . جزر وحيطان وزحوف أفاع وألواح وأنوف في الظل . يلتوي البارد مسترخياً ومطيعاً كخرطوم . الهواء هو البارد . تستيقظ الأهداب باستيقاظ اللوامس فيكون الوراءُ أماماً بالتحول . يلتوي مبكراً . . فأين بقعة السقوط ؟. بقعة سقوط القطة التي حُصرت بين نعلين . ظل فوق ظل. يتابع الخائف

twitter @baghdad_library

حتىٰ النهاية منفرداً ، يتسلق داخل الرداء الواسع باتجاه الضحك ، لكنه لم يعد يدفع قسراً قدميه الرخوتين ، ولا لزوجة النسمة في الفراغ . كلا. ربما نسي القلب شغله مبهوراً أمام الحياكة المتقنة ؛ القمر ومساقط الظلال في الزقاق كف داعية الى الأعلىٰ ، قعر إناء بعيد . ضوء وظل. ضوء وظل . ضوء وظل . قصب السقوف : ظل . قنازع القش : ظل . الشبابيك : ضوء . الأعمدة: ظل . تمر من جميع الجهات ، اليسار واليمين ، الأمام والوراء ، الأعلىٰ والأسفل . . . بينما تذبل البيوت في مركز الكرة الأرضية حين يصعد عواء الضواري الجائعة فتذهب الصور ويأتي الجوع أحياناً . ربما تتوافق الصور مع الموضوع ، « الا تراها . جميلة تحت الباذنجان »؟ مجاعة السود عبر نشرات الأخبار . قعر إناء بعيد . ضوء . ضوء . ينسكب الضحك من الأعلىٰ ، رادعاً مجلجلاً عبر عش اللقلق طعنات طعنات حتىٰ يستيقظ القلب . الضحك يملأ الهاوية بين غرفته وغرفتهم، شباكه وشباكهم ، الشرق والغرب . الضحك جسر المصافحة حيث زغب الوجوه يلامس الوجوه المشتاقة .

وشاهين في الأسفل ، ينتصب بموازاة أنبوب تصريف مياه المطر ، فتملأ بعض القهقهات هذا الأنبوب ، لأن الخريف بلا مطر . . ترن مخنوقة ومبكرة . والأنبوب بارد لأن الهواء بارد . . بينما الضحكة حارة . .

لم يكن متأكداً بأنه معلـ ـ ـ ألم الطعنات الثلاث في كفه . يتسلق أكثر حتىٰ حافة الشباك ، تلك الحافة التي تذبح صورتهم من المنتصف . ثم يرتفع فيطلع رأسه لأنهم يطلعون رؤوسهم : فاتن ، والآخرون . يضحكون بعيون دامعة بين رفعة الأثاث . انهم قريبون . يصعد . هاهم. ويدلي رأسه . كانت هناك ست فتحات ، أما الآن فسبع ، لكن ضحكة يضيع في لجة النشيد المتجانس . تمتد يد ناعمة إلىٰ مجمرة . اليد بيضاء عصبية محاطة بدوائر الذهب ، ومقطوعة بطرف كم مبقّع . انتهت . اليد ممسكة بملقط أسود لأنها بيضاء عصبية . تضغط لكي تقرب طرفي الملقط على بعضهما ، ومن الجمر أيضاً . يرتفع الملقط لحظة صمت بلا أي همس ولا تنفس ـ فالكل ينظر إلىٰ المسمار المشوي الملقوط من الجمر . ببطىء لكي لا يسقط ، ثم يُعلق فوق اناء . اليد العصبية ترخي فيسقط المسمار في الماء : كش . ينفجر النشيد. ضحك ضحك . كش ؛ صوت برود المسمار . كش . ضحك . يضحكون لأجل هذا الـ « الكش » . . .

ينزلق مع الأنبوب . كش . يسقط في بقعة القطة صوت اصطدامه بالهاوية حين آلمته الطعنات الثلاث . .

كان شاهين يركض وراء آلام الليل ، حين الانطلاقة

twitter @baghdad_library

الأولىٰ للعصافير . وتستيقظ القرية ضاحكة ذات صباح غريب .

تضحك البيوت والدروب والخبازات ، والذين سحبوا بقراتهم من النوم بعدما قضّت الليل تحرك ذيولها لطرد البعوض .

كل شيء يضحك . حتىٰ الكلاب ونباتات الشوك ، والأعشاب الميتة في الروث كلحية مراهق ، والرجل الغريب الذي نام خجلاً بفضل تكرار الكرم ، وسأل : ما بكم ؟ ما الذي حصل ؟ ما الذي يضحككم ؟. ثم فرك كفه استعداداً للفطور . لكنهم غارقون في الضحك . فهز الطفلة التي تريد أن تسكت غير أنها كانت تنظر أسنان أمها المصفرة بالخبّاز والنيكوتين . ما الذي حصل ايتها الصغيرة ؟ لماذا يضحكون ؟ . وهكذا . . . أهمل رأسه ليكمل النشيد الناقص . ضحك . ضحك. ضحك. . . . .

twitter @baghdad_library

دابادا : هي صرخة في الفراغ .

تشهد نضال الإنسان ضد الموت التدريجي .

إنها رفسة موجهة قبل حلول الزوال ، لبعض الناس الذين يرفعون إنسانيتهم إلى الأعلى فيخرجون عن إطار الجذب الاجتماعي ويدخلون في صفحات الأسطورة . انها لا ترسخ اتجاهاً معيناً ولا تدافع عن مدرسة أدبية ، وإنما تتحدى قدسية التراث الروائي بأكمله . وذلك ، فهي تشبه قصيدة غليظة مشحونة بحس الفجيعة المضحك ، غائرة في التراث الاجتماعي لسكان وادي الرافدين حتى عصر آشور بانيبال . وربما كانت « تمريناً شاقاً لتعلم الخطأ » كما يصفها كاتبها الذي يقول أنه كتبها ليحمي نفسه من القراء .

الدار العربية للموسوعات